

بمحنة
التعريف بالاسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
بالقاهرة

أومِن بالإنسان

نظرة جديدة الى الكون من خلال نظرة
جديدة الى الانسان .

وهتاف من أعماق الفكر ، الضمير لبناء
العلم والحضارة والسلام العالمى على عقيدة
يوحىها التأمل فى أسرار الانسان وأعماله فى
الطبيعة .

عبد النعم ضارف

الكتاب السابع عشر

١٣٨٥ - ١٩٦٥

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

تقديم

بقلم فقيه الفكر الإسلامى والأدب النفسى
الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الأزهر
ووزير الأوقاف الأسبق

لما لقيت الأستاذ عبد المنعم خلاف أول ما لقيته كدت أعرف من هو من قبل أن أسأله من أنت ، فقد توسمت في وجهه ملامح من سمات أبيه رحمه الله . وكان أبوه رجلا من كبار العلماء في الأزهر ومن كبار الصالحين ، وكنا نستفيد من علمه وكنا نلتبس من بركته . ففى جيلنا كان الناس يؤمنون بأن في بعضهم بركة ، وأن صفاء القلب وقوة الايمان تجعل الأرواح فياضة بالخير ، وتجعل دعواتها مفتحة لها أبواب السماء .

واصلت معرفتى بالأستاذ عبد المنعم بعد هذا ، وقرأت كثيرا مما يكتبه ، فازددت يقينا بأنه ورث من أبيه العلم وورث من أبيه التقى . وقد قرأت كتابه ، فوجدت فيه عقلا ودينا . وإذا كان أبو العلاء يقول :
اثنان أهل الأرض : ذو عقل بلا دين ، وآخر دين لا عقل له

فان في الناس على رغم أبى العلاء من لهم عقل ودين .
والأستاذ عبد المنعم خلاف يريد في كتابه أن يؤمن البشر بأن الانسان أكرم أنواع الكائنات الأرضية ، وأن يكون في هذا الايمان سبيلا الى تحليهم بأشرف الفضائل ، والى تسامى جماعاتهم الى أرقى السعادات الاجتماعية .
يبسط الأستاذ القول في هذه المعانى ويفصله في حماسة تخيل اليك كما خيلت اليه أنه اكتشف نظرية في الكون جديدة ، وقد لا يكون الأستاذ اكتشف نظرية جديدة ، ولكنه اتجه بكل ما في نفسه من شباب وايمان وذكاء الى تقرير معنى السمو في الطبيعة الانسانية ، والى دفع الشعوب الى الخير من هذه الناحية ، وهذا صنع مشكور في موضوعه وفي غايته .
والمرجو أن ينتهى جد الأستاذ في تفكيره ودرسه الى فلسفة تكون جديدة حقا ، ويكون أثرها في اسعاد الانسانية عظيما ان شاء الله .

مصطفى عبد الرازق

القصيدة

إلى الأبطال الثلاثة:

التوراة والإنجيل، والقرآن!

الذين ثبتوا يكافحون في الدهر الأطول:

قوى الظلام والطغيان والهوان، نضالا

عن كرامة روح الإنسان!

الابتهاال ، ورجاء ، وتعريف

بسم الله الرحمن الرحيم

وبسم الله السلام المؤمن !

أبتهل الى الله العلى الكبر مكرم الانسان بهذا الابتهاال العميق الذى ابتهل به « فرانكلين روزفلت » رئيس « الولايات المتحدة الأمريكية » الراحل ، وأعظم معاصر مسئول عبر عن الروح المؤمنة بالانسان .

قال حين خطب فى يونيه سنة ١٩٤٢ فى « يوم العلم » والاحتفال « بصريح الأمم المتحدة » :

« الهنا ! يا مانح الحرية . اننا نضع أفئدتنا وأرواحنا اليوم رهن قضية حرية الجنس البشرى كافة . امنحنا اللهم الايمان والفهم لنحيا ونعتز بالذين يحاربون من أجل الحرية كما لو كانوا اخوة لنا . امنحنا اللهم التأخى فى الأمل والاتحاد ، لا فى فترة الحرب المريرة فحسب ، بل فى الأيام المقبلة أيضا ، وهى الأيام التى يجب أن توحدهم - وسوف توحدهم - جميع أبناء هذه الأرض . فاذا ما ظلم اخوتنا فنحن كذلك مظلومون ، واذا كانوا جوعا فنحن كذلك جوعاء ، واذا كانت الحرية قد انتزعت منهم فان حريتنا غير مصونة » .

« امنحنا اللهم ايمانا مشتركا بأن الانسان سيكون له الخير والسلام ، والعدالة والبر ، والحرية والأمان ، وتساوى الفرص ، لا فى وطننا فحسب ، بل فى جميع أنحاء العالم أيضا » .

* * *

وكان الناس يرجون من (الولايات المتحدة الأمريكية) أن تسير عقب الحرب الثانية على مقتضى منطق هذا الابتهاال وبادراك عميق لما فيه من حقائق الحياة والعلم والايمان ، لا على « مناورات » السياسة والاقتصاد والمصالح

المادية الخاصة وحجب القهر ، اذ كانت أقرب النماذج الدولية الغريبة الى الحياة المنشودة بين الأجناس والأديان والشعوب .

وكانوا يرجون أن تدرك رسالتها العظمى في توطيد حياة السلام والعدالة الدولية والانصاف للشعوب الصغرى ، فلا تنساها أو تتكاسل عن تحقيقها . كما نسيت وتكاسلت بعد الحرب العالمية الأولى ، فكان جزاؤها أن اضطرت مرة أخرى الى بذل هذا الجهد الجبار بالدم والمال والموارد المادية وقوى الكفاح .. وكان يسعدها ويسعد العالم لو بذل نصفه أو أقل من نصفه في حياة السلام والاستقرار قبل الحرب الثانية .

ولقد قال الراحل (وندل ويلكى) منافس (روزفلت) في انتخابات سنة ١٩٤٠ بتاريخ ١٤/١/١٩٤٢ - « اتنا جميعا نلوم (هتلر) وحده ، بيد أن هذه الفكرة السطحية ليست صحيحة ، فاللوم لا يقع على « هتلر » وحده ، بل ينصب علينا الى حد ما ؛ فلقد سمحنا في الماضى لاتناجنا الصناعى العظيم أن يتحكم فينا ، وأن يتغلب على مثلنا العليا .

أجل ، هذا هو موضع الداء وضع (ويلكى) أصبعه عليه .. فان « الولايات المتحدة الأمريكية » كان يجب أن يكون موقفها بعد الحرب الأولى والحرب الثانية موقف « موجه » من عالم جديد سعيد بتناسى أحقاد الجسمية وفوارقه السطحية ، الى العالم القديم الذى لا يزال رهين هذه الأحقاد .

بل كان يجب أن يكون موقفها موقف المدافع عن حرمان الشعوب الضعيفة ، الساعى الى رد الحقوق المغصوبة ، بعد أن كان انضمامها الى الحلفاء فى الحربين السابقتين أعظم مرجح لكفثهم ، وبعد أن تلقى المعسكران المتحاربان مبادئ رئيسها العظيمين (ويلسون وروزفلت) بالهبة والتفاؤل والاستبشار . وكان فيها المثل المنشود . وكان شرف أمريكا يقضى عليها أن تقوم على تنفيذ تلك المبادئ التى قدمت باسمها ، وأن تجمع حولها كل مظلوم من الدول والأمم وتعلن الحرب الدائمة على كل من ينقض عهد تلك المبادئ ، حتى ينفى الى أمرها . تنفيذا لقول رئيسها (روزفلت) بعد أن هاجمت اليابان (بيرل هاربور) بيومين ، اذ قال مخاطبا الأمريكيين «عندما

نلجأ الى القوة ، كما هو محتّم علينا الآن ، فاننا نعقد العزم على أن نوجه تلك القوة الى الخير النهائي كما أنها توجه الى الشر المباشر الآن . ونحن الأمريكيين لسنا هدامين ، بل بناءون . ونحن الآن وسط حرب ليست غايتها الفتح ، ولا هى لأجل الانتقام . بل لأجل عالم يعيش فيه أولادنا فى أمن . واننا سنكسب هذه الحرب كما سنكسب السلم الذى يعقبها « تنفيذاً لقوله فى وصية أخرى فى ابريل سنة ١٩٤٥ « كونوا أيها الأمريكيون رجالاً يقاتلون لفكرة مثلى ، لا من أجل أمريكا وحدها بل للانسانية جميعها » .

هكذا كان الناس يرجون من أمريكا ويرجون .. ولكن مع الأسف البالغ لم يتحقق من رجائهم شئ يسعف الآمال الانسانية التى كانت معقودة عليها . بل ان ما بدا منها من مناصرة مستمرة للصهيونية العنصرية الطاغية فى فلسطين ، وتشريد للمليون عربى من أوطانهم ، ومن تمييز واضطهاد عنصرى عنيف فى الولايات المتحدة نفسها قد عكس الآمال فيها الى شبه يأس منها .



« وبعد » فهذا الكتاب حلقة من سلسلة ذات خمس حلقات : هى محاولة أحاول بها التمهيد الفكرى والوجدانى لقيام الحضارة الروحية المادية التى هى أمل الانسانية جميعها . وذلك :

- ١ - بنظرة جديدة للكون من خلال نظرة جديدة الى الانسان ترفع مكائته لدى نفسه ، وتنمى ثقته وايمانه بنوعه ، وادراكه أسرار خلقه وفكره وجهده وتنوعه شعوبا وألوانا .
- ٢ - وربط روحه بمصدرها الالهى ربطا وثيقا على هدى من العلم والدين .
- ٣ - وبوصل عقله بأعماق الطبيعة وأسرار الحياة ، حتى يشعر بالانسجام مع الكون كله .
- ٤ - وببعد صداقة وثيقة بين ضميره والمعانى العليا للحياة ، وهى : الايمان ، والحق ، والجمال ، والقوة ، والحب ، والخير ،

بعد ما أصابه من هذيان الفلسفات المادية الجامحة ، وشوشرة المذاهب الهدامة ، التي كان من نتائجها طوفان الدم والوحل الذى طم على الانسانية كلها فى الحرب العالمية الثانية ويوشك أن يقضى عليها فى حرب ثالثة اذا لم تتداركها العناية الالهية .

٥ — وبملء قلبه بنفحات التفاؤل الرحب ، والصبر الجميل ، والاستعلاء الأبى على أسباب التشاؤم والألم والسخط والانتقاض .

٦ — وبحمل جهده على عزائم الكفاح والسيطرة على القوى المادية العمياء لتسخيرها وتثميرها للنفع العام .

٧ — وبانهاض أسرة الأمم الاسلامية حتى تؤدي نصيبها فى الحضارة المنشودة ، على قدم المساواة مع أسرة الأمم المسيحية والأسرة اليهودية .



وهذا الكتاب كذلك محاولة من « الروح الشرقى » الذى كان ولا يزال ذخره وعماده فى مراحل التاريخ : الاتجاه الى خالق الوجود بالفكر والصلاة والبكاء ، والاستمداد مما يلقيه فى أعماق الضمير من الهام وحب وطهر وصفاء واحالة على الغيب حين العجز عن حل مشكلات الفكر، والعيش بغير أسلوب الفكر المادى الذى يتناول مشكلات العالم وعقده وخروقه بأسلوبه الواقعى الضيق المعروف ، ولا يصدر غالبا الا عن المصلحة القريبة المنظورة المؤقتة ، ويعالج الأمور بالذكاء وحده ، ولا يستعين معه بالايمان بالقيم العليا للحياة .

ومما أنشده فى هذا الكتاب ، استمرار الناس على اقرار خلاصة رأى الأديان السماوية الثلاثة الكبرى التى نمت حضارتنا فى وصايتها وما تزال مسيطرة على أعظم أمم العالم قديما وحديثا ، وهى اليهودية والمسيحية والاسلام ، فى تشريف هذا الجنس البشرى ، والايمان به وبسمو الغايات التى خلق لها ، وأولها وأعظمها الايمان بالله بارى الكون ، واستمداد الضمير منه .

ولم أهمل الاعتراف بأى جانب من جوانب الانسان الروحية والمادية ،
ولم أر أن فى حذقه المادى وقدرته الابتداعية أى باعث له على الغرور
والفجور وجحود الايمان ، بل على العكس رأيت هذا الجانب منه أعظم
الأسباب التى تحتّم عليه أن يكون ايمانه بنفسه أعظم وسيلة لايمانه بمن
خلق فى نفسه هذه القدرة الابتداعية النامية المنمية !

ولم آخذ حذو الروحيين المغرقين فى الروحية ، والمهملين للجانب
المادى ، ولا حذو الماديين الحسيين المستغرقين فى حياة المادة مع عدم
الاعتراف بما وراءها ، بل اتخذت الموقف المعقول بين بين .

وقد زعمت أنى اهتديت الى القضية الفكرية والدينية الأولى حين
أقرر « ان الايمان بالانسان سابق على غيره من قضايا الدين والفكر ،
لأن الفرد الانسانى لن يؤمن بالكون ورب الكون ان لم يؤمن بنوعه ،
اذ أننا لا ندرك الكون وربّه الا بعقل النوع الانسانى ، فاذا أهدرنا قيمة
الانسان أهدرنا عقله ، فلا يبقى لنا ما ندرك به الكون ورب الكون ! »

وحسبنا هذا من حامل على الايمان بالانسان لضمان قيم وجودنا
الروحى ، ومنطقنا الفكرى والعملى .

فان لم آكن سبقت الى الاهتمام الى هذه القضية ، فهذا الزعم
صحيح ! ونعم هو من توفيق أحمد الله عليه أجل الحمد . !

ولا يخفى ما وراء الاعتقاد بصدق هذه القضية ، والعمل بمقتضاها ،
من مبادلة السلام والاحترام والانصاف بين الناس جميعا .

فلنفتح ضمير كل أمرئ بهذه القضية التى صار من السهل اثباتها ،
ومن مصلحة كل فرد تحقيقها .

ولنؤمن بها لنعمل عمل المتفائلين الذين تغمر قلوبهم نشوة الجهاد فى
سبيل بناء عالم انسانى جديد سعيد ، بعد هذا العالم القديم الشقى الذى
تداعى تحت معاول الجحود والجشع والأنانية والجهالة والحقْد
والاغتصاب .

نعم ، لنؤمن ولنعمل ما يقتضيه الايمان ، وليس علينا أن ندرك
النجاح ، فقد يكون « الايمان — وليس النجاح — هو غاية الحياة » كما
يقول الكاتب الفرنسى الفقيه « رومان رولان » .
لنؤمن ولنسالهم ، لنكون مع الله « السلام المؤمن » !

عبد المنعم محمد خالاف

القاهرة فى يوم الجمعة { ٥ من رجب سنة ١٣٦٤
... .. ١٥ من يونية سنة ١٩٤٥ }

ملحوظة : شرع فى طبع هذا الكتاب الطبعة الاولى قبيل انتهاء
الحرب العالمية الثانية فى أوروبا ، وفرغ منه بعد انتهائها فيها ، ولذلك
جاء الحديث عنها مختلف الصيغة الزمانية .

مقدمة الطبعة الثانية

هذه هي الطبعة الثانية لهذا الكتاب وقد رأى اصدارها (المجلس الأعلى للشئون الاسلامية) الذى ينهض بأعباء عصرية ضخمة فى خدمة الدعوة الاسلامية والتعريف بها على نطاق عالمى ، وفى توثيق الأواصر بين المسلمين .. فله صادق الشكر .

وقد أثارت فكرة الكتاب عند ظهورها جدلا كثيرا فى معسكرى الدينين الحرفيين والملاحدين المثكرين للدين ؛ فحسبها الأولون خروجاً على رأى القرآن الكريم فى الانسان ، مستشهدين بمثل قوله تعالى « وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » « وكان الانسان لربه كفوفا » الى آخر الأوصاف التى كشف بها القرآن عن جانب الشر فى طبيعة النفس البشرية ليحذر كل فرد من تغلب ذلك الجانب على جانب الخير الذى فى طبيعة تلك النفس كذلك ، ويكشف عنه القرآن أيضا فى مثل قوله تعالى « وهديناه النجدين » « انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا » « ونفس وما سواها . فآلهمها فجورها وتقواها » . الى آخر ما أفضنا الحديث عنه فى فصل « فى معترك الآراء » من هذا الكتاب .

ولم تنفطن تلك العقول الدينية الحرفية الى ما وضعه هذا الكتاب من أساس مكين للتفكير الاثباتى فى الجدل عن الدين والعلم والحياة ، ليبطل جدل الذين يدينون بالشك ومذهب الاحتمالات فى كل شئ ولا يرون فى الكون كله حقيقة واحدة ثابتة ، ولو كانت ذات الانسان الذى يحملونه فى أنفسهم ! وجدل الذين لا يرون فى الكون الا طبيعته المادية وحدها ، مغفلين ما وراء تلك الطبيعة من عالم التدبير « والأمر » الذى دبرها وخططها وأمدّها بالوجود والظهور فبرزت ووجدت .

كما لم تنفطن الى حركة الالتفاف التى يتحركها الكتاب وراء تلك الأفكار ، اذ اعتمد على العمل العلمى المادى الذى يعمله الانسان الآن فى التكوين والتخريب وكشف المجهولات من رحاب الطبيعة وتسخير قواها ،

للاستدلال بذلك على قيمة الانسان في الكون ، وعلى اتجاه ارادة الخالق به وحكمته تعالى من وجوده .

أما الملحدون فقد حسب بعضهم ان هذا الكتاب باب يلجون منه الى هدم الدين والدعوة للاستغناء عنه ، واتخذوه وسيلة يحققون بها الوصول الى شهوة صغيرة أو شهوة كاذبة لأنفسهم بادعاء الحرية الفكرية والسبق الى الثورة في فهم الدين والعقل والحياة .. كما فعل المدعو (عبد الله القصيمي النجدي) في كتابه الذي سطا فيه على (أومن بالانسان) و (الحياة صادقة) (١) بدون أية اشارة الى الأخذ منهما ، وضل بسبب سوء فهمه لهما أو سوء قصده ، وأدار على محاورهما المستقيمة حديث كتابه المنحرف المشبوه .. وكتب تحت عنوانه : « سيقول مؤرخو الفكر : انه بهذا الكتاب ابتدأت الأهم العربية تبصر طريق العقل » و « انه ثورة في فهم الدين والعقل والحياة » .

ولا شك ان مؤرخي الفكر اذا قالوا هذا ، فلكتاب آخر .. هو مصدر الآراء الصحيحة في كتاب القصيمي (٢) .

وقد بدت فعلا طلائع هذا القول منذ أن أشار اليه فقيد الفكر الاسلامي الأستاذ الأكبر الشيخ (مصطفى عبد الرازق) في تقديم الكتاب ومنذ أن كتب الدكتور (جون بادو) مدير الجامعة الأميركية . وسفير الولايات المتحدة سابقا بالقاهرة يقول « أنا على ثقة أنه (الكتاب) اضافة أصيلة للفكر في مصر » (٣) .

وقد وقعت في هذه الفترة بين الطبعتين أحداث وجرت تطورات تاريخية في التحرر السياسي والاقتصادي والاجتماعي للانسان ، واطرد اتساع علمه وقدرته وتسخير لقوى الطبيعة .. وقد سارت كل هذه الأحداث والظواهر في اتجاه التأييد لفكرة الكتاب .

(١) بحث آخر للمؤلف .

(٢) انظر البيان الذي في أول كتاب « العقل المؤمن » للمؤلف .
(٣) and I am sure it is a real contribution to Egypt.

من رسالة بعث بها دكتور بادو للمؤلف سنة ١٩٤٥ .

وحسبنا أن نشير الى أمرين : الأول ما ظهر في المجال العلمى الطبيعى،
والثانى ما ظهر فى المجال المعنوى السياسى والاجتماعى .

أما الأمر الأول فهو هذا الطارق الذرى الجبار الذى أطلقته
الانسانية من طاقات الذرات وسخرته وانطلقت به تحاول النفاذ من أقطار
الأرض لتسبح فى عالم الفضاء الكونى والكواكب فى مرحلة جديدة من
فتوحها ، بعد أن درعت وحصنت جسمها وأخذت أهبتها لهذا السفر من
الأرض للسماء ..

وسواء تم للانسانية ما أرادت من مقاومة المؤثرات التى فى الفضاء
الكونى حتى تهبط لنفسها مهادا صالحا لعيشها هناك كما تعيش بمثله
هنا على الأرض ، أم لم تصل الى هذه النهاية وكان غرض العناية الالهية
فقط أن تبرهن بهذا الفعل من الانسان على صدق ما سبق أن حدثته به
من اصعاد بعض المصطفين الأخيار من بنى البشر الى هناك ، معجزة وكرامة
لهم ، حتى تقوم الحجة على المفكرين ، ولا يكذب مكذب حديث تلك
المعجزات والكرامات التى أشارت بها تلك العناية مبكرا الى مستقبل
الانسان .. أقول سواء كان هذا الغرض أم ذاك ، فإن العمل فى ذاته
عظيم ! عظيم ! فى تجديد البرهنة على قيمة الانسان ووضعه فى الوجود ،
وأنه ليس شيئا تافها ، ولا هو مخلوق عبثا بدون غاية أو حكمة أو قصد
الى مصير مرسوم ، وانما هو ، كما نقول . دائما قانون ينمو فى ذاته وينمى
الطبيعة معه ، ومفسر (١) بعمله لكلمات الله الكونية وأفعاله وارادته تعالى
من بيان ما فى غيب السموات والأرض عن طريق الانسان ..

وقد كان فرحى بنجاح رواد الفضاء فى الانطلاق بمراكبهم والخروج
منها والسبح والتقلب بالجسم هناك ، كفرحى يوم طالعت الاعلان عن
صدور (أو من بالانسان) فى طبعته الأولى بصحيفة (الأهرام) منشورا
تحت خبر الوصول الى سر القنبلة الذرية الذى أعلنه (ترومان) و (اتلى) ،
فشعرت حينذاك أن هذا التوافق العجيب انما هو اشارة « تصديق » من
الأقدار على فكرة الكتاب .

(١) بينا هذا فى بحث « المادية الاسلامية وأبعادها » .

ولقد ظل هذا الاعلان ينتظر فى (الاهرام) دوره فى النشر ما يزيد على شهر حتى اتى ذلك اليوم ، ولو خيرت ما اخرت غير هذه المناسبة للاعلان ولو تأخر شهورا أخرى . . ولو طولبت بأجر على ذلك التأخير وتلك الموافقة التاريخية لدفعته عن طيب خاطر . . فانه ليس بالقليل أن ترى الأقدار تؤنسك بلقمة من لفتاتها ، وتتطوع لتصديق رأيك بتقديم دليل جديد يؤيدك وأنت فى شك مما سيقابلك الناس به غداة الاعلان على رءوس الاشهاد عن قضيتك « أومن بالانسان » .

وحسبك من جزاء على التبشير بمستقبل الانسان فى زمن الشك والوجود بقيمته ، أن ترى أو تسمع كلمة تصديق وتشجيع ينطق بها ناطق !
!زمان فجأة وعلى غير ترقب وانتظار !

وانه لنصر فى أول الطريق يثير الشجاعة على المضى الى آخره ، حين تحس أن الكون معك بهتافاته وارهاساته !

وان قضية يعلن عنها وتدخل الأذهان مع صدق ذلك الطارق الجبار الذى تنسف به القدرة الانسانية مدينة وترك عاليها سافلها فى لحظة ، أو تطلق به انسانا أو عددا من الناس فى مركب صاروخى الى عتبات الكواكب فى لحظات . . لقضية ينبغى أن تكون عمادا جديدا لتجديد الدعوة الدينية الى اقرار القيمة العليا لرب الوجود وقيمة خليفته فى الأرض ، لا أن تكون معولا لهدم الدين أو هدم الانسان أو سببا فى غروره والحاده ، كما يتوهم فارغو الرأس من الحكمة وفارغو القلوب من التذوق !

وأما الأمر الثانى فهو التقدم المعنوى للانسان فى طريق الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وانتصار الشعوب المكافحة لاسترداد حرياتها ، وتحطيم أغلال العبودية والاستعمار والاستغلال والاذلال عن أكثر الأمم حتى فى أعماق القارة العذراء المتخلفة : أفريقيا . . فلم يبق الا عدد قليل من الشعوب لما ينل بعد حقوقه وحرياته ، وعماء قليل ينالون .

وقد توقعت هذا المصير الكريم للانسان فى بعض فصول هذا الكتاب ، وكان هذا التوقع مبنيا على رؤية واضحة للحتمية التاريخية واقتفاء خطوات الحياة وسيرها بالانسان ، وقياس المستقبل على الماضى والحاضر :

ومثلاً ، قد سارت امتنا العربية في مصر وفي غيرها من الوطن العربي الكبير على هدى وروح من الايمان بالانسان وبنت فلسفة ثوراتها ونهضاتها على مايجب للانسان العربي وللانسان عامة من قيمة وكرامة وعزة مستمدة مما كشف عنه هذا الكتاب لأول مرة من أسرار ومعان توحى بها قصة خلق الانسان كما وردت في القرآن الكريم وخاصة ما يدل عليه أمر الخالق للملائكة بالسجود لآدم في تلك القصة .

وحسبنا أن نشير في هذا المقام الى ماقامت به مصر ومن نحا نحوها من عناية ببناء الدولة على العدالة الاجتماعية التي هي انجع وسيلة لتصحيح قيمة الفرد الانساني لدى نفسه وحسن ظنه بالحياة ، وللقضاء على أشد أسباب الكفر بالدين وكل القيم ؛ الا وهو الفقر الذي « كاد أن يكون كفراً » كما يقول الأثر الشريف .. وقد حلت مصر بالعدالة الاجتماعية المسألة الاقتصادية ، وسحقت رأس الأفعى التي تحدث عنها بنوع خاص هذا الكتاب في فصول (المسألة الأفغوانية) و (جرائم التفاوت الفاحش) و (عقيدة النوع) .

عبد المنعم محمد خلاف

المعادى فى غرة المحرم سنة ١٣٨٥ هـ

الموافق ٢ من مايو سنة ١٩٦٥ م

أطرحها قضية

القضية وموازينها - استجابته لنداء الحياة والنفس -
هذه الحرب - نتيجة الايمان بالحق المطلق والدمال
المطلق - لاختراع للواقع - هل يسمع لنا ؟ - تأثير
المغلوبين في الغالبين - الضعف السامي والقوة السافلة -
العالم الغربي بين دوى الدم والوجل وممس الرحمة
والحب - لا بأس - كنا في أحسن تقويم وسنعود - أمور
ثلاثة لابد منها - كلمة الى محترفي السياسة وسمايرة
المال - كلمة الى عشاق الحق والسلام .

أطرحها قضية ! هي تلك الثمرة الفكرية المنطقية الموضحة في الفصل
التالى من هذا الكتاب .

وأطرح فى موازينها موارث تلك الأرواح والعقول والقلوب التى
استعلن سرها العظيم ، وتجلى جوهرها الكريم فى آباء الانسانية الأولين
والآخرين : من الأنبياء والمرسلين ، والحكماء والصديقين ، والعلماء
المنتهين ، والأدياء الملهمين ، والرواد المقتحمين ، والشهداء المجاهدين ،
والجنود المجهولين من الزارعين والعاملين الخادمين الصابرين !

وأرسلها صيحة فكر وضمير لا مقالة كاتب يزجى لونا من ألوان
« الترف العقلى » يقدمه على مائدة الكماليات فى عالم الفكر ، ليتفكه
به المترفون المشتهون كل جديد من الآراء ..

وقد تعمدت أن أقلب النظرة وألتمس نقائص الانسان وأسباب
الكفر به والتحقير من شأنه ، وأأخذ بالنظرة المادية وحدها ، فما استطعت
ذلك ، لأن وجدت حياته توحى الى أن أؤمن به وأعتبر ذلك الايمان
أساسا لغيره من شعب الاعتقاد .

وقد تعمدت كذلك أن أقف وقفات طويلة بين مراحل تلك الفصول (١) التى تضمنها هذا الكتاب لأتبين : هل أنا مخدوع فى الطريق الذى سلكت فأعود منه وارتد عنه ؟ ولتذهب عنى فتنة ابتداء القول والعجب به — وان لا ابتداء القول فتنة وعجبا كما يقول « الجاحظ » — وحاولت أن أراجع الشئون السافلة فى حياة أفراد الانسان لعلها تصرفنى عن الاعتقاد فى امكان سموه كمجموع .. ولكن كانت الأيام والوقائع وطول التأمل تزيد دائما فكرى وقلبى ايمانا بصحة ما ذهبت اليه .

وقد هتفت « أومن بالانسان ! » استجابة لنداء الحياة ونداء النفس . فقد نادتنى الحياة الانسانية الراهنة الزاخرة الى الايمان به وبمستقبله ، برغم ائمه وشره فى عصره هذا ، وحملتني على ذلك بنبوتها ومعجزاتها . والحياة المدنية الحالية نبوة ! نبوة شيعوية .. أخذت جميع أمم الأرض بمعجزاتها وأخضعت أعناقهم بأدواتها المأخوذة من أسرار الطبيعة . فلنعرفها على حقيقتها ، ولنعلم أنها باب الملكوت الذى وعدت به رسالات الشرق الأولى التى وجهت الانسانية .

انها نبوة الطبيعة وقوانينها ، وحقائق الأشياء وبراهينها ، لا نبوة الارشاد والترييب والكلام الذى ألقاه الرجال الآباء فى سمع الانسانية وهى فى أدوار تكوين الضمير وتطبيع الأعصاب وتوجيه الأخلاق بالرحمة والاخلاص والايمان ، وسمو النظرة الى الانسان فى حياته هنا وفى مصيره هناك .. وهى صفات لا بد منها فى المهود والمدارج (١) .

فان أنا لم أستجب لنداء هذه الحياة بالجسم الخفيف السريع ، والفكر اللطيف اللماح فان الفطن لأسرارها ، والواعى لخطرها وقيمها ، العارف باتجاهات قافلتها ... كنت من المتخلفين البلاء الكافرين بنعمة الله ! ولله فى هذه الحياة المدنية الحالية نعم جليلة لا يكدرها الا عنف وحقاقة وطييش من بنينا ..

(١) نشر كثير منها على فترات فى مجلتى الرسالة والثقافة بين سنتى ١٩٤٠ و ١٩٤٥ ونشرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب سنة ١٩٤٥ .

وقد نادتنى النفس التى حاولت جهدى أن أحفظ لها حدودها وطابع
عالمها الخاص ، وألا أسمح ببطغيان الجسد عليها طغيانا يجعلها تذهل عن
ذاتها وتخلط بين معدنها والمعادن الأرضية ، الى الايمان به كذلك ،
وحملتني على ذلك بما كشفته لى من آفاقها الخاصة التى لا دخل للتعليل
« البيولوجى » (١) و « الفسيولوجى » (٢) فيها .

وكنت حريا — وأنا أطلب الحق — أن أستمتع للنداءين فأوفق
بينهما ، وأن أرى ضلال الذين عكفوا على الحياة المادية وحدها أو على
الحياة الروحية وحدها ولم يزاوجوا بينهما .

وحينما فجأتني صيحة الحرب العالمية الثانية الفاجرة الجبارة ،
التي دارت طواحينها الحمراء على جماجم الانسان ، وذرت فيها رياح
النار مدنه وآثاره العامرة بالجمال والحرمان ، وأحالتها خرائب وأطلالا
تعمرها أشباح الهول وتتساقط عليها المصارع فى صيحات وصعقات نكراء
ترسلها أفواه وحوش الحديد والفولاذ الرابضة والسائرة والسابحة
والطائرة ، زلزلت فجأتها وجرائمها دعائم عقيدتى فى ذلك النوع وأملى
فى مستقبله .

ولكنى عدت وقلت لنفسى : هل يمكن أن يفعل مثل هذه الأفاعيل
لو كان يدرك نفسه ، ويؤمن بها ، ويعلم مدى ما يريده رب الحياة منه
حين أخرجه اليها ، وجعله خليفة يخلفه خلافة واسعة فى عمارة الأرض
وكشف أسرار الطبيعة ومحاكاة نماذجها وافساح مداها ؟

هل يمكن أن يفعل هذا لو كان يدرك أنه أعظم من أن يكون كغيره
من ساكنات الأرض العاجزات القاصرات ، المحدودات القوى والادراك ،
السائرات بالغرائز وحدها ، المحرومات مما عنده من قوى التقليد والخلق
والابتكار والتسامى ؟

هل يمكن أن يفعل — لو أدرك الحقائق — عن أن موارد الأرزاق
والأقوات التى يصطرع عليها ، كافية لأن يسعد بها كل فرد وكل أمة

(١) تعليل علم الحياة .

(٢) تعليل علم وظائف الاعضاء .

لو وزعت توزيعا عادلا ، ولم تطفح عليها شراهة التملك وطباع الاغتصاب والختل والأثرة والاستكثار للمباهاة والمغالبة والاستعلاء . ؟

وهل يمكن أن يفعل هذا لو كان يدرك أن كل فرد في الانسانية انما هو ثروة لها وقوة في كيانها لو أحسن توجيهه وتربيته ، واحترم وجوده وحقه ، ولم ينظر اليه تلك النظرة التي تهدر دمه ، وترخص روحه ، وتغفل عن أن يد الله لم تخرجه للحياة الا لغاية قد تنفع الانسانية جميعا . وقد تكون الغاية من خلقه أن يكون كناسا أو اسكافا أو خفيرا ... ولكن من ذا الذى يزعم أن الدولة ليست بحاجة الى واحد من هؤلاء كحاجتها الى ملك أو رئيس ؟ ! ان الخلايا التي نصيبها أن توضع في مكان القذارة والنجاسة من جسم الانسان ليست أقل شأنا في حياته من خلايا الوجه والمخ .. وانما هو قانون التوزيع بين أعضاء الجسم ، يقضى أن يكون بعضها في الأساس المختفى وبعضها في القمة المستعنة ، والكل بناء واحد ، له قيمة واحدة .

وهل يمكن أن يكون الانسان الذى نراه بالعيون ضيلا مجرما قبيحا في بعض الوحدات ، هو الانسان الكلى الذى ندركه بالفكر والبصيرة والضمير ، حين نستعرض الكائنات الأرضية ونراه فيها ذا تفرد وذاتية خاصة ، وقدرة على التسامى الى الله ، والأخذ من علمه تعالى وأسرار صنعه ؟

وهل يمكن أن يكون الانسان المنشود هو ذلك الداهل عن نفسه ، وعن دخوله الى الحياة وعن خروجه منها من غير اختيار ، وعن رحلته بين الأزل والأبد على هذه الأرض تلك الرحلة العامضة في ذلك الكون المجهول الصامت الذى لا نعلم حدوده ، ولا ندرك أبعاده ؟

كلا ! لن يكون الانسان المنشود المدرك لنفسه ووضعه هو هذا الذى نراه رهين المقابح والغفلات ، صريع الذهول والحماقات !

ان الأمر جد خطير ، تحتبس من الفكر فيه الأنفاس ، وتتلاحق النبضات ، وتحترق الخطرات !

وان الوقوف عنده وفوف على « نقطة البدء » في الحياة ، ومن ورائها
زمام الأمر كله ومقاليدہ !

ولما كنت من عشاق الحق المطلق والجمال المطلق ، وقد تخيلت في نفسي
صورا منها ، ومن أحلام السعادة في ظلالهما ، وآمنت بهما إيمان الموقن
أن الانسانية مخلوقة لتسوس اليهما مهما كانت الطريق اليهما ذات وعورة
وامتداد .. لذلك لم ألق بالآلى النقص والفساد والقبح الذى يشيع
فى الناس الآن ، وثبت على الايمان بالسمو الاجتماعى وامكان الوصول
اليه ، حين وجدت أن بالانسانية حيننا اليه ، وقدرة على اطراد التقدم
فى سبيله . ولم أبال بالمعوقات والشور ، ولم أجعل لها وزنا واعترافا
الا بمقدار الاحتراس منها ، والجهد فيها .

وربما يكون مبعث هذا الايمان هو السير وراء الفكر وحده لا وراء
الغرائز والواقع .. ولكن مهما يكن من شىء فهذا الايمان هو القوة الدافعة
الوحيدة التى يمكن استخدامها للتقدم والارتقاء .

ألا يحس كثير منا أنه يجد صور الخير والجمال كاملة فى نفسه ،
ويود لو وجدها كذلك فى خارج نفسه .. فى أسواق الحياة ؟ ثم هو يجد
أضدادها تملك عليه طرق الحياة ، كما تتراكم الزبالات والقاذورات فى
طريق الرجل المنتظر . . فيضطر ليخوض فيها سعيًا وراء القطيع ، وأداء
لواجبات المعاملات والضرورات المعاشية القاسية .. وكثيرا ما تلوثه
أو تبتلعه أو تحوله الى خادم من خدامها ، لأنه عاجز ضئيل لا يستطيع
أن يقاوم تيار أو حالها وينهض وحده بمصارعتها ؟

فلا يحملنا واقع الحياة السىء على الكفر بها فى نصائبها الأعلى من
الجمال والصلاح والكمال الذى يوصى به الحق والفن الرفيع والمثل
الأعلى الذى يملأ مخيلاتنا ، ويشير أرواحنا : ذلك الذى يدل على أنه
من الممكن أن الله شغل به أحلامنا ، وكلفنا السعى اليه ، فلو لم يكن
ممكنًا ما كلفنا إياه ، ولا شغل به أرواحنا ، ولا أودعه الهامنا .

نعم : اننا لن نصل الى جوهر المعانى الانسانية الا بعد جهد عنيف
في اختراق الحجب الكثيفة التى غشاها التاريخ على الأفكار والنفوس ،
وجعلها تفهم أن الانسان المقصود هو ذلك الذى يرويه الآن يملأ جوانب
الحياة بالجرائم والنكبات والجهالات .

وقد يكون الوصول الى لباب المعانى الانسانية سهلا ميسورا لو أننا
حافظنا على فطرة الخير فى الطفولة ، من أن يتطرق اليها ماتطرق اليها وأفسد
فطرتنا . فان لباب المعانى الانسانية يمكن الوصول فيه الى المحصول الذى
حصلنا على مثله فى الزروع وأنسال الخيل وما اليها من أنواع الحيوان
والنبات التى يجرى العلماء — فى تنشيتها وتعهدها وتحسينها — تجاربهم
ويحصلون على نتائج قيمة .

والمشقة كل المشقة هى فى اقناع الناس أن ينتقلوا من المكان الذى
قذفتهم فيه قوى الشر ، الى المكان الذى كان من الواجب أن يكونوا فيه
ليروا مقاطع النظر الصادق الصحيح ، حتى ولو لم يعملوا به فى الحياة .
ولا يؤيسنا من ذلك بعد الشقة بين المكانين ، بعد أن رأينا ابن
آدم استطاع أن يروض الأسود والنمور والقروء ، ويعلم الكلاب والخيل
والحمير رياضات هذبتها وأنستها كثيرا من شرور طباعها .

وباب الأمل هو أن تشرع الانسانية فى التجرد من أخطاء العصور
السابقة : عصور الجهل والقصور وغلط التفسير والتأويل فى وجهات
الحياة ، ثم تسلم نفوسها للطبيعة الصريحة التى كشفت عن وجهها
النقاب ، وعن أسرارها الحجاب ، فبان قصدها ، ووضحت دروبها .

وفى الواقع أننا نعيش بأكثر أفكار السابقين وآرائهم وعاداتهم التى
أخذوها من موحيات أزممنتهم .

ونفوس الناشئة « كأفلام » التصوير الشمسى قبل أن يقع عليها
الضوء ... فلماذا تترك القبح والفوضى والشر تسبق اشعاعاتها اليها
وتسقط عليها أولا فتتطبع فيها ، قبل أن تصل اليها أشعة الجمال والنظام
والخير ؟

وأعتقد أن أسرع الوسائل لانقاذ الحياة الاجتماعية من شرورها هو استئناف تنظيم المجتمع على أيدي علماء الطبيعة والنفس المخلصين ، الذين يجب أن تفوض اليهم الأمم رسم خطط الاجتماع على أساس ما أدركوه من الطبيعة والنفس ؛ لا على أيدي محترفي السياسة وسמסرة المال والغافلين عن وجوب الانسجام بين الحياة الانسانية والحياة الطبيعية .



وقد يكون الأقرب لدى وجهة النظر الاسلامية أن ندعو الى أن الاسلام هو الكفيل باقرار قضية الايمان والثقة بالانسانية ؛ لأن « كتابه » رفع من شأنها ، ودان بتقديس حرماها والثقة بمستقبلها ، ولأنه لو لم يكن ديننا لكان مذهبا عقليا طبيعيا يسارع اليه كل من أسلم نفسه للطبيعة واسترشد بهدى الله المبثوث في آفاقها .

ولكن هذه الدعوة منا في الوقت الحاضر الذي لا يزال أكثر الأمم فيه متأثرا بالدعايات الكاذبة عن الاسلام ورسوله ونظمه ، ولم يقيم المسلمون فيه بأي عمل جدي يزيل آثار تلك الدعايات ، ستحمل على محمل التعصب منا والتطبع والتحيز للموروث .. وستقابل بردود وسخریات ومناقشات من أهل الأديان الأخرى .

ولذلك نرى مؤقتا من وجهة النظر العالمية ، أن نستعرض « المسألة الانسانية » كما هي في الطبيعة بدون ألفاظ القرآن ، حتى يتأتى لغير المسلمين أن يشعروا بالعقائد الانسانية منقولة عن الطبيعة مباشرة .. وسيكون وحى الطبيعة مع هذا هو رأى الاسلام نفسه ، ولكن بعنوان آخر أو بغير عنوان .. وما يضير هذا الدين في شيء ؛ لأن القرآن وهدى رسوله وسيلة لغاية هي ادراك الطبيعة والنفس الانسانية ومعرفتهما والتحاكم اليهما ، وادراك بارئهما وصفاته مستنتجة منهما بعد ذلك .

وعلى الأخص أن لفظ « الاسلام » معناه تسليم النفس وتوجيهها للذى فطر الطبيعة ، وليس معناه الاتساق الى شخص أو جنس أو مكان .

ولكن هل يملك أمثالنا أن يقدموا فكرة للعالم تنتزل منزلة العقيدة الأولى للسلام ، نحن الشرقيين « الشكرات المغمورين في عالم القوة والسيطرة الغريبة ??

قد يقال : يا له من غرور !

ولكن لماذا ؟ ألسنا أصحاب أفكار انسانية أودع الله ايانا سرها ، وجعلها تسلك الانبات والتفرع والتكاثر ؟ بلى ! وان لكل فكرة القوة على أن تنمو متى هبىء لها الجو الصالح والبيئة الطيبة ، كما أن لكل بذرة ونواة قوة الانبات متى هبىء لها الجو والتربة والماء .

فبذور الأفكار كبذور النبات : تلقى احداها في ظلام الأرض وتتعهد ، فلا تلبث أن تتخذ طريقها الى الحياة أو تتخذ الحياة طريقها اليها ... فأكثر واقعيات الحياة أصلها أفكار وأحلام .

نعم ان الفرد الواحد الضئيل النكرة المغمور المحدود ، حينما يترك فكرة ما تستبد بخواطره وتستولى على قلبه ، أملا في حل مشكلات العيش والفكر عن طريقها ، بعد انحسار ظلال الأفكار القائمة والاعتقادات السيئة ، لا بد أن يشعر بدوار عنيف لبعده الشقة بين ما في رأسه وقلبه وبين واقع الحياة السيء الذى يرفده عباب التاريخ ، وروافد الوراثة الجاهلية في القرون والأجيال المougلة في القدم ، ولن ينقذه من ذلك اليأس والدوار الا تفحات من الايمان ، ولمعات من الآمال ، تحدث نفسه أن كل صوت من أصوات الحق التى صاح بها ذلك الهاتف الغامض الدائم الذى يسمونه الضمير البشرى ، لا بد أن يجد صدها القريب أو البعيد ، وأنه ليس على الفكر المخلص لأمانات الحياة ، الباحث عن سننها العليا الا أن يسجل ما يدركه من الحقائق ، ويضعه أمام العقول العامة ، ويعرضه في أسواق الدعوات .. لعل شاربيا قويا مدركا مؤمنا يشتريه وينميهِ ويذيعه في الناس عن طريق السطوة أو حذق الدعوة !

ولماذا لا نعتقد أن لنا الحق في أن نقول للعالم الكلمة التى تؤمن بها ؟ ألأن الدولة في العالم ليست لنا ؟ قد يكون .. ولكن هذا لا يمنعنا أن نؤثر في الغالبين ونحن مغلوبون ، كما أثر اليونان قديما في الرومان

ثقافيا وفتحوهم فكريا ، وهم الذين غلبوهم سياسيا وحربيا .. وكما أثرت المسيحية الضعيفة المضطهدة في الرومان الغالبين القاهرين وحولتهم خدامها ... وكما أثر الاسلام المنكوب المقهور في التتار القاهرين ، فحولهم اليه وجندهم له بعد فترة وجيزة من سقوط بغداد في أيديهم . ان الضعف السامى قد أثر في الحياة ويؤثر فيها ما لا تؤثر القوة السافلة .. ! وربما يكون للضعفاء وحدهم ، وهم الأكثر عددا ، حق الحديث في الحقوق والواجبات والعدالة والاخاء والمساواة ، وحق الملاحظة والتنظيم والتنقيح للنظم القائمة ، ولا يكون ذلك للأقوياء الذين لا يعرفون مطالب الضعفاء ورغباتهم و « المضعف أمير الركب » كما يقول (محمد) منقذ الانسانية الأكبر .

ويخيل الى أن العالم الغربى ، وخاصة الأوروبى ، على استعداد لأن يسمع كلاما جديدا غير ما ألفه في السياسة والحياة والاجتماع . ونحن - سكان الشرق الأدنى والأوسط - أقرب المجموعات البشرية الى المجموعة الأوروبية ، وأدناها منها مزاجا وروحا . ومثلنا العليا في الدين والخلق والاجتماع قد انتقلت اليهم ودانوا بها حقبا طوالا من الزمان ، فمن غير العسير أن يستمعوا لنا ، ولكن على شرط أن نكون مخلصين في دعوتنا ، محترمين لأنفسنا ، مؤمنين بما عندنا ، نقول لهم بأسلوبهم وعقليتهم في غير زهو ولا تعصب ، وانما بتقديم مودة ، وشعور رحمة لهؤلاء الذين نفعلنا وخففوا آلامنا بجهادهم المادى ، وسهلوا لنا سبل الحياة بالجسم .

ونحن ورثة هدى ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد .. أولئك الآباء الذين عذبوا في سبيل الانسانية ، وقدموا لها وهى في مهد حياتها رسالات الروح والمخلق ، نستطيع أن تقدم شيئا من ميراثهم في الهدى ، والا كنا غير جديرين أن نكون سكان ديارهم ، وأقرب الناس الى فهمهم .

وأنا أعلم أن جماعة منا سينفضون رءوسهم سخرية حين نذكر لهم هذا الكلام .. ذلك لأنهم اصطنعوا الواقعية المادية التى لا تؤمن ولا تلبى دعوات السمو والمودة التى أقرتها الأديان والحكمة والفلسفات السامية

في ضمير الشعوب . وهؤلاء هم علة العلل في بقاء الشرق متخلفا عن الغرب في كل شيء حتى في « معارك السلام » كتخلفه في معارك الحرب والقوة المادية .

ان الشعوب الأوروبية قد شربت من الدم والوحل حتى بشمت وزهدت ، وتريد أن تسمع صوتا يفتح لها حديث الرحمة والحب والتعاطف بعد حديث الحزب وأوزارها . ولكن عصابات السياسيين والسامسة و « الرأسماليين » هم الذين سيشوشون عليها قصدها ، ويفوتون غرضها ، ان لم تجلجل في آذانهم دعوة جديدة للسلام وحياة الروح . وسكان الشرق الأدنى والأوسط وهم مزيج مؤتلف متأخ من أتباع الأديان الثلاثة ، يستطيعون أن يكونوا رسلا لهذه المدعوة لو تسامحوا وعلموا أنهم ورثة الدعاة الأولين للحياة بالروح أولا ..

وهبوا أن هذه الفكرة لا تتحقق ولا يستمع لها ؛ أفليست من الأحلام الجميلة التي يلذ الحديث فيها ، ويجب التنويه والتذكير بها كمثل أعلى تتمناه الانسانية ؟

ان القلوب الكبيرة التي أطلت على العالم بالرحمة والحب والعلم واليقين كان سر عبقريتها وعظمتها أنها لم تعترف أبدا بالواقع السيئ في زمانها . وأنها حين رأت الانسانية في عصورها الأولى تقبل جميعها على الوثنيات وتعكف على الجهالات وسفك الدماء ، صاحت صيحتها ، ونادت ضمير البشرية الذي تكفل خالقه أن لا يموت أبدا وأن لا تنطفئ شعلته ، وقاومت بجهدا حتى حولت مجرى التاريخ الى تمجيد الحق والسلام والرحمة . وقد أفلحت في ذلك فلاحا كبيرا ، وعمّا قليل تفلح كل الفلاح ، اذا حمل مشاعل دعوتها دائما قوم مؤمنون بالانسانية ، عالمون بأسرار وجودها وسمو الغاية من حياتها في هذه الأرض ، حريصون عليها ، راصدون لتاريخها ، متفائلون في مستقبلها ، غافرون خطايا طفولتها وبقايا جاهليتها ، عاذرون حمقها وطيشها في بعض الظروف ناظرون اليها نظرة بارئها الحليم العليم الذي لا بد أن يكون له في أفاعيل حياتها وسفالاتها الظاهرة حكمة خفية !

وعلى أية حال اذا لم تنفع هذه الدعوات فلن تضر . ولكن نفعها محقق ، حتى ولو كان لمجرد نشر روح التفاؤل ، لنستسيغ متاع الحياة ، وتنسلى عن همومها ، أو لمجرد المقابلة بين الشر وضده الخالد العظيم : الخير !



« وبعد » فان كان الانسان تافه القيمة ، ووضعته في الحياة ، على حالته الفاسدة هذه ، هو من طبيعة نظام هذا العالم ، ولا يمكن تغيير فساد ، بل يكون شره بهذه النسبة الحالية ضربة لازب ، ولا يمكن تخفيفه ، فعندئذ يجوز لنا أن نتشاءم ، وأن نضمّر الشر لنعيش في محيط الشر ، ونختبئ فيه خبط عشواء مع أهل الأرض جميعا حتى نفارق الحياة ..

ولكنى أرى ، ويرى معى كل متأمل منصف ، أن الانسانية كآى حقل نباتى أو حيوانى خاضع للتحسين والتصفية والاستصلاح والتعهد والاخراج الصالح ، وخصوصا في هذه المرحلة الزمنية التى كشف فيها العلم عن وسائل التربية النفسية والجسمية وابادة آفاتنا بسرعة فائقة . وليس الانسان جزءا من هذه الطبيعة المادية الجامدة التى لا يمكن تغييرها وتبديلها ، وانما هو جزء مرّن خاضع للتبديل والتغيير باختلاف التربية والتعهد .

وفعلا قد تحقق في التاريخ ذلك الذى نشده الآن : فبعض الدول الاسلامية الأولى قد عاشت فيما بينها كدولة ، وفيما بينها وبين غيرها من الدول على صور سامية من الاعتراف بالحقوق والتعاطف وترك الشرور الى حد ما ، فرضى الله عنها ورضيت هى عنه وعن الحياة . وبعض الأمم الأوروبية الشمالية قبيل الحرب العالمية الثانية ، قد عاشت فيما بينها كدولة على صورة سامية رحيمة كريمة ، ولكنها قد تعود الى الأسلوب الوحشى المنحط مع غيرها من الأجناس والأقوام ، فليس لها ذلك الايمان العميق بالانسانية جميعها .

اذن : لا يأس من الانسان ، ولا يأس من الحياة تبعاً له وتأثراً من جرائمه ، ومن نوازع الشر الحالية فيه ، ما دام الدليل التاريخي قد أثبت له صورا عظيمة من السمو ، وما دمنا نستطيع أن نغير حياته المرنة الى الصلاح بتغيير أوضاعه الاجتماعية والاقتصادية .

لقد قال العلم والدين ان الانسان خرج الى هذه الدنيا كاملاً جميلاً قوياً « في أحسن تقويم » ثم تطرقت اليه عوامل العطب والعجز والمرض والفساد والتنازع ، لضيق فكره وعجز يده عن وسائل التغلب على محيطه حقبا من الدهر ، فأورثته الفساد والاختلال ، حتى وصل الى زمنه هذا فاستطاع أن يعثر على مفاتيح راحته باهتمامه الى سنن التكوين والتخريب ، واخضاع الكثير منها لخدمته وانتفاعه . اذن : لا مبرر لتشاؤمه وتنازعه وسخطه بعد أن رأى من كنوز رحمة ربه ما رأى .. وانما الواجب أن يسعى الى أفق الفجر بعد أن بزغ ، ولا يستدبره ويستقبل أفق الليل والظلام .

فاذا أمكن — وهو ممكن جدا — رفعه من أسفل سافلين ، ورجعه الى نصابه الأعلى الذى خلق عليه في أحسن تقويم .. يكون التوانى والاهمال والتشاؤم في هذا السبيل قصورا معيبا وجريمة كبرى .

وانى أرى — ولعلى وأهم ! — أن الانسانية الآن ينتفض جسمها العملاق ليعمل ويسترد مكانه في عليين ! وقد صار لأفرادها الآن من الحقوق التى تتصل بالعدالة ، ومن مزايا التمتع والراحة وثبات الأرض تحت أقدامها ، ومن أحاديث الحريات والكرامات في مؤتمراتها الدولية العامة والخاصة ، وصار لها من القدرة على تسخير كثير من قوى الطبيعة ومن المقام المرموق بين المكائنات .. ما يبعث في صدرها الثقة والايمان بامتيازها والأمل في مستقبلها والصبر على احتمال آلام حاضرها .

وقد وجب عليها الآن أن تعجل أمورا ثلاثة :

- ١ — ازالة الدعايات القومية الحادة والنعرات الجنسية الضيقة التي توحى بالتفرق والشتات ، وتورث التعصب والتحيز المقوت .
- ٢ — ايجاد لغة اضافية عالمية مشتركة لتكون لغة « المواطن » العالمى، وتوحى الى كل ناشئ بمعانى الانتساب الى الانسانية الموحدة بجانب انتسابه الى قومه ، ولتسهل على الأفراد وسائل التفاهم والتعارف بالثقافة العالمية التى لا بد أن تضمها أسفارها ونشراتها الدورية .

- ٣ — توزيع المواد الاقتصادية بدون جشع واغتصاب واحتكار وجب استثمار واستغلال للضعفاء .

* * *

وأريد أن أقول فى ختام هذا التمهيد كلمة لسמاسة المال ومحترقى السياسة لشهوة الحكم وحب القهر ، لا للخدمة ولا للوصاية على الشعوب القاصرة : بل هى كلمة الحق والايقاز للطور الجديد الذى تقبل عليه الانسانية : أن يقوموا جماعات وفرادى ، ثم يتفكروا فى الوضع الحالى للانسان ، وأن يزيحوا عن أعينهم الغشاوات القديمة التى هى مر تظاحن الانسان وتصادمه فى ظلمات المطامع وشهوات الاقتناء والقهر والافتراس .

وليعلموا أنهم هم العقبة الوحيدة الآن فى طريق الانسانية الى حياتها المنشودة ، وأنهم هم الذين يحولون أخوة البشرية وبركات العلم وثروات الأرض التى أودعها الله فيها بمقادير كبرى تكفى حاجات كل فرد وكل أمة ، الى وقود يحترق به جامعوه والناس جميعا .

انهم هم الذين يقودون البشر فى الحرب بالفولاذ والذهب .. وهم كذلك يستطيعون أن يشتركوا فى أن يقودوهم بهما لحياة السلام : اذا أزاحوا عن أعينهم غشاوات القرون الأولى : قرون الوحشية وحب اللعب بالشعوب وجمع الحطام ومجد الشهرة على الجماجم والأشلاء .

انهم يستطيعون أن يشتركوا في قيادة البشر وتجنيدهم جميعا
الموصول الى أملهم الأكبر : وهو كشف مجهولات الكون وتسخير
قواه للنفع العام ، والعيشة في اخاء وأمن وسلام .

وأريد أن أقول كلمة أخرى الى عشاق الحق والصلاح ، الذين
يؤمنون بالروح الالهى والسمو الانسانى : وهى أن أشد ما يخشى على
العالم أن يعتزلوا ويخلوا بين عملية بناء العالم بعد الحرب وبين من
لا يحسنون أن يقيموا حضارة تتوازن فيها العناصر وتتلاقى الروافد
بالتيارات الروحية والمادية بمقدار موزون . !

فاذا وقفت معارك الحرب فليعلنوا هم « معركة السلام » !

وهم لابد منصورون بتوفيق الله مكرم الانسان !

في موازين الحس والفكر والضمير

عقدة الثمرة الفكرية من هذا الكتاب

أومن بالانسان الكلى الذى نحمله جميعا فى أجسامنا ونستوحيه فى أفكارنا ونبادله ماصح وما فسد من شئوتنا !

وأرصده رسدا مستوعبا يطيف به فى جميع بقاعه وشتى أوضاعه !
وأستوحى تسديد الخالق اياه فى طريقه الى مستقبل مجهول !

أومن به لأومن بالكون ورب الكون ! فلن يؤمن الفرد الانسانى بهما ان لم يؤمن بنوعه .. اذ أن عقل النوع هو المنظار الذى ندركهما به فان اهدرنا قيمة الانسان فقد اهدرنا عقله ، فلا يبقى لنا ما ندرك به كوننا وربنا ! ويعيش أكثرنا كما يعيشون الآن ذاهلين شاكين تضرب بهم مجهولات الكون ومعلوماته كغرقى طافين على الأمواج ، ثم يمشون الى ظلمات القبور .

وتلك قضية فكرية منطقية مجبوكة الأطراف أشبه «بمعادلة رياضية» وهى عقدة الثمرة الفكرية من هذا الكتاب ، من الناحية المنطقية النظرية ولها ما بعدها من النتائج الخلقية والعملية

وارى أن الموقف الفكرى فى هذه القضية يسبق موقف (ديكارت) حين أثبت (وجود الذات المفكرة) واتخذها اساسا بنى عليه فلسفته الابطائية ، اذ انه من أين لديكارت أن يثبت أن تلك الذات هى ميزان الافكار ، وان لها فى الكون قيمة واعتبارا ؟ ولما ينتج منها من الفكر قيمة واعتبارا ؟ ان لم يثبتهما اولا للنوع الذى تنتسب اليه هذه الذات ، ليكون لما يصدر عن أفراد ذلك النوع تلك القيمة وذلك الاعتبار ؟

فالموقف المنطقى الأول وخصوصا فى هذا العصر أن نرصد أولا هذا النوع الانسانى كله بعين كأنها غريبة عنه ، مفارقة لوجوده لنرى ما انتجه وينتجه من أعمال ذات تأثير كبير فى الطبيعة ، ولنثبت له مكاتته فى الكون وخصوصا بعد أن وصل فكره أخيرا الى أن يكون عاملا عظيما من عوامل

الحكم على الطبيعة والتكوين والتخريب فيها ، ثم يأتى بعد ذلك جميع مواقف الاثبات للأفراد المندرجين تحت هذا النوع .

على انه من جهة أخرى تتصل بالمنطق القديم « قد ثبت أن بداية العلم ليست علمية وانما هى اعتقاد من غير برهانه ، والعلم الذى يفسر كل شئ لا يستطيع ان يفسر البدايات التى هى عنده كالمسلمات . وينبغى قبل الشروع فى العلم ان يعتقد الباحث فى امكان العلم تماما كما يفعل العصفور يقذف بنفسه خارج العش قبل تجريب الجناحين ، لأنها دفعة الالهام .. والالهام هو أساس العلم بعالم البدايات المسلمات .

والطفل فى نشأته يدرك الكون والناس ادراك الهمام وايمان وفكر قبل ادراك نفسه واعماقها ، فينبغى ، مساندة لقوانين النشأة الطبيعية ، الا نحاول اثبات « الذات المفكرة » كما فعل ديكارت الا بعد ان ثبت النوع الذى نراه وندركه قبل ان نراها ، بل نحن لانتطيع ان ندركها الا فى مرآة النوع وموارثه ، اذ الفرد من غير النوع لا يستطيع أن يدرك شيئا من موارث النوع ، ويكون حيوانا كذلك « الانسان الغزال » او الانسان القرد . او الانسان الذئب الذى يتحدث الناس انهم يجدونه فى الغابات .

نظرة المفارق لنفسه ونوعه

خارج الشبكة • في نصابه الأعلى • نور في وعاء من
طين • محرر المعاني والنفقات المسجونة • في عالم القوى
العمياء والروح الواعي • تاريخه مصباحه • قانون ينمو
في كل اتجاه • عصب الأرض • أحياء الشرقة ؟• إيقافه
بالدين الطبيعي والفن الرابع •

لكي ندرك اللمحات التي تتراءى في أعماق « هذه القضية الأولى »
نحاول أن نتحرر ونتجرد من نفوسنا ونوعنا ، ونرصد الانسان بعيون
المفارقين لنفوسهم ، الخارجين بالفكر عن حدود وجودهم ، الناظرين
لحياتهم نظرات الملائكة الأعلى ممن هم فوق الانسان ، والملائكة الأدنى مما
هن دونه .

اننا حينئذ نرى كثيرا مما خفى على الذين يلبثون سجناء رهناء في
الشبكة التي تلفهم مع سائر أفراد القطيع .

ولابد لذلك أن تترك الجدليات القديمة حول الشك في قيمة الانسان؛
فقد هدرت شقاشقها حين كان عاجزا عن شق الطريق أمام فكره ، وان
نخرج من غبار التاريخ القديم ونفتح عيوننا على العالم كمخلوقين الآن ،
تفكيرهم ابن زمانهم هذا ، ومنطقهم من وقائع الحاضر ، وأن ننظر الى
الانسان في نصابه الأعلى دائما ولا ننظر اليه في حضيضه الأدنى ؛ فان
من طبيعة كل كائن حي أرضي أن يكون له جذر في الطين والعفونات ،
أو أصل في الدم والقاذورات .

وان النطفة التي خلق منها الانسان أخلاط وأمشاج اخذت من العناصر
الحادة والقوى العمياء ما يجعله منها على اضطراب وإبتلاء .

وان الفرد يحمل في مجارى طعامه وفي أحشائه أوضارا واقذارا
تشمئز منها نفس حاملها .. ومع ذلك هو يقنع من نفسه بتقدير الوجه
والرأس الذي يحمل الشخصية وقوى الفكر .. فينبغي ألا ننظر دائما

الى الذين هم فضلات قذرة فى جسم الانسانية وتتخذ منهم « مقطع »
النظر اليها جميعا ، فيحملنا ذلك على التشاؤم والسخط والشك فى الخير
والجمال الذى فيها .

هم كالثمار الفجة المعطوبة ، عطبت وتلوثت وسقطت لضعف روابطها
بفروع الشجرة التى تسمو .

اننا نحمل أقباسا مطهرة من عالم الحق والجمال والظهر ، ولكنها
وضعت فى أجسامنا : تلك الأوعية الطينية السريعة التعفن .. فمن الناس
من يدوم على تطهير وعائه وصقله حتى يستحيل الى زجاجة شفيفة رائعة
تساعد ذلك القبس على السطوع والاشراق .

ومنهم من يتركه كما هو من غير تطهير وصقل بالعلم والتهديب فيظل
معتما ويحول بين ذلك القبس وبين السطوع الكامل .

ومنهم من يضيف الى ذلك الوعاء ما يزيده عتمة وكثافة تطفى على
ذلك القبس وتمحق شعاعه وتجعله منبع ظلام .

فلأجل النور ! ينبغى أن ننبه كل مصباح الى رسالته ، ونحول بين
الظلام وبين زجاجته !

ولا تحملنا حياة الظلام الراهن على أن تتشأم ونسخط ونحطم مابقى
لنا من مصاييح ، فنعيش فى عمياء : نهارها كليلها .



ولو أنكرنا مكانة الانسان وجحدنا قيمته ، لم يبق لنا شئ فى الأرض
نلوذ به ونأنس اليه من وحشة الصمت المطلق والسكون المطبق ، والبكم
والصمم والعمى التى تغمر غيره من كائنات لم تدع فى الحياة حديثا مفهوما
عن غايات الحياة .

واننى ما أبصرت شيئا غيره تعمق معه الحياة وتتسع وتتركب ويتنوع
الاحساس بها ، ولولاه لكنت صندوقا أبكم فارغا الا من معانى غرائز
معطلة ، وتجارب شهوات قليلا ما تتحرك .. ولاضطربت بى مجهولات
الكون كغريق يطفو على الأمواج .

ان كل شىء فى الطبيعة صامت جامد لا يعطى جوابا عن غايات الحياة
الا هذا النوع .

فمن قلوبه وعقله تنبثق المعانى المكتومة المسجونة فى أطواء المواد
والقوى .

وفى بيانه أصوات ربطت الكون كله ، ولاءت بين نسبه المختلفة ،
ولخصته واختزلته ووضعت أمام الفكر ملموما ..

وفيه نعمة مفهومة رقيقة وسط صخب الأمواج التى لا عدد لها فى
البحار ، والهبات التى لا عدد لها فى الأجواء .

انه مشبوب الحاجة دائما ، واسع الآمال والخيال فى تشكيل المواد
وتنويرها وتصريفها وتسخيرها والاحتفاء بكل سر فيها .

لقد استمرت الأرض من قبله جامدة لا يتغير فيها شىء الا الدورات
الأبدية المكررة ، وبدا من الطبيعة أن كل شىء فيها كان ينتظر وجود هذا
النوع ليقول لفكره ويده : هاأنذا لكما !

وما زالت المرأة التى فيه ، وهى عقله تنطبع فيها صور الكائنات
واحدا وراء الآخر ، وهو يحولها وينقلها من عالم الجباد والصمت الى
عالم الأسماء والبيان والصور والتعبير .

وما زال يدور حول ظواهر المادة وصورها وأشكالها ، ويحللها وينبش
فيها ويسبر أغوارها ، حتى وصل الى عالم الذرة والكهارب والأثير .
وهو الآن يجرى اختباراتة وتحليلاته على هذه الأصول الأولى للمادة
ليكتشفها أو يرققها ، ويتحكم فى اخراج أنواعها ، بعد ان وصلت يده الى
مفاتيح توجيهها .

انه تعمق فى عالم الأجسام والقوى حتى وصل الى مصادر الحياة
الآلية ومادة الوجود الأولية ، وتعمق فى عالم المعانى والأفكار حتى وصل
الى الخفقات الروحية العليا ، والرياضيات العليا التى قام عليها تخطيط
الطبيعة وهندستها .

وانه ليركب ما فى الكون من المعانى كما يركب ما فيه من مواد ،
فيقيم الكتب العامرة ، والمقالات الحكيمة والصلوات المطهرة ، والألحان
الساحرة ، كما يقيم القصر الكامل الجميل ، والصرح المشيد ، والقاطرة
والطائرة والباخرة . والصواريخ المنطلقة العابرة والأقمار الصناعية الدائرة .

وانه ليسافر بفكره فى الآفاق العليا كما يسافر بصوته وصورته فى
صندوقى الراديو والتلفزيون .

وهكذا هو يتوجه فى عالم المادة والقوى العمياء ، كما يتوجه فى عالم
الروح الواعى والفكر المميز المبصر الحاكم !



وهكذا هو رباط بين العالم الساكن الخفى ، وبين العالم المتحرك المرئى
مركزه فيها ، ولنعطيه من تاريخه مصباحا يرى به نفسه ، ان الله أسلمه
الأرض ، وليس فيها شئ معقد التركيب غير الأجسام العضوية الحية ،
وهى أجسامه وأجسام الحيوان والنبات . اما الجوامد فأسلمها اليه
بسيطة فى صورها الأولى وخاماتها البكر ، فما زال يدور حولها ويعبث
فيها وينبش ويخرج أسرارها واحدا بعد آخر ، حتى حدثته أخبارها
وأخرجت له أفعالها ، واستفاد من تجاربه فيها عقله وحكمه — والعقل هو
حفظ التجارب والحكم بمقتضاها — وعلمه ووثائق فكره وعمله

وكلما أنماها وعقد نموها ، أنمت هى فكره وعقدته — والتجاوب
بين المادة والفكر قانون — حتى ملا الأرض بما ولده منها ، وأخرجها
من كوامنها ، وركبه من بسائطها .

وشاء الله أن تكون قوة الفكر فى الانسان تكاد تكون لا حد لها ،
فصارت تخاريج المادة وفروقاتها وتمايزها لا حد لها .

وتارة يكون كشفه عن أسرارها بطريق الصدفة ، فيلقط ويدون كما
هو واضح من نمو علم الكيمياء ؛ فان كل أمورها تجريبية .. وتارة يكون
الفكر سابقا قادرا على الفروض وقياس النسب الغائبة على الحاضرة .

أى تارة تكون الطبيعة سابقة فى الوحى اليه وزيادة علمه وفكره ،
وتارة يكون هو سابقا فى الوحى اليها وزيادة أشكال موجوداتها ومشاهدها .
وانى لأستعرض أعماله فى الطبيعة منذ أن كان هائما لاسقف له
يصنع من ورق الشجر ستارا لسوآته ، ويتخذ من الحجر خنجرا لسطوته ،
الى أن صنع لباسه الأوربى المعقد المنوع المزين الملون ، وصنع بيته من
ناطحات السحاب ، وآلات سطوته من القنابل الذرية والهيدروجينية
والقنابل الطائرة ، ومراكبه من القلاع الطائرة ، والصواريخ العابرة ،
واستوعب جميع أجزاء الآلات المعقدة فى رأسه قبل تركيبها بمساميرها
وحذافيرها ... وصنع له مجاهر ومقربات يقرب بها مشاهد السموات
والسدم ، ويحلل عناصرها ، ويكبر بها مناظر الجراثيم ، وقيس بها
الخلايا ، ويحكم بها على كل أولئك حكما صحيحا خاضعا لمقاييس الحس
والفكر .. أستعرض أعماله هذه ، فأراه بعد ذلك روحا ناميا فى ذاته ،
ومنيا للطبيعة وصورها وأشكالها كذلك .

وجميع قوانين الطبيعة قوانين متحجرة صارمة الا هذا الانسان ، فانه
« فافون » مرن يذهب فى كل اتجاه . أليس فيه نفخة من روح الله ليست
فى سواه ؟ ! والله خالق هذه القوانين وواضعها ؛ فلا عجب أن تدفعه هذه
النفخة الى كل جهة فى مجاهل الكون دائما .

ان الأطفال يقلدون الكبار بغريزة التقليد والمحاكاة التى فيهم للاستعداد
لمستقبل الفرد ، والكبار يقلدون صنع الله للاستعداد لمستقبل الانسانية
كلها . وجميع آلاتهم التى ركبوها ، وجدوا نماذجها أمامهم مما خلق الله .
فجسم الحيوان هو نموذج الآلات الدقيقة السريعة التى ابتدأ بها الانسان
يتسلط على المكان والزمان والمسافات والأبعاد . وجميع أعمالهم فى الكهرباء
والقوى الخفية انما وجدوا نماذجها من المجموعات العصبية فى الحيوان
والنبات ، فأرسلوا الاشارات والصور والأصوات الى عيون وآذان صناعية
عبر المحيطات والصحارى والقارات والجبال الشاهقات ، كما يرسل الجسم
الواحد خواطره وصوادره الى كل خلية فى أعضائه .

وعلى ذلك صارت الأرض كجسم ينبض ويترايط ، وانسانها فيها
كالمرآكز العصبية فى الجسم الحى : تصدر وتتلقى الجواب .

ولكن هل يجوز أن يقف الانسان فى ضجة ما صنع من الآلات
والمفرقات ضائعا مغمورا غائبا فيها كما تغيب دودة القز فى الشرقة التى
تنسجها ؟

انه يرسل فى الطبيعة لمحات فكره وومضات خواطره ، وصار الاثير
والهواء والماء والتراب مليئا بهمساته ، وأزيز محركاته ، وضربات معاوله
الى أعماق المناجم والركاز .

وهذا حسن لو أنه لا ينسى نفسه وسط الضجة والقوة والجبروت
الآلى ، والحديد البليد القاسى ، حتى يختنق ما فيه من وداعة الروح وتأمل
الفكر ، والاحساس بالانفصال عما صنعتته يداه .

أجل ، يجب ألا يكون الانسان قوة عمياء تعمل فى المادة بدون شعور
واحساس روحى فيما تعمل وبدون لذة به ، والا استحال الى قوة متنقلة
فى عمليات التكوين والتركيب أو التخريب بدون وعى ، وفى ذهول
وغفلات تشبه عمى القوى العمياء .

ان طاعة الحديد البليد القاسى للفكر الطليق البارد ، تركت فى أعصاب
الأهم الصناعية آثارا عميقة ستطمر لا محالة ، ان لم تقاوم بقوى روحية ،
جوانب من عواطف الرحمة والمروءة فى قلوب أفرادها ، وتمحو آثار
العصور الروحية التى أدرك الانسان نفسه فيها حين كانت النبوات
تتلاحق عليه .

وانى لأتخيل الآن ما جرى فى ساحات « الفلاندر » أو « أوكرانيا »
أو « الصحراء الغربية » ، فأرى الانسان وهو يدفع الحديد الجبار فيندفع ،
ويطلق البارود الصاعق فينطلق ، والقنابل الصارخة فتصيح فى نكر وشدة ،
ويسلأ الجو بالدخان الأسود والنار الحمراء فيمتلىء ، ويسيل النار من
« باصقات » النار فتسيل على الأجسام البيضاء الجميلة ، ذات العيون
الزرقاء ، والشعور الذهبية ، والجماجم المستوية ، وتذيبها كالشمع ،
وتسحقها كالرفات ، وتذروها كالرماد .. ويرفع القلاع الطائرة والصواريخ
الى أجواز الفضاء فترتفع .. أتخيله وسط هذا كله ، لا يسمع صوت نفسه
اذا تحدث ، ولا يعى خروج نفسه اذا تنفس ، ولا يحس ألمه اذا تألم ،

ولا صعق جسمه اذا تحطم ؛ فهو فى جنون الحرب يضرب الأجسام الحية النامية من شجر أو زرع أو حيوان أو انسان ، ويخرب العامر ، ويهدم القائم ... فأقول : لقد تحول الى قوى عمياء ، وصار عاتيا كالريح .. جارفا كالتيار ... أعمى كالصاعقة .. قاسيا كالحديد .. صابرا كالفولاذ .. فظيما كالنار !!

ولست أدري متى يفيق لنفسه ، ويعنى بوضعه وتحولات حياته ، كما يعنى بمستقبل المواد والقوى ؟ ويربط ما بينه وبين الله مفيض الفكر والحياة ، كما يربط ما بين نفسه وأجزاء الأرض ؟

ان الآلة لا تدركه وهو يعمل فيها ويقوم عليها ، وهى لا ترحمه من السحق أو البتر أو الصعق اذا تعرض لها جاهلا بقوانين سيرها ، فلا قلب فيها ولا فكر ، ولا حياة دم وعصب وروح . ولكن ما باله هو لا يفكر فى الاتصال بمن أنشأه وركبه ونسقه وصوره ، وهو ذو الفكر والروح والوجدان والنزوع والارادة والاختيار والتطلع والحزر والحذر والقدرة على قياس ما غاب بما حضر ؟

ان الاستسلام لغيوبة الحياة الآلية ضياع وتطبع بطبع الحديد البليد الأعمى الدائر فى غير وعى واحساس . وأخوف ما يخاف على الانسان أن يترك هكذا فريسة وضحية للآلات والماديات يعيش معها وحدها ، ويقدم لها وقودها الى أن يفنى وقود حياته هو وينطفئ مصباحه ، ويذهب الى ظلمة القبور بدون بصيرة روحية منيرة ، يسعى نورها بين يديه فى العالم الباقي غير المنظور .

وعلى هذا ينبغى أن تنشط فى الناس دعوات الى الاحساس بالنفس ، واليقظة الدائمة لها ، وهذا لا يكون الا بالدين والفن الرفيع : الدين العقلى الطبيعى المبني على اسلام النفس لله البارىء وللطبيعة الأستاذة ، والفن الرفيع الذى يخلق جوا يحضر للقلب بعض المعانى الغائبة التى ترى الانسان وضعه الممتاز الفريد الطليق ، وسط ما فى الكون من المواد والقوى والمخلوقات السجينة !

تلك المعانى التى تتراءى وراء بيان ذوى البيان النظيف ، وألحان ذوى الأصداء البعيدة ، وعيون ذوى الصفاء والادراك !

في نظرات الفلسفة والعلم والدين

اسئلة في حدود البدايه - مجهر وريشة وازميل
وترجمان - اسرار ورموز في قصص خلقه - نظرة الله
العليم الغفور - سجود الملائكة لآدم واهاب ابليس - الشر
للخير - منطقة الشهوات

ما يثير عجبى في بحوث الفلسفة والعلم ، شك بعض المفكرين في
القيمة السامية التى للانسان ، ومحاولة تصوير حياته كحياة النبات
والحيوان والحشرات : ليست أكثر من ظواهر طبيعية ودورات أبدية تأتى
بها ايام وتذهب ايام الى الفناء المطلق .

ومعرفة الوضع الحقيقى للانسان فى الكون هى - كما بينت سابقا -
أولى القضايا الدينية والفلسفية .

فالذى يذهل ولا يسترعى انتباهه ، ويثير اهتمامه هذا الكائن المتحرك
الناطق المفكر ذو الارادة والاختيار ، لا يمكن أن يتنبه للصمت المطلق
والاطراد المطلق فى الطبيعة .. ودع ما وراء الطبيعة من العالم الخفى الذى
لا يناله الانسان بالحواس والأفكار .

واسأل نفسك : هل رأيت نوعا آخر متسلطا على الأرض يغير
أوضاعها ، ويتصرف فى موادها ، ويسخر قواها وينقح الطبيعة : يزيد فيها
وينقص منها ، متنوع المرافق ، متجدد الأفكار ، له حياة فكرية وقلبية
تكاد تكون لا حدود لمظاهرها ؟

وهل رأيت غير الانسان اخترع شيئا يزيد على ضرورات حفظ
حياته ؟ هل رأته يكتب تاريخه او يتطلع لمستقبله ، او يركب آلات
معقدة ، أو يغنى أغاني مفرحة ، أو يستخرج أصواتا موسيقية من الجلد
والخشب والمعادن ، أو يقيم اهراما وعمارات ذات ارساد واوضاع محبوكة
وفنون. بارعة ؟

وهل رأيت نوعا آخر اخترع طائرات وصواريخ وأقمارا صناعية ومحطات جوية وتليفزيون وغيرها مما يصيد به الأصوات ويقتنص الأضواء والصور ويختزل المسافات والأبعاد ؟

ثم هل رأيت نوعا آخر يسـكر « ويحشش » ويدخن « ويشم » ويقامر ويقيم مهازل ومساخر بذكاء ومهارة ؟

هل رأيت غيره يزارع ويتاجر ويضارب بعمليات اقتصادية معقدة غاية التعقيد !

هل رأيت غيره يحارب بالآلات كلها ابداع وبراعة تكاد تجعلها عند المتطلعين لما يولد في الكون من عجائب والمتوسمين لما في حياة الانسان من بدع ، فرجة من فرج القلوب تعلو شأن الحروب ؟ !

تخيل جميع الأساطيل الجوية والبحرية وجميع الجيوش البرية انطلقت في الجو والبحر والبر ، يعبثها ويزجيتها وينسحقها الانسان ذو الجمجمة العجيبة ، تملأ الأثير بلمعات فكره ومضات خواطره .. لتعلم أى فن الهى هذا الانسان المخلوق من ماء مهيّن !

تخيل مدينة عظيمة كنيويورك أو لندن أو برلين أو القاهرة بما فيها من فنون الحياة والأفكار والشعور ، وما يغيرها من الأضواء والألوان ، وما يضطرب في أحشائها من المصانع والمعاهد والمعابد ، وما يثوى فيها من دور الكتب والآثار ، ومخازن التحف وأدوات الجمال ، وما تسيل به شوارعها من وسائل الانتقال ، وما تضحج به من الأصوات والمقالات والخطب والأسمار والأحاديث ، وما يتوزع فيها من الأعمال والأموال والحرف .. تخيل هذا ثم قل : هل رأيت في الحياة منذ دخولك اليها نوعا غير الانسان يقيم أسواقا للحياة مثل هذه الأسواق ؟ ثم هل رأيت نوعا آخر يعلو بالحياة حتى يأتى في علوه بالعجب العجيب .. ويسفل بها حتى يأتى في السفالة بالعجب العجيب ؟.. وهل رأيت نوعا آخر يفتن في وسائل متاعه هذا الافتتان الذى تراه في السينما والمسرح ومخازن الملابس والفرش وأدوات الزينة ؟ .

هل رأيت .. وهل رأيت ؟

واخيرا هل رأيت نوعا آخر يترقى في سلم الحياة باطراد وخطى ثابتة ،
وقياس متناسب ، بعد أن أتى عليه « حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا »
كما قال القرآن ؟

فكيف بعد هذا تسوى بين قيمة الانسان أبى العجائب ، وبين قيم
النبات والحيوان ، وتسلكه في سلك الفناء المطلق الذى يأتى على أجسامها
وأرواحها بدون مآل أسمى ومصير أكمل ؟ !

وكيف تضرب عليه ما ضربته عليها من الأحكام ، وتحشر أفرادها في
مليارات افراد الحيسوان والحشرات التى تعيش على العشب والجيف
والروث والعفونات ؟ !

انى لأستعرض تنوع حياة الأمم والأفراد ، وأتصفح الوجوه والنفوس
وأسمع حديث الأطفال والعجائز ، والنسائك والفتاك ، والفقراء والأغنياء ،
والعلماء والجهلاء ، والذكور والاناث .. فأجدنى بعد هذا الاستعراض في
دوار من الفكر !

وانى لأخرج بعد هذا الاستعراض وأنا أشعر انه كان لا يلد أيضا في
الأرض مما نسميه الشر والضلال ليدوم ظهور اسرار التكوين !



ان شئت فقل ان الانسان أشبه بجهر تمر من خلاله الطبيعة بخصائصها
التي كانت « غيبا » مستورا قبل ظهور هذا النوع ، فتساقط على عينيه
أنوارها وظلماتها ، وعلى سمعه نغماتها وأصواتها ، وعلى خياشيمه عطورها
ونفحاتها ، وعلى ملامسه نعوماتها وخشوناتها ، ويقع على احساسه العام
ثقل المادة ، وصعق الكهرباء ، وشد الجاذبية ، وتمر على فكره معانى
الوجود ومعانى العدم .. ثم يترجم كل هذه الكلمات الصامتة بكلمات
ناطقة من بيانه الذى اختصه به بارى الطبيعة .. فكل شئ في الطبيعة
الأرضية كان لا بد أن يمر من حواس هذا النوع وفكره ليأخذ حدوده
ومميزاته ويرمز اليه بكلمة بيانية يضعها خليفة الله في الأرض .

واذا صح ما أثبتته تحليل ضوء العناصر ، من أن العناصر التي في النجوم والكواكب هي بعينها العناصر التي في الأرض ، كان في هذا زيادة في النظر لقيمة الانسان كمترجم ومحدد لعناصر الطبيعة في غير الأرض ايضا .

وان شئت فقل ان الانسان آلة في يد الخالق يتم بها التنسوع والتفريع والتركيب في خلق المادة الميتة الجامدة وتصويرها وصقلها وتزويقها وتوشيعها ، حتى تصل الى الدقة المتناهية في تركيب تروس الآلات ومساميرها الصغيرة ، والى الزركشة والنمنمة في الثياب والأثاث . وعندئذ يكون الانسان امتدادا لعوامل التكوين والانشاء والتعمير التي في يد الله .. يكون ازميلا في يد المبدع الأعظم ، وريشة بين أصبعيه ، يشكل بهما المادة أشكالا ويملؤها بهما تزاويق وتهاويل ا

ولذلك كان العلم بأسرار الطبيعة أشرف عبادات هذا النوع ، ما دام متوجها فيه الى رب الحياة ومتعرفا اليه .



قصة قرآنية ذات دلالات :

واقرا قصة خلق الانسان كما وردت في القرآن الكريم لترى منها العجب الذي رأيناه :

« واذا قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال انى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك ! لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك أفت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون .. واذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا الا ابليس .. »

وأرجو أن تقف طويلاً أمام قوله تعالى « إلى أعلم ما لا تعلمون » رداً على سؤال الملائكة « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء .. » لتعلم أن الله تعالى نظر نظرة سماح واعتفار لما تستلزمه حياة الإنسان في مجموعته بالجسم الحيواني من الشرور والآثام ؛ إذ قد علم ما وراء فتوح الإنسان في « غيب السموات والأرض » من آثار علمية وعملية ترجح على ما يرتكبه من شرور وفساد وسفك دماء .

كما أرجو أن تقف وقفة أطول أمام عجز الملائكة عن علم ما علمه الله آدم ، وما اختصه به من ترجمة كلماته في الطبيعة الصامتة ، ومن نبش في « غيب » السموات والأرض ، واستخراج لأسرار ذلك الغيب .

ثم قف وقفة أطول أمام امر الله تعالى ملائكته بالسجود لآدم .. وسجودهم له وأباء إبليس .. لتفهم تلك الرمزية العجيبة التي ترمز إلى تشريف الله لهذا الجنس الذي تحمله في جسده وتستوحيه في فكره ، وإلى طاعة جميع قوى الطبيعة الأرضية المبصرة والعمياء له ، إذا ما احتفظ في نفسه بأقباس الطهر والعلم كما وضعها الله فيه — الاقوة الشر التي يمثلها إبليس ، فأنها أثبت أن تشترك في تشريفه ، وأن تطيع الله في الاعتراف بخصوصياته من علم بأسماء ما في غيب السموات والأرض .

وانك لتعجب حين ترى مصداق هذه القصة بحذافيرها وجزئياتها فيما وصل إليه الإنسان في هذه العصور الأخيرة : من عثوره المتوالى على كثير من مفاتيح الطبيعة ، وفتح أبوابها باباً باباً ، ومن خلق الأسماء على كل شيء ، وإبرازه إلى عالم الفكر في قالب من البيان ، بعد أن مضت عليه دهور وهو غائب مجهول أو مبهم ، وتسخير كثير من قواها لخدمته وطاعته ، ومن لبس روحه الحية للمواد الميتة الجامدة ، وجعلها تحيا حياة آلية بعقله ، وتخطو بسرعة فكره !

وانه ليلعب العجب منك مبلغه ، حين ترى أن « قوة الشر » لا تزال هي الوحيدة الفريدة التي لم تشترك في تشريف حياته ، والاعتراف بعلمه والدخول في طاعته .. بل على العكس تحاول دائماً تحويل حسناته إلى

سيئات ، وعلومه الى جهالات ، اذ هي بالغة الفطنة ، شديدة الفتنة ،
ضارية اللعنة !

ولكن الله وملائكته وسائر قوى الخير في الطبيعة مع الانسان ! ولذلك
كتب له النصر في كفاحه ضد كثير من جنود الشر ، وأصبحت كلمات الحق
والايمان والعدالة والعلم والمساواة ، مزامير صلوات لأمنه وأفراده ، وقد
انكشف له وجه الأرض وجسم الانسانية جميعها ، وابتدأ يعرف مكانه
ووضعه في الطبيعة ويراه رأى العين .

وقد رصد الله له رحمته الواسعة ، وحلمه العظيم ، وغفرانه السمج ،
منذ أن قال للملائكة : « انى أعلم ما لا تعلمون » حتى يبلغ الغاية التي
قدرها له « والله غالب على أمره » « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى » !

ولا يهولنك ما تراه من الجريمة والفساد والأوبئة والنكبات التي
تجتاح حياة الانسان .. فان الذى خلق هذا النوع متيقظ له ، دائم الرعاية
عليه ، يسوقه في طريق مرسوم حتى يبلغ غايته ، برغم كل ما نسميه الشر
والفساد والباطل الذى ما خلق الا للحق والصالح ...

فلولا الأمراض ، ما ظهرت علوم الطب التى كشفت لنا عن ملايين من
عوامل الجراثيم ، وكانت حياتها مستورة في « غيب السموات والأرض » ،
ولولا الحروب ما تقدمت أدوات الانتقال السريع واختزال المسافات ،
وما تنافس الناس على استخراج ما في المناجم من الركاز ، وكان كل ذلك
« غيبا » محجوبا في الأرض ..

ولولا الغرائز السفلى كالطمع والجشع والأنانية ، ما رأيت في الأرض
هذه الحياة العنيفة الحركات في التعبير والاقتناء والتسابق على كشف
بقاع الأرض المجهولة واطهار غيوبها ، واقامة معالم الحياة العلمية المتحضرة
فيها .

ولولا البأس الشديد في الحديد والنار ، ما تكونت الامبراطوريات
الواسعة التى ربطت بين كثير من أمم الأرض برباط التفاهم والحب
والخدمة المشتركة ، وما ابتدأت البشرية الآن تفكر في جامعة عامة لجميع

الشعوب والأمم ، تجمعها على أسس العدالة والسلامة الاجتماعية ، وخدمة العلم خدمة مشتركة ، وتقيها من شرور التدمير والتخريب وما تنتجه الحروب .

وينتظر من التكوين الطبيعي للانسان أن يصدر عنه كل ما يمكن أن يصدر من خير أو شر ، لأن من طبيعته ومهمته أن تتضح غرائزه الكامنة في أعمال الخير وأعمال الشر حتى تتحقق الصور المقصودة من حياته وهي إبراز كوامن الطبيعة وإشعاعات عناصرها ولن يمتنع الشر من طبيعة الانسان في هذه الحياة الدنيا .

ونظرة الى تاريخ البشرية ترىنا التقدم المطرد في سبيل التجميع والتوحيد فقد كان الانسان فردا ثم صار أسرة ثم صار قبيلة ثم صار أمة ثم صار امبراطورية وولايات متحدة ، ثم بدأ يصير « جامعة أمم » ستنتهي الى « حكومة عالمية » في يوم ما ، قريبا كان أم بعيدا .

فالشر هو الذي يدفع دائما الى تقوية الروح بالجهاد للخير . لأن الأرواح لا تقوى الا بالمجاهدة ، كما أن الأجسام لا تقوى عضلاتها الا بالمقاومة .

وان قيادة الانسان الى الله رب الطبيعة قد صارت الآن من أسهل الأمور لأن العلم قد ألقى كثيرا من اشغته على مواقع يد الله في الطبيعة ، وعلى كثير من الأبواب التي توصل اليه ..

ولكن كثيرين جدا من الذين يحترفون قيادة الناس للدين أغبياء محدودون عميان .. فكيف يقودون في طريق مملوءة بكثير من جثث الخرافات والأباطيل التي لصقت بالدين في زمن الجهل والظلام ، والتي صرعا العلم الواضح والعقل المطلق المستنير ؟ !

وأريد أن أخص « منطقة الشهوات » في النفس البشرية بالتفاتة في القصة القرآنية السابقة :

قالت الملائكة وهم الأبرار الطائعون المخلصون حياتهم لله والخير :
« أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس

لك ؟ قال اني أعلم ما لا تعلمون » وكذلك كل ما نراه من الفلسفات والخطرات المبنية على سوء فعل الانسان ، وسوء الظن به ، والسخط عليه ، انما هو ناشئ من طبيعة السمو في نفوس لا ترى الحياة الا في المثل الأعلى الذى رضىته لذاتها هي ..

وما ضر منطقة « العقيدة » ومنطقة « العبادة » ومنطقة « العلم » ومنطقة « المعاملة » في الدين الا الخلط والمزج بينها وبين منطقة « الشهوات » .

وفي اليوم الذى يفهم فيه الحل والفصل المعقول بين هذه المناطق ، يمكن أن نرد الى حظيرة الدين ، عددا كبيرا من الآبقين الهاربين الجاهلين باختلاف مناطقهم واتساع آفاقه ..

ويريد بعض المحدودين ، أن يجعلوا تدير الله كتدبيرهم ، وقياسه على قياس تفكيرهم المحدود .. ولو كان كذلك لخسف بالظالمين والكافرين الأرض وكل بالأشرار تنكيلا بدون حلم وامهال .

ولكنه تعالى واسع العلم والحلم ، غفار ذو وزن دقيق للأعصاب وتأثير الوراثة وعوامل البيئات وهو لا شك ينظر للفساد الظاهر في حياة الانسانية نظرة وزن لما تورثه أمشاج النطفة الآخذة من القوى الحيوانية والعناصر العمياء الحادة .

اننا — نحن القاصرين — نفتقر للطفولة عبثها وحمقها وطيشها وجرائمها ولو كانت القتل ، لأنها لا تدرك .. فكيف نريد أن نجعل حلم الله وتقديره للظروف أقل من تقديرنا !

ان الأمر في ذلك يحتاج الى التنويه والتنبية الى أن الانسان كان الى عهد قريب في دور الشباب ، وأن ذلك كان علة صبر الله وحلمه عليه في سبيل وصوله الى دور الرشد والعقل ، وان من العدالة أن نرحم الطفولة المجرمة .. كما ان من العدالة ايضا القصاص الشديد من الرجولة المجرمة العابثة بحدود الحياة وحرماتها . وهذا ما كان في هذه الحرب ؛ فقد أثبتت للناس أيهم وصلوا الى درجة لا تحتل البعث بجرمات الحق

والعدالة ، وأن حربهم وجرائمها صارت كحرب « الآلهة » لا كخصام الأطفال .. فليحذروا من الآن ، ولينتبهوا الى نفوسهم وما صار لها من قدرة خطيرة ! والى أن الله حينما أباحهم أخيرا بعض أسرار علمه فى التكوين والتخريب ، انما ارادهم ان يستخدموه فيما يوحى به رشد الرجولة العاقلة ، لا حمق الطفولة الطائشة !

والحق أن ما يتلاقى فى مجموع الانسان عالم عجيب متناقض ! فهو بين تلك القوى الملكية البارة العاقلة الخيرة .. وبين تلك القوى العمياء الشيطانية الطائشة . فلا عجب أن يكون بينهما على اضطراب شديد وابتلاء عنيف ، يستحق من أجلهما نظرة حليلة راثية رحيمة توحى بالتفكير الدائم فى وسائل انقاذه من طغيان قوى الشر والجريمة والشهوة الآثمة .

فوق الموازنة

تأكيد انكار - نظرية النسوء والترقى - سعى الانسان
للخلود بالجسم والفكر والصورة والصوت والحركة
والروح - اهتمام الانسانية بنفسها وتيقظها لسير
تاريخها - الانقلاب الاسلامى - انقلاب القرن السابع
عشر - مزاعم عامية

نعود فتؤكد انكار أن يسوى بين حياة أى نوع من الحيوان والنبات
وحياة الانسان ابى العجائب .. الانسان الذى يفكر فيها ويدرسها
ويصورها ويكتب عنها ويتصرف فيها ويتغلب عليها ، وهى لا تفعل شيئاً
من ذلك .. الانسان الذى يولد وهو أقل منها قدرة على التغذى والدفاع
عن نفسه ، ثم ينمو ويترقى الى مالا نهاية له فى الفكر والعلم بما يزيد عن
ضرورات حياته ، بينما هى تقف فى نموها وادراكها عند حدود حفظ
حياتها ..

الانسان الذى خلقت هى له ، بدليل تسخيرها اياها فى خدمته ، ولم
يخلق هو لها ، بدليل أنها لم تتغلب عليه وتسخره وتتصرف فيه .

الانسان الذى خطا فى ستة آلاف سنة — هى عمر التاريخ المكتوب —
خطوات واسعة ثابتة متلاحقة ، فتغيرت حياته من العرى والبساطة فى
المسكن والملبس والمدرسة والحرفة والعبادة تغيراً عجيباً ، يكاد يجن منه
آباؤنا الأولون لو بعثوا ورأوا ما وصلنا اليه .. بينما الحيوانات والحشرات
واقفة كما هى منذ عهد أجدادنا الأولين بها .

وهنا الدليل القاطع على وجود روح سام من الله فى الانسان ، يدفعه
الى الأمام دائماً فى هذا العالم ، حتى يكشف عن كل سر فى الطبيعة
ويتصرف فيه ، ويدفعه الى ادراك الكمال التام الذى ينتظره فى عالم آخر.
فان لم نعرف بقيمة سامية للانسان خارجة عن نطاق حياته الحيوانية،

فسوف تختلط أمام الفكر المثل ، وتلتوى السبل ، ونضل ضلالا بعيدا
يؤثر في خدمتنا للعلوم والآداب الرفيعة والعمران تأثيرا رديئا .

وان سوء الفهم لنظرية النشوء والترقى من أكثر الذين درسوها
دراسة سطحية ، هى التى لونت نظرة الكثيرين الى قيمة الانسان بهذه
الألوان المزرية التى تبعث على تحقيره واسقاطه من العرش الذى أجلسه
عليه الدين منذ أقدم العصور .

فبناء على تلك النظرة المبنية على سوء فهم للنظرية ، ذهبت عن
الانسان قداسته ، واختلت مقاييس الأخلاق وموازينها ، وكان فى هذا
أكبر دافع فى العصر الحديث الى التحاكم الى قوانين الإدغال التى لا مجد
فيها الا للقوة العمياء والشهوات والسيطرة الوحشية التى لا تؤمن بخدمة
الفكر والعلم ولذة الحياة فى مثل أعلى .

وعلى فرض ثبوت نظرية النشوء — وهى الآن لا تزال فرضا نظريا
يحتاج الى حلقات مفقودة ليصير حقيقة علمية — لا يجوز لنا أن نخلط
بين الحياة الآلية التى هى « مضروب مشترك » فى أجسام جميع الأنواع ،
وبين الروح الانسانى الملموح فى رقى الانسان الدائم السريع ، ونزوعه
المستمر الى الأكمل ، ونفاذ فكره فى عالم المعانى المجردة التى تبدو عجيبة
رائعة فى الرياضيات العليا ، والخفقات الروحية العليا ، والمثالبات العليا
التى لا يمكن تفسيرها تفسيراً « بيولوجيا » أو « فسيولوجيا » .

ولقد أحس الانسان ، حتى فى عصور جهالته ، بتفرده وامتيازه على
سائر ما يحيط به فى الطبيعة ؛ اذ وجد نفسه أقوى قدرة ، وأوسع حيلة
فى التغلب على المشقات ، وفى الرقى بالحياة رقىا مطسردا ، ولذا لم
يستطع أن ينظر الى القبر كأنه نهاية أبدية لتلك الحياة ؛ بل وجد فى الهامه
أن لا بد وراء موته من امتداد لحياته على أسلوب آخر أو على أسلوب
الدينا .

فما باله يشك الآن فى قيمته السامية ، بعد أن تضخم أمامه ميراث
علومه وآدابه ، وعمر الأرض عمرانا ، وافتن فيها افتنانا ، وصار فطنا
لما فيها من جمال وأسرار ؟ !

انه ما فتى منذ وجوده وهو يسعى لخلوده ، ليظل مغمورا بهذا الاحساس العجيب بالحياة ، ولم يكن يستطيع أن يتصور الخلود في أول الأمر بأكثر من أن يعطى شعلة حياته الى ولده . وقد وجد في ولده أكبر عزاء له عن موته وفنائه ، ولكنه لم يقنع بهذا بل ظل يبحث جاهدا عن وسائل خلود جسده هو بذاته ، فحفظه ونقش صورته على الألواح والتمثيل ، ثم خطأ خطوة أخرى فخلد فكره بالكتابة ، ثم خطأ خطوات متلاحقة في العصر الحديث نحو هذه الغاية ، فخلد صورته الحقيقية « بالفوتوغراف » وصوته « بالفونوغراف » وأنعام نفسه « بنوتة » الموسيقى ، وحركات جسمه « بالسينما » ، ثم تصرف في الصوت والصورة والحركة ونقلها على أمواج الأثير ، فاخترق الحدود والكشافات بالراديو والتلفزيون في أقل من لحظة ، ثم هو الآن يتجه ببحوثه الى عالم الروح ، لعله يستطيع أن يتصرف فيها ..

فأنت ترى انه مشغول دائما بخلود حياته ، اذ يحس احساسا فطريا وعقليا أنها لا يليق بها الفناء الأبدى الذي يرجعها الى العدم المطلق ..

وأحب ان ألفت الفكر الى أمر هام جدا وذى قيمة كبرى في النظر الى قيمة الانسان : وهو أن حياة هذا النوع منذ ابتداء تيقظه لها في العصر التاريخي ، وتقييد خطواته فيها ، حياة مطردة الرقى ، سائرة بسرعة الى الوضوح والانكشاف .

ولقد عاش أدهارا طويلة وهو يجهل أجناسه وانواعه ، غائبا في اوطانه الضيقة ، يحسبها هي وحدها كل الدنيا ، لا يعلم حدود اليابس والماء ، منشورا لا رابطة تجمعهم ، جاهلا بما في الكون من عوالم وأسرار ، وقد كانت أديانه اديانا خاصة . كل قرية فيها نذير يسدد حياتها بحسب ظروفها هي وحدها .

ثم كان الانقلاب الاسلامي قمة النضوج في العقيدة الدينية ، اذ جعلها عقيدة طبيعية عقلية دولية وضعت فيها الأسس لوحدة البشر وتلاقيهم على المعاني المشتركة بينهم ، حتى يتأتى من وراء ذلك ، السعى الى وحدة العمل والخدمة المشتركة ، ولذلك لم تنتظر الأرض أن يأتيها هدى من السماء

على يد رسول بعد رسول الاسلام ، وأحست ان الله اغلق باب «الوحى» ، وجعل محمدا « خاتم النبيين » ، وقد صدق الزمان ذلك فلا مجال الجدل . نلم تعد الانسانية تقبل ظهور البطل في صورة نبي . وقد نبه الى ذلك «كارليل» في كتاب « الأبطال » . ولعل هذا هو معنى قول محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في خطبة حجة الوداع : « ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » أى أن الانسانية قد بدأت بعد الانقلاب الاسلامى دورة زمنية جديدة .

وحقا يجد كل من يتفرس ويستقريء التاريخ ، أن عصرا عقليا جديدا قد ابتدأ بظهور الاسلام ، وافساح الامبراطورية العربية التى احتضنت جميع علوم العالم القديم ومعارفه وأنمتها وحملتها الى العالم الحديث . فالانقلاب الاسلامى ينبغى أن تجعله الانسانية كلها بدء تاريخ رشد للعقل ووحدته للدين فيه .

والآن صارت الأرض كقطر واحد بأدوات الاتصال السريع ، وكل أمة تعلمت لغات غيرها ، وارتبطت مجموعات كبيرة من الأمم برباط واحد واختلط الأبيض بالزنجى ، والشرقى بالغربى ، وسكان الجزر النائية الغائبة فى المحيطات بسكان القارات ، وصار الانسان العادى يطلع كل صباح ومساء على أخبار العالم الأرضى كله ، ويرى حياة جميع الأمم فى السينما .. وهذه كلها مقدمات لنتائج لا شك فيها عند من يقيس ويعتبر بالماضى .

وكما ثبت أن الانقلاب الاسلامى كان بدء عهد عقلى وقلبى للانسان ، كان القرن السابع عشر الميلادى بدء عهد عملى وعلمى له . وبذلك طار الانسان بجناحين قوين من الحياة الفكرية والحياة العملية الى الغاية من خلقه .

فليس من الصواب ولا من الانصاف أن ننظر نظرة تشاؤم الى حاضره ومستقبله ، بعد أن رأيناه يبنى حياته على العلم والنظام بناء كان يعد فى الماضى من أعمال السحر وخوارق العادات ..

ومن النظر العامى أن نزعهم أن الانسانية الآن أحط منها فى الماضى ..
ولست أدرى ما مبعث هذا الزعم ؟ أهو ملاحظة فساد فى العقيدة الدينية ؟
إن العقيدة الدينية الآن أصح منها فى الماضى ، فهى فى أكثر الأمم المتعلمة
بعيدة عن الشرك والوثنيات والخضوع الأعمى للكهنة .. وما أصدق ان
عاقلا يخلى الطبيعة من عقل يديرها . ولكنه ليس آلهة الكهنة . وعما
قريب يذهب ما فى بعض الأديان من بقايا الوثنية والاشراك ، ولن يبقى
للانسانية الا دين الفطرة والعقل بغير عنوان واتساع الى جنس او شخص
او مكان .

وهذا هو المعنى الحرفى لكلمة « الاسلام » . فأى امرئ يؤمن بخالق
واحد للطبيعة ، ويحسن العمل فى الدنيا فهو « مسلم » والمعنى الحرفى
لكلمة « اسلام » هو الاتقياد والتسليم ، لسنن الله وقوانينه فى الطبيعة .

واقراً ان شئت : « وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو
نصارى . تلك أمانيتهم .. قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين . بلى من
أسلم وجهه لله وهو محسن ، فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم
يحزنون » .. والآيات كثيرة فى هذا ، ولا محل الآن للخوض فى هذا
الموضوع .

وقد صارت الأديان التى تحتضن بقايا الوثنيات تختفى وتقر من
نور العلم والفكر الحر ، ويزعم سدتها أن للدين لا مناقشة ولا تحاكم
للعقل فيه .. وهذا أول الاعتراف منهم بأنهم على باطل عما قليل يذهب
مذموماً مسحوراً الى قبور الخرافات والباطل .

أم يكون مبعث هذا الزعم هو فساد الأخلاق الاجتماعية ؟ ولا هذا
أيضاً .. فان الأخلاق الاجتماعية تترقى باطراد فى كثير من الأمم التى بنت
حياتها على العقل والنظام رقى لا يمارى فيه الا من يرسل الكلام بدون
هدى ولا دليل منير .. فحكم الشورى هو الحكم الغالب ، وحرية الفرد
وحقوقه صارت مكفولة معترفاً بها ، وقد نظم الاحسان ، وحوربت
الأمراض وطوردت الجرائم ، وصار التعليم والصحة والقوت حقاً للفرد

على الدولة ، ومجدت صفات البطولة والنبيل ، وأقيمت لها النصب
والتماثيل والأوسمة وحفلات التكريم ، ووطدت وحدة الأمة وتكافلها
بأروع المظاهر كما في بعض الأمم العظيمة .

أظن أن مبعث الزعم بانحطاط الانسان هو انطلاقه وراء شهواته ،
وافتنائه في اشباعها .

وعلى فرض صحة هذا الزعم فان منطقة الشهوات منطقة منفصلة
عن منطقة العقيدة الأصلية في الدين والحياة ، ولا يجوز أن تكون سببا
لهذا التشاؤم الذى قد يصل الى الكفر والاعتراض الصريح على الله ،
حتى من بعض كبار المتدينين الذين أرسلوا الى منذ حين ، وكانوا من
أعظم الأسباب لتحرير هذا الكتاب : اذ أن أحدهم وصل به الحال الى
أن يقول : ان الله تعالى غلب على أمره . ا اذ لم تتحقق غايته من خلق
الانسان وهى العبادة .. وبعضهم يتهم الله تعالى بالأنانية ! لأنه لا يبالى
بما يصيبنا من الآلام والعذاب فى عبادته . . !

وما أكثر ما يجنى قصور الفهم والتوجيه للنصوص على الناس !
وما أعظم مسخ الألفاظ بكثرة مضغها بدون إدراك ! وما أعظم جناية
التقليد الأعمى فى أخطر أفكار الحياة وهى فكرة الايمان !

وقد بينت معنى « العبادة » فى كتاب « الحياة صادقة » المهيأ للطبع
بما أعتقد أنه يقضى على بواعث مثل هذه الاعتراضات .

مسرح هائل وممثل واحد

نظرة واسعة - من الحياة ؟ - ممثل مجهول ...
زواج الفكر بالمادة - أعماق الكون - الحياة هي الانسان -
الباقيات - أمة الاخلاق وأبوة المعلوم - نوعان من
الرجال - المكازتان ...

في السماء : كل نجم عليه غشاء سرمدى من السكون ... ولو ألقيت
نظرة على النجوم والكواكب ، لم تر شيئاً الا لمحة عينك أنت ، واختلاج
ضوء يكاد يكون من خداع النظر ..

وفي الأرض : كل شيء يسير في حركات محدودة وسنن مطردة ،
وتكاد لا تسمع الا أصوات هبوات الريح ، أو لططات الموج ، أو أصواتنا
تظهر من تلاقي الريح بالأشياء ، أو عبث الأمواج بالأشياء ... وما عدا
ذلك فأصوات حيوان لا تعدو أن تكون مقاطع ونبرات بسيطة محدودة
يصح أن تلحقها بعزيف الرياح على شعاب الجبال وقصبات الأشجار ،
أو بهدير الأمواج ، ذلك الصوت الواحد المكرر على توالى الأزمان .

ولا ترى الا تلك الدورات الأبدية من ليل ونهار ، وريبع وخريف
وشتاء وصيف ، ورياح وأمطار ، وفيضانات دورية ، وأرحام تدفع
وأرض تبلع ، وحياة رتيبة للبهائم والوحش والطير والأسماك ...

تلك هي الحياة في الأرض من غير الانسان .. لا تجديد في أساليبيها
ولا تنويع ، الا ما خلق الله على الجلود والريش والأزهار والثمار ،
والجدد البيض والجر في السفوح والجبال . والا ما تنقله الرياح والمياه
في دوراتها من مكان الى مكان . والا ما توزعه قوى الطبيعة بالمكيال
الوافي والوزن الواسع ، فلا يضاف للطبيعة شيء لم يكن منها ، ولا يقلل
فيها شيء من موضعه ، ولا ينقح فيها شيء يستحق التنقيح .

إذا لمن هذا كله ؟ لمن الليل والنهار ، وهذه الآلات الهائلة التي تدار
والحيوان الآبد والداجن ، والأزهار والثمار ، والأنهار والجبال ، وألوان

الشفق فى الأصائل والأسحار ؟ أهو للحمير والقروء والنمور والشعالب
والفيلة والآساد والفهود والشعاين والخفافيش والبوم والحشرات
والديدان ؟ !

كلا ! ليس فى هؤلاء من يصح أن يفقه شيئا من ذلك الايداع
والجمال ، ولا أن يسند اليه الدور الأول فى رواية الحياة .. وانما هن
أعاجيب وتهاويل وصور لزينة المسرح ، ودواب لحمل الأدوات والآلات
اليه ... أو ان شئت فقل ان هؤلاء « حروف » فى أبجدية « الأسماء »
التى يلزم أن تتألف منها رواية الحياة التى يمثلها ممثل آخر .. ممثل
لابد أن يكون حرا يذهب فى أى اتجاه على المسرح ، ويجدد فى التمثيل
والاخراج كل يوم ، ويقوم بأدوار جميع ما على الأرض ، ويتمثل فيه
الابتكار الذى يجعل رواية الحياة غير يوم مكرور دائم مملول لدى النظر
من سكان السماء ، وسكان الأرض من الراصدين الواعين .. ويحشر
كل شىء فى تمثيل أدواره ، ويضع عقله وقلبه على كل شىء ..

ومن هذا غير الانسان ؟ !

لقد وزع الله عقوله وقلوبه على المواد والقوى سافلة وعالية ، فجعل
أفئدة من الناس تهوى خدمة شىء ، وأفئدة أخرى تهوى خدمة شىء
آخر ، كى لا يتعطل أفق من آفاق الوجود من غير نظر اليه وتفرس
فيه ، ولكى يزاوج بين خواطر الفكر وخواص المادة فتنتج الأحكام
عليها ، وتبين حكمة الله المخبوءة وراء أسرارها ، ولتطلع العقول على فنه
واحاطة علمه بكل شىء ..

قانون المزاجية هنا أيضا : فبين فكر الانسان وبين أسرار المادة
زوجية تنتج علما أو فنا أو احساسا أو شعورا ..

فالأرض من غير الانسان هى ذلك البيت الصامت ، وذلك الدولاب
الدائر ، وتلك الدورات الأبدية التى لا غاية لها ، ولا يد تتلقى فيضها
وتنتفع بقواها ، ولا اطراد فى ارتقائها ، ولا تغير فى أوضاعها ، ولا زيادة
فيها . . .

فأين المخرج من تلك الحدود الواقمة الجامدة ؟ وأين الباب الى ماهو أعظم وأوسع ؟

ان عمق النفس هو الذى يؤكد سعة الدنيا وتنوع المناظر . فاذا لم يدخل المرء فى أعماق النفس البشرية ، خيل له أن الوجود فى وحدة قوانينه وتشابه دوراته ما هو الا شىء محدود ..

والانسان أدرك عظمة الله وعظمة الكون لما أدرك عمق نفسه ، وعرف الطريق الى الكمالات والصور التى لا تنتهى لما عرف باطن نفسه ، وخرج الى عالم أرحب وأوسع لما أطال النظر فى نفسه .

وما عرفت للانسانية جلال الله ، ولا تبينت صفاته وتوضحت لها حكمته ، الا من عقل الانسان الفائق الذى أطال النظر فى الدنيا ذات الدورات المحدودة المكررة ، وأطال النظر فى النفس ذات الدورات غير المحدودة ، وزاوج بين هذه وتلك .

وهذا يسلمنا الى أن نقول : ان الانسان هو الحياة للأرضية بالمعنى المعقد المركب غير المنتهى ..

ولا حد للحياة اذا التقت الطبيعة بالعقل الانسانى الذكى الحساس المفكر ..

ولا دخل للطبيعة الا فى تقديم المواد الخام الى يده وفكره ليصنع بهما ذلك التنوع ...

ويخيل الى أن فى روحه ميراثا خفيا من نظام لعله نظام « الجنة » وجمالها وراحتها واتساعها . ولعله يحاول بعد طرده منها أن يوجد صوراً لها فى الأرض ..

واذا كان كل شىء فى هذا الوجود يرمز الى معنى بسيط ، فانه النوع الانسانى يرمز الى جميع أنواع الحياة وألوانها مضروبا بعضها فى بعض كما يضرب عدد هائل من الأرقام فى نفسه ، من الواحد الى آخر العدد ان كان للعدد آخر ..

فالإنسان هو « مكان » التقاء عوالم الوجود المشهود كله ، ليحدث من التقاء كل شيء بكل شيء منفردين : نتائج وصور بسيطة ، ومن التقاء جميع الأشياء بعضها ببعض : نتائج وصورة معقدة ، لا يمكن تقريبها الا للعقول الكبيرة التي لا تكاد تدركها الا بالوهم ، أو بالذهن الرياضى صياد الأخيلة والأحلام والفروض ..

* * *

وعمار عالم الفكر بتلك المعانى الناتجة عنه هو ، وتنوعها الى ما لا نهاية له ، أمره عجب ! وخصوصا اذا تصورنا أنها معان محدودة بحدود الرؤوس البشرية ، معدومة فى غيرها ، الا اذا خرجت وتجسدت وتشكلت فى قميص مادى .

ترى ، هل هى ذات وزن وحياة عند الله الكبير ذى العقل المحيط والعلم الواسع ؟ وهل هى على تناقضها واختلاف الانفعالات المتصلة بها ذات قيم عنده ؟ أم هى ملاء وسلويات لذلك النوع المدلل فى الأرض ، تموت معه وليس لها فى سجل الوجود أثر بعده ؟

ان تصور فناء عالم الأفكار العظيمة الرائعة التى تتداول عقول الانسانية ، كاف وحده أن يقذف فى قلوبنا الايمان بوجود عالم ثان وعقل آخر يحصى ذلك الحصيد ، ويجنى ذلك القطف العجيب الناتج من ازدواج الحياة المادية والروحية فى الانسان .

* * *

أسرتان اثنتان من أفكار الانسان هما الباقيتان — فيما أرى — على وجه الزمان فى سجل الأرض :

أسرة الأفكار الخلقية ، وأسرة الأفكار العلمية التجريبية .

والأسرة الأولى هى التى سدته الى غايته ، وهياته للخلافة فى الأرض وتحدرت فى أعصابه ، وأيقظته الى سموه ، وجعلته ذا قيمة لدى نفسه .. والى تلك الأسرة ينتمى الدين ، ومنها انفتحت أبواب السماء للإنسان ونزل اليه وحيا .

والأسرة الثانية هى التى مهدت له طريق الحياة المادية ، وسلطته على الطبيعة يرتفق منها مرافق حياته ما وسعته الطاقة ، وهى التى أنمت ثقته بنفسه ، وأظهرت آثار وجوده ، وجعلته متصرفا فى المادة بما لاطاقة لغيره من الأنواع به .

والأسرة الأولى كانت الأساس فى بناء الحياة المدنية ، واطاحة الفرصة للفرد أن يفكر ويعمل لخدمة المجموع فى حماية القوانين والمعاهدات ، وكانت الأساس فى توجيه روح الفرد الى المثل العليا ، وبناء مكارم الانسانية .

وقد استصبحت الانسانية بأنوار الأنبياء بناء الأخلاق ، قبل أن تستصبح بأنوار « العلماء » بمئات القرون .. وكانت الأخلاق للحياة بمكان الأمومة الرحيمة .. تنمو فى رعايتها الطفولة وتشب وترشد ، وكانت العلوم بمكان الأبوة الساعية الجاهدة .

فالأرض مدينة لنوعين من الرجال : الباحثين فى أطواء الروح الانسانية ، المستخرجين منها وسائل طمأنينتها ، السباقيين الى ادراك سموها وتفرداها ، الواضعين لها أسس قيمها الذاتية ، الرائدون بأبصارهم وبصائرهم كل أفق فى الأرض والسماء ، المستنزلين لها أسرار السماء بالاخلاص والبكاء ... وهم لا شك الأنبياء والأصفياء الذين لم يقفوا عند حدود الكثافات والسدود والقيود المادية ، بل أرحبوا وأفضوا فأتوا بالخير والتفاؤل والاطمئنان .

والنوع الثانى هو نوع العلماء المخترعين الذين يزدون فى وسائل راحة الأجسام ، ويخففون الآلام والمشقات ، وينمون قوة الخلق والتقليد فى يد الانسان ، ويزيدون صور الحياة بالتنوع والترصيع والتوشيع والافتنان .

ولئن كان النوع الثانى هو صاحب الدولة على عقول الناس الآن ، لكثرة ما فتح عليهم من بركات الأرض ، فينبغى ألا ينسى المفكرون أن النوع الأول هو مقيم أساس الحياة الانسانية ، والآخذ بيد البشرية حتى

بلغت دور الرشد . وهو الأكبر خدمة ، والأبعد أثرا ، اذ هو الذى بعث فى النفوس طمأنينتها على قيمتها ، وأيقظها لذاتها ، وأرشد لها لدخرات روحها وعقلها ، وهو الذى أوجب عليها الملاءمة بين ما تصنع وما تنتظر .

وستستحيل كل بركات العلم الى آفات ونقم وشور ، اذا لم تتذكر الانسانية جهاد آبائها الأنبياء القدماء وتقم حياتها الجديدة على أسس ما أفنوا أعمارهم فى وضعه وتوسيده ، وما قتلوا وصلبوا فى سبيل اعلائه وتشبيده .



غير هاتين الأسرتين السالفتين من الأفكار فهو زبد يذهب جفاء هو باطل لا حقيقة له ثابتة دائمة . هو صور عابرة لتسلية النوع فى جهاده وتخفيف اعنائه .

ويخيل الى حتى درجة الظن .. أن فكر الانسان لا يجدى عليه شيئا الا حين يتجه الى فتح جديد فى عالم أخلاقه ، أو فى عالم المادة للارتفاع بها وكشف خصائصها ، ولقط أسرارها واستخدامها ، وأنه ما وضع فى الحياة موضعا أصيلا الا فى هذين الموضعين .

فمعرفة بأخلاقه تقيم حياته على الصراط السوى الذى ليس فيه عقبات وسدود من فعل الغرائز والشهوات وعقاييل الطفولة ، وتفرغه للعمل المثمر الدائم فى المادة .

ومعرفته بأسرار الطبيعة تفتح له أبواب العمل فيها ، وتنتج له بركات من السماء والأرض ، وترقيه وتمكنه من العبادة بالفكر والعمل .

أما فترات التفلسف النظرى والهيام وراء البدوات والفروض ، فتلك لا محصول وراءها ، أو هناك محصول ضئيل .



هاتان عصوان لا يستطيع الانسان أن يمشى بدونهما خطوة واحدة وانما يدور على نفسه كما كان فى العصور الأولى ، ولو كان فى القرن العشرين .

ولا يمشى باحداهما ويترك الأخرى الا أصيب بالمرج والتعثر .
فأمم الروح بدون علم وعمل في المادة ، أمم بأئدة مستضعفة معطلة
القوى ، محدودة الحياة ، مسلوقة الحقوق .

وأمم العلم بدون الروح ، سباع ضارية ، يأكل بعضها بعضا وتأكل
غيرها ، ويتجه كل عملها وفنها الى خدمة الشر والاثم ، وتستحيل
بركات العلم فيها الى تقم ، كما يتجه كل العلم والهندسة في الشوكة
الى قمتها الحادة وكما يستحيل الدسم في الطعام الى سم اذا ذهب صلاحه
واختلت أخلاطه .

فمبعث ثقة الانسان بنفسه ونوعه هما العلم والخلق معا . فالأول
يريه أن فكره موضع تجلى أسرار الله في التكوين ، وإن الله يبيحه به
كثيرا من أسرار ملكه ، لأنه مفتاحه ، ولأنه يعطيه من القدرة ما به يكون
ويخرب ويشعر أنه صاحب سلطان .

والثاني يريه أن قلبه موضع لقاء أسرار رحمة الله وعدله ورأفته
وجماله وطهره ، وموضع اللقاء كثير من الأذواق للموجود من المعاني
والصور . والأذواق هي الحياة في الواقع ، فالصور الفكرية المادية بدون
أذواق ، ميتة . والذوق هو الذي يحييها ويحددها ويدخل بها معنى
الحياة الى القلوب .

وقد نرى الشيء يوما حسنا ويوما قبيحا ، بينما هو هو لم يتغير ،
وانما تغير ذوقنا له . والواقع أنه قلب الانسان هو مكيف لمشاهد الأرض
بالنسبة لنا ، ولولاه لذهب الجمال والفن .

الانتظار !

الطبيعة تنتظر - عالم جديد من الفكر والحديد -
حيوانات ووحوش حديثة - قدرة الفكر - الثقة بالإنسان
- كنوز مدخرة - حياة عريضة

كل شيء في الطبيعة يبدو عليه انتظار غاية الحياة الانسانية ، ويبدو على الإنسان كذلك انتظار غاية مجهولة في حياته على الأرض .

كل شيء ينتظر بلوغ الإنسان الى غايته ، كما ينتظر كبار البيت بلوغ طفل عزيز مبلغ الرجال .

وكل شيء في البيت مسخر للطفل . تعرض أمامه أشياء البيت وحيوانه ودواجنه ولعبه .

وهكذا أرى الطبيعة تنتظر صابرة غير متململة أن يسير هذا المظفل ويهتدى الى الغاية المقصودة المجهولة .. وهو لا يزال يتعثر ويذهب ذات اليمين وذات الشمال ، ويرتد ويتكس ، ويعترك ويحترب ، ويخلد الى تراب الطريق يعبث فيه في ذهول وغفلة ، لا يعرف كيف يمد بصره الى حدود الأفق البعيد الذي يناديه : انظر الى دائما ، واضرب بيديك ورجليك في العقبات والسدود حتى تصل .

وكان لعبته وتلبثه عذر فيما مضى ، أيام كان يدور على نفسه وسط المبهمات والألغاز ، وأيام كانت طريق حياته ملتوية معتمة ، تلفها جهالات ، وتحيط بها أهوال .. كل ما فيها غامض مغلق ، سواء أكان جامدا أم حيا ، ناطقا أم ساكنا .. فهو لا يرحم سائلا ولا يجيبه .

كهوف وأغوار ، ورياح مجهولة المهاب ، وأمطار غير مدفوعة بتدبير ، وصرخات وحش وطيور وبهائم ، ونجوم تطلع وتغور ، وشمس تشرق وتغرب ، وجبال واقفة لا تريم ولا تزول ، وما لا عدد له من الأهوال والأحوال ..

ولكنه الآن راكب الريح والماء والأثير ، وطاوى الأرض فى خطفات ،
ورائد السماء بالمقربات ، وكاشف الجن المستور بالمكبرات ، وقياس
أبعاد النجوم وأضوائها بدقيق المقاييسات ، وصانع « الحيوان »
و « الوحوش » الحديدية من السيارات والدبابات والمدافع والطائرات
والمخبرات والغائصات ؛ فلا يليق به أن يصير على العبث والزحام على
التراب بعد أن رأى الكنوز فى كل أفق تتفتح لعينه .

وكان قدرا مقدورا أن تبقى العناصر والحيوانات خادمة له حتى يبلغ
أن يستغنى عنها بما يصنعه تقليدا لها ومحاكاة لنماذجها .

فحين عجز الحصان وضاعت طاقته عن اشباع شهوة السرعة عنده ،
ركب آلات سرعتها كذا ألفا من الأحصنة .

وحين عجز الزيت والشمع عن اشباع شهوته للضوء صنع مصباح
الكهرباء فأضاء له بقوة كذا ألفا من الشموع ..

» وحين هدد بفناء أقواته ولباسه ابتداء يركب أقواته من العناصر التى
يتركب منها النبات واللحم .. وصار يصنع الصوف الحرير من اللبن
والخشب .. وصار يأخذ والدهن من القذر بعد أن يحلل ويعزل
ويطهر بالترشيح والتبخير والتكثيف ، كما ترفع الشمس والهواء الغازات
والأمواه المقطرة من الأبوال والأقذار ، وتعيدها الى الأرض صالحة فى
دوراتها الأبدية .

وقد رصد لكل قوة فى الطبيعة مقياسا يقيسها ، ويبين اتجاهها ، حتى
يحترس منها ويتقى وينتفع .. فللمطار مقياس ، وللضغط الجوى مقياس ،
ولاتجاه الرياح مقياس ، وللزمان مقياس ، وللمكان مقياس ، وللحرارة
والرطوبة وغيرهما مقياس .

وأظنه بهذا ، قد وضع عينه وفكره على حركة كل شئ واتجاه كل
شئ فى الطبيعة . وذلك كله بمثابة خيوط الشبكة الحديدية التى
ينظرها على قوى الطبيعة التى تنفعه أو تضره فى مرافق حياته .. وهذه
الأرصاد التى رصدها لابد ستنتج له عالما فكريا جديدا يجب أن يسلم
روحه الى عالم روحى جديد .

أجل ، انه عالم جديد من الفكر والحديد .. ! الفكر المطلق البارد
القائص لأسرار المادة والقوة .. والحديد الطائع البليد القاسى المتمم
لأرادات الرجال .. الذى وجد فيه القلب الانسانى أعظم معبر عن بأسه
وتصميمه فى اختراق السدود ، فصهره وشكله بنار عزمه ، قبل أن يصهره
بنار كيره ، ويشكله بمطرقته .

ولقد ضمرت أظفار الانسان منذ أن اعتمد عليه . وكان كشفه مبدأ
انقلاب فى حياته ، والآن يتبدى به انقلاباً أعظم ، بعد أن سلط عليه
خياله وعلمه ، وصار يطير به ويزحف ويدفع ويجر .

وهل تظنون أن هذه الأهوال التى يشهدها الانسان الآن لا تترك فى
نفسيته آثارها المحتومة فتخلقه خلقاً آخر ؟

أتظنون أن قلبه وفكره لا تغيرهما رؤية هذه الطرق الحديثة فى البناء
والافناء والهدم والسرعة والاتقضاى والحشد والتعبئة ومعاشرة هذه
الوحوش والحيوانات الحديدية ؟

ان من شهد تغير العالم بعد الحرب العظمى التى أظهرت قوة الآلة
واختفى وراءها الانسان ، يوقن أنه ستختفى بعد هذه الحرب أشياء
وتظهر أخرى .

وأتوقع ألا يقام للفردية والأنانية الشخصية والقومية بعد هذه
المرحلة وزن كبير ، بعد أن رأى الفكر أن ملايين من الجياجم والقلوب
البشرية تسحق وتحرق بمصهور النار ، وملايين من المعابد والمعاهد
والمنازل المقدسة العامرة بالتحف ومخلفات العلم والفن والجمال ، تنسف
وتذرى فى الريح هشيماً وهباءً ودخاناً .

لقد احترق الانسان الأوروبى مع جميع ما جمعه من الذهب واقامة من
البيوت والمحاريب والتماثيل .

ولقد اختفت ملابسات روح الحياة الرفيعة الهادئة الضعيفة المائلة فى
اللحم والدم والأعصاب والاحساس ، وابتدأ عالم جديد من فكر مجرد
يكاد يكون غير مصحوب باحساس .

وقد لبس الفكر أجساما من المادة العمياء ، وكأنه قد انفصل عن الأجسام الانسانية ، واختبأ واستتر في السيارة المصفحة والدبابة والطائرة . وصار يدب ويطير بهذه الأجسام الحديدية كأنه هو والحديد الذى يخفى فيه جسم واحد . فهو للآلة كالروح والعقل فى الجسم الحى . وقد صنع للآلات أحشاء فيها حرارة ونبض ، ولكن ينقصها السر الالهى الذى فى « الأمية » ذات الخلية الواحدة ، ويخيل الى أن الانسان هو ذلك السر الالهى لتلك « الحيوانات » الحديدية !

وحين قصرت دواب الأرض التى سخرها فى خدمته عن سرعة عقله ، صار يبحث عن القوى المجردة كالكهرباء ويلبسها أجساما من الجمد ، ويسيرها بها بطاقة عظيمة مصحوبة بفكره وتسديده . فهى أطوع للانسان من الحصان ، لأنها ترى بعينه وتتحرك بسرعة فكره .

وآخر خطواته فى هذا الطريق الآن هو استخدامه اللاسلكى فى ادارة الآلات والسيطرة عليها ورصدها وملابستها بفكره من بعد .. ولا ندرى ما يأتى به الغد من أعاجيبه فى هذا السبيل . وتفجيره الذرة واستخدام طاقتها الجبارة وغزوه الفضاء بمراكب ومحطات واطلاقه الأقمار الصناعية والصواريخ .



والفكر المجرد طليق فى غير حدود . والوجدان والاحساس مقيدان فى حدود الأذواق والمشاعر . فإذا لم يصحب الفكر بالوجدان والاحساس اخترق الانسان به الآفاق فى سرعة فائقة كأنه شعاع ثاقب ، بل هو أسرع من الشعاع . بل ليس شئ أسرع من الفكر .

ولقد يخيل لفكر الانسان أنه يستطيع أن يضع يده فى النار فلا تحترق ويمشى برجليه على الماء فلا يغرق ، ويسلم جسمه للريح فيطير ، وينظر بعينه وراء السدود فيرى الآفاق . فالفكر لا يرى كل أولئك مستحيلا .. ولكن الوجدان والاحساس يقيدانه بالحدود الموضوعه للمادة ، ويهددان الجسم بالألم اذا لم يعترف بهذه الحدود والقوانين .

وقد خيل الفكر لبعض « السفسطائيين » اليونانيين القدماء ، أن كثافة الأجسام وهم من الأوهام ، وأقام الدليل النظري لمعارضيه على ذلك ، فتحدوه أن يخترق بجسمه الجدار الذى أمامه ، فقام واندفع اليه بقوة ، وكانت النتيجة المحتومة : تحطم جسده وفدخ رأسه .

ان فكر السفسطائي لم يخطئ فى توهمه استطاعة اختراق الجدار ، ولكنه أخطأ حساب الوجدان والاحساس . والحقيقة أن الفكر لا حدود له ما دام يسير وراء القوانين الطبيعية .. فلقد استطاع أن يخترق الجدران والجبال بالصوت والصورة والحركة حين خضع للنواميس الطبيعية فخضعت هى له كذلك . ولست أدري أقرىب أم بعيد ذلك اليوم الذى يستطيع الانسان فيه أن يخترق الأجسام بالأجسام ، مع وجود الالتئام وعدم الصدام ، وأن ينقل الأجسام من مكان الى مكان كما ينقل الصور والحركات والأصوات ، وبالسعة ذاتها التى يجرى بها هذه المدهشات ؟!

ان الثقة بالعقل الانسانى بعد أن فعل ما فعل فى تغيير الأرض ينبغى أن تكون من البدائه ، للانتفاع بها فى بناء الحياة الجديدة .

وكما آمنا بعلم الطب لتنظيم حياة الأجسام ، ينبغى أن تؤمن بعلم النفس لتنظيم حياة الأرواح .

وقد كان الانسان فى الحقب السابقة منزوع الثقة بنفسه ، لكثرة ضغط عوامل الطبيعة عليه ، وكثرة العقبات التى تعترض سبله وتجعله يشعر بحقارته وضعفه وسط عظمة الأسباب والقوى الطبيعية .

ولكنه بعد أن تمكن من صنع أغلب الأشياء لنفسه ، والانتفاع بأكثر القوى ، والمناعة ضد الأوبئة والطوفان والقحط والصواعق ، يجب أن يكون ايمانه بعقله ايماناً أصيلاً ليصنع به مستقبله صنعا يريحه ويرقيه ويجعله يتفرغ للفكر فيمن خلقه قادرا هكذا . !

ان الانسان يأتى بأعمال عظيمة فى صميم غايات الحياة وهو عنها غافل لا يدرك ماذا تكون نتائجها فى مستقبله ومركزه .

وان مصانع « الولايات المتحدة الأمريكية » وحدها مثلاً تخرج في كل دقيقة سيارة كاملة ! هذا جيروت وملكوت انساني واسع يتفتح أمام عيون الراصدين لحركات الانسان .

فهذه السيارات « حيوانات » حديدية ، تولد كاملة من « أصلاب » المصانع و « أرحامها » ! ولا تحبو ولا تدرج ببطء الطفولة الحيوانية ، وانما تسير بسرعة الفكر الانساني كما قدمنا في هذا المقال .
وهي وأشباهها مما تنتج من اللقاح بين الفكر والحديد ، قد ملأت الأرض وأدالت دولة الخيل والبغال والابل ، وصيرتها أشياء أثرية يوشك الناس أن يحتفظوا بها في المتاحف أو حدائق الحيوان .



في كل ذرة رمل ، وقطرة ماء ، ولمعة شعاع ، وخفقة نسيم ، كنز مدخر لمستقبل الانسان على الأرض .

فليعرف ذلك الذين يشكون الفقر وشح الموارد الطبيعية . أولئك الذين يثيرون الحروب من أجل الطمع والاعتصاب « أن تكون أمة هي أربى من أمة » .

وليسلموا قياد الانسانية لعلماء الطبيعة الذين يضربون معاولهم على كل منجم في الأرض والماء والهواء والشعاع .

ولنأخذ الحياة عريضة ، بالانتفاع بكل ما في الأرض ، وباستعمال جميع قوى الانسان والجماد والحيوان ، وباستخراج كل كامن من النبات والركاز ، وباستئصال كل معلق من الشعاع والماء والهواء ، وبتوليد كل ما يمكن أن يولد من العناصر والقوى ، وبوضع كل شيء أمام كل شيء لينشأ من الأوضاع المختلفة التي لا عدد لها ، حيوات جديدة معقدة لاعدد لها ، يترقى بها الفكر والحياة وينزهر فيضهما ، وترحب بها آفاق النفس ، ويظهر لنا بعدها كم أن الكون ملئ بالأسرار وكلمات الله التي لا تنفذ !

منابع الفكر ومصباحه

انتقال اسرار الطبيعة الى الفكر - من امارات جبروت
الفكر - من عجائب حيرته - خليفة القهار - ادراك المادية
ثم النفس ثم الله - لاعمق في العالم المادى - للفكر
مجال مؤقت ومجال منتظر - باب مفتوح وباب مغلق - مضى
عهد مضغ الكلام - لاسدود امام الانسان - الطبيعة هي
الحكم فيما يمكن وما يستحيل - تربية تعلم غزوا الطبيعة
- الطبيعة المطيعة - عصر الاحساس بقدرة الفكر -
اسئلة يجب ترديدها دائما

يرى الفكر البشرى نفسه وحيدا كملاح تأفه وسط هذا الكون
الفسيح ، وليس له الا دليله الخاص الذى أخذه من نواميس متحدة في
النفس وخارج النفس .

وقد ألقت الطبيعة أكثر صورها الى فكر الانسان ، وانتقل الى ذهنه
جانب كبير من أسرارها وقوانينها ، فصار يقلدها ويصنع في موادها
ما يشاء من ألوان التجسيم والتشكيل والتحريك ، ويسلط بعضها على
بعض ، وصار له مقام معلوم ملحوظ بين عوامل التكوين والتخريب فيها .

وقد وصلت يده الى منابعها وموادها الأولية : فهو يبحث الآن في
الذرة والكهرب ، ليعرف المبادئ الأولى للمادة والقوة ، والدفعة الأولى
التي ابتعثتهما ودفعتهما .

ومن امارات جبروت الفكر البشرى أن يحاول في كثير من الأحيان
أن يتدخل في تخطيط الكون ، ويرسم له صورا مبتدعة ، ويقترح له
وجوها أخرى غير ما هو عليه !

بل هو يحاول أن يفرض نفسه غريبا عن الكون ويدخله كمتفرج من
عالم آخر ، فيحكم عليه ويصفه ويعجب به ، وكأنه موقد من عالم آخر
وكان له كيانا يستمد من منبع غير طينة الكون المادى .

بل هو يحاول أن يحكم على الله العلى الكبير بمقتضى ادراكه هو !
وكأنه يفرض أن علمه بقوانين الرياضة والميكانيكا والجمال والتكوين ،
سابق على الكون ذاته .

ان هذا يدل على أن الفكر البشرى عميق المآخذ والمصادر .

ومرد جميع هذا ومنشؤه ، أن فيه سرا من روح الله الكامل القادر
العالم الجبار .

ومن عجائب حيرة الفكر البشرى ، كشفه عن حيرته ذاتها في تعرف
القانون المادى العام الذى يسير الكون ، وتردده بين الأخذ بقانون
« السببية » الصارم ، وبين مذهب « الاحتمالات » الذى يقول به بعض
علماء الطبيعة في العصر الحديث . وهذا يكشف عن أن وضع الفكر في
الكون هو وضع المتفرج الحائر الذى يدس يده في مصانع الله التى يصنع
بها الطبيعة وظواهر الوجود ، فيدهش ويحار .

ولعل في ذبذبة الفكر بين الأخذ بالوجهين حملا للفكر نفسه على ألا
يغتر ويضل فيجعل الخالق نفسه خاضعا لقوانين الطبيعة فتتحكم فيه كما
تتحكم في غيره ، أى أنه يجب أن يعلم من خلال حيرته بين القوانين ، أن
بارئ الكون قد يجوز أن يسيره بقوانين متناقضة ليبرهن على أنه تعالى
غير خاضع لأحدها . فهو يخلق بالقانون ونقيضه في الوقت ذاته .

وان وضع الفكر في الكون هذا الوضع الحر الحاكم المتردد في
أحكامه ، المدرك لوجوه الصنعة المختلفة المتناقضة الأسباب والتعليقات
لدليل على أنه من روح الله الذى لا يجوز أن يخضع للكون المادى (١)
وقوانينه ، لأنه هو خالقه وخالقها . فالفكر كذلك قد جعله الله على شاكلة
مصغرة من روحه تعالى ، أى أنه يعلو فوق مستوى وجوه التناقض الذى
قد يبدو لبعض العقول وينتفع بها جميعا .

(١) بينا هذا في المادية الاسلامية وابعادها .

وفى رأى أن قانون السببية هو القانون الذى وضعه الخالق ليغمر الكون كله فى أعماقه وظواهره ، ويتفق مع منطق الحياة على الأرض ومنطق الانسان العام ، ويحفظ على الفكر البشرى يقينه وألفته فى أحكامه ، وتنتفع به الارادة البشرية والجهد الانسانى ، بخلاف مذهب الاحتمالات الذى لا يورث الا الشك والحيرة والذبذبة وعدم اليقين بسبب ما .

ويخيل الى أن مذهب الاحتمالات انما أوحى به الى بعض العلماء أنهم رأوا يد الله طليقة فى الطبيعة غير مقيدة ، فهى تنتج الشئ من سببه المعروف ، وقد تنتج من تقيض ذلك السبب فى بعض حالات الشذوذ التى تشير الى القاعدة العامة للفت الأنظار اليها والتنبيه عليها .

مذهب « الاحتمالات » هو نظرة البارئ الى الكون المادى الذى يبدو متحجرا لدى كثير من العقول التى لم تعرف ما عند الله من القدرة . وأما نظرة الانسان المحدود العاجز فينبغى ألا تتخذ الاحتمالات محورا لتفكيرها فتضيع فى عباب الفروض .



ان الله قاهر فوق الطبيعة ، وهو يدرب « خليفته » فى الأرض على التغلب على العقبات التى تعترض طريق أحلامه الطليقة وأفكاره المحررة من قيود المواد الثقيلة . والله أنشأ فى الضرورات والآلام ليقف الحيلة للخلاص منها . واذا اطرده السير على منهاج تاريخه الذى عرفناه ، فسوف يتغلب على أكثر العقبات .

ان فكر الانسان يتدرج غير واقف عند نهاية ، ونموه فى ذاته يجعل الطبيعة نامية به . وأرجو أن يفهم هذا القول فهما عميقا ، لأننا اذا فهمناه هذا الفهم أدركنا موضعه ورسالته فى الوجود ، وأحللناه محلا رفيعا يدفعه الى العمل والسير فى منهج واضح ، وحملنا ذلك على أن نحوطه دائما بقوانين تحفظه من الارتداد والضلال ، وتدرج به حتى نستوعب كل مباحث المواد والقوى ، ونستخرج به أسرارها الكامنة ، وننتقل به نقلة تسلمنا الى الوقوف على عتبات عالم آخر ، لعله أن يكون عالم الروح ..

ويبدو أن ادراك عالم الروح لا يتأتى الا بعد ادراكنا ما فى الكون المادى ادراكا كاملا ، ولعل هذا هو سر قلقنا ونبشنا فى الطبيعة وعدم اخلاطنا الى ركن واحد منها ، فنحن كلما أخذنا من الطبيعة سرا ، أحسنا أننا تقترب به الى ادراك روحنا الجزئية ، لندرك من وراء ذلك علما من الروح الأكبر !

أجل . ان إدراك الكون المادى كان لابد منه لادراك الروح ، اذ أن الفكر صار يرى كل عمق فى الحياة المادية ضحلا بعد ترديدا النظر عليه واستيعابه بالادراك . وطبعى أن تشعر النفس بعد هذا الاستيعاب أنها أوسع وأعمق من الموجودات المادية ، وأن ترى آفاق الحياة المادية عديدة لا أكثر ، وليس لها عمق ولا نهائية ، فهى فى موجودات الطبيعة ومستحدثات الانسان لا تتعدى اختلاف النسب التركيبية بين العناصر التى تزيد قليلا على التسعين .

وما يخيل الى البعض من أن هناك أعماقا وأغوارا لا تنتهى فى المادة ، انما هو صورة مما يحدث للناظر الى لوحة فنية بارعة ذات صنعة موحية مشيرة للشعور باللانهاية ، حتى اذا ما كشط سطحها قليلا ، تذكر أنها ليست أكثر من تمويه وتخيل وبراعة فى بسط الأصباغ والأضواء والظلال وقبضها ، وتكشف له السطح الزاخر باللانهاية عن باطن محدود لا يتعدى ألوان الطيف السبعة !

ان الانسان لم يعد يؤله الماء والنار والهواء والتراب ، ويفرغ عليها أوهام القداسة والهول اللذين كانا لها فى ذهنه قديما ، بعد أن حلل عناصرها وركبها وتسלט عليها وسبر أغوارها . ولم تعد النفس العالمة التى تشرف على لجة البحر أو لجة الهواء ، أو أغوار التراب ، أو جحمة النار ، ترى فيها أكثر من مواد وقوى عيياء محكومة بقوانين أخذتها النفس فى حوزتها ، وجعلتها من مدخرات فكرها ، وتستطيع أن تولد بها نارا وهواء وماء ...

انى أشعر حينما أقلب بصرى فى آفاق السماء وآفاق الأرض ، أن فكرى لا يسترسل فى التعمق فيها الى مالا نهاية ، بل يقف عند نهايات

معينة هي العناصر المحدودة التي تألفت منها مادة السماء والأرض ،
والنسب الهندسية والحسابية التي قام عليها بناء الأجسام وتشكيلها ، ثم
يبدأ الاحساس بعماء لا صور فيه ولا خواطر عنه .

وطبيعي أن نظرتي هذه لا يكون وراءها احساس بخشية من الطبيعة
ذاتها كما كان الأمر عند سكان الأرض القدماء الجاهليين ، لأن عناصرها
حللت ، وأسرارها عرفت ، وصورها طبعت في النفس ، ولكن يكون وراء
هذه النظرة احساس بخشية ورهبة من ذلك العالم القادر الذي خلقها هائلة
هكذا ، وجعلها بهذه النسب الرياضية والهندسية والقوى الدائبة الجبارة.



اذن : ما هو المجال الحيوي غير المحدود لهذا الفكر الانساني الذي
عمق الكون المادي ضحلا بعد ترديد النظر عليه ومعرفة أسرار تركيبه
وقوانينه الهندسية والرياضية ؟

انه لا بد عالم لا نهائي لا تدركه الأبصار والمناظير ، ولا تحلله المخاير ،
ولا تسبر آفاقه المسابير والمعايير ، ولا تدركه علوم الزمان والمكان !

وطبيعي أن هذا المجال الحيوي بهذا الوصف ، لا يمكن أن يكون
للفكر الانساني قدرة على ادراكه هنا في هذه الدار التي نعيش فيها
بالحواس وقيود المواد الثقيلة الكثيفة ، وللفكر المحدود .

ولهذا يجب أن ينصرف الفكر الانساني عن محاولة اقتحام هذه
السبحات ، ويتوجه الى المجال المحدود المؤقت الذي وضعنا فيه لندركه
هو أولا ، ونفرغ من استيعاب أسرارهِ وظواهرهِ .

وان من يريد التعمق الآن في ادراك ما وراء الطبيعة ، ولا يقنع منه
باللمحات والخطفات ، فلن يظفر بمحصول غير الشroud والخيال .

وقد برهن تاريخ الانسان على ذلك . فالأمم التي لا تزال تطلب في
هذا العصر علم اليقين بالنفس وبالله ، قبل ادراك قوانين العلم الطبيعي ،
والتي لا تزال تطلب الله عن طريق الشعر والوجدان وحده « كالهندوس »

ولا تطلبه عن طريق البحث في أرضه وهوائه ومائه ، والتطلع العلمى الى سمائه ، ولا تقص آثار يده في صنع نماذج الطبيعة ، لتعرف مقدار ما عنده من العلم والاحاطة بالجزئيات والكليات ، ولا تلخص أسرار صنعته وتختزلها في قوانين ومعادلات حسابية وجبرية ، ولا تحاكي نماذج الطبيعة ، انما هى أمم بدائية ضلت طريق تحقيق الأوطار والأشواق اليه ، جل مجده ! قليلة العلم بما عنده من أفافين تتجدد ولا تنفد ، تعرفه عن طريق العواطف والرموز ، لا عن طريق الفكر والوضوح .

ان الارادة العليا مصرة على اغلاق ما وراء الطبيعة الآن أمام فكر الانسان ، ولعلها تفتحه بعد أن يفرغ من ادراك كل ما فى الطبيعة أولا .

أما الطبيعة ذاتها ، فقد دل تاريخ العلوم على أن أبوابها تفتح لمن تركوا اتخاذ الكلام غاية وحيدة للحياة ، وعكفوا على محاربيها وموجوداتها ، يقربون النظر والفكر واليد فيها ، ثم يتكلمون بعد ذلك .

ان الكلام وسيلة لا غاية . هو قوالب لاختزان المعانى التى تنشأ من المزاوجة بين خواطر الفكر وخواص المادة . هو أوعية الحقائق المرفوعة من الأجسام الى عالم التعبير والصور والأرقام . فلا يصح أن يمتلىء بتكاذيب الأمانى ومخيلات الأحلام ، الا أن تكون تمهيدا من عالم الخيال والمثال لعالم الواقع . وكثيرا ما هدت سوانح الشعر الى حقائق العلم .

فلا يضعن أحد السدود النظرية أمام عمل الانسان فى الطبيعة مادامت هى تلبيه وتفتح له وتنتج . ولا يجوز حملة على السكون والركون الى موارث الأفكار القديمة التى تجعل الطبيعة أمام الانسان حرما مقدسا ، يجب التهب من الشروع فى تغيير شئ فيه ، أو تنقيحه بالزيادة أو النقصان .

هى وحدها الحكم الذى ترضى حكومته فيما يمكن وما يستحيل . فما دامت تفتح له الأبواب وتهتك الأستار ، فليدخل وليتوغل ، وهو موقن بأن هذا من عمله الذى خلق من أجله .. وليس ابقاء الطبيعة كما

هى بدون تغيير عبادة ، كما كان الزعم القديم ، ولكن صار تغيير الطبيعة الى الأصلح هو العبادة .

والترية الناجحة هى التى توحى للنفس ألا تتقهقر وتتضاءل وتنزوى فى نفسها أمام قوى الطبيعة ، بل تجعل من النفس قوة غازية موجبة غير سالبة ، تؤثر فى الطبيعة بالتسخير والتحويل والتنقيح .

والترية الشرقية على العموم ، لاتزال تقول قصور النفس الناشئ عن الجهل والكسل والعجز أمام الطبيعة ، بتأويلات تحمل فيها الأقدار العليا أكثر مما تحتل ، وتفر من وجه السدود والعوائق ، تحت تأثير قناعة مصطنعة ، تحكيها أخيلة طفلية ، ولا تأخذ ما فى الحياة ، وإنما يأخذها ما فى الحياة .

وكأن الشرقيين لما وجد المرء منهم نفسه ضعيف الحجم وسط هذا الكون العظيم ، استكثره على نفسه فاحتقرها بالنسبة له ، وأثار فى نفسه شكوكا فى قيمتها فنشأ عجزه ، أو قل امتد عجز آباءه القدماء اليه فاضطربت حياته ، وصار رهين الأرض وأمراضها .

وقد كان الاعتماد على « القوى السحرية » هو أساس العمل لتحقيق الأمانى عند الشرقيين على الأخص ؛ والآن صار الاعتماد على القوى العلمية الآلية فى الطبيعة هو أساس ذلك العمل .

وأعمال العلماء الطبيعيين قد اكتسبت من جبروت الطبيعة شيئا من الهول والاجتياح والاتساع ؛ فمدافع « كروب » الثقيلة البعيدة المرمى والقنابل النووية الشديدة الانفجار ، والقنابل الطائرة البعيدة المدى والصواريخ الموجهة الجبارة عابرة القارات والقلاع الطائرة والمناطيد ، والخزانات العظيمة ، والمحيطات الكبرى لتوليد الكهرباء ، والمصانع ، والاذاعة المثبوتة باللاسلكى ، وتعبيد الطرق العظيمة كطريق (نيويورك — ميامى) مثلا أو اكسبريس الشرق ، وغير أولئك .. كلها أعمال عظيمة تمتاز بطابع الاتساع والهول والأثر الجبار .

فماذا ينتظر الفكر الانسانى بعد فراغه من هذا التسلط ؟ وما هى

النتائج ؟ وأين مصابه التى يصب فيها تياراته وفيض عبقرياته ؟ أهى المغالبة والمنافسة والشهوة على الأساليب التقليدية الجاهلية ؟ ان هذه النتائج لا تتلاءم مع عالم فكره العالى ، ولا يصح أن تكون أهدافا لهذه الصرامة وهذا الجد العظيم الذى تسير به الحياة وقوانينها فى خدمته .. وان المغالبة والشهوة بأساليبها المعروفة الوضيعة ، ينبغى أن تكون غير ذات خطر عنده بعد أن عرف آفاقا جديدة لشهوات رفيعة ، وهى تحقيق أحلامه فى الكشف العلمية والانطلاق السريع الى عالم الفضاء الكونى والسبح والسبق فيه وازالة الحواجز والسيطرة على القوى الآلية ، وغير هذا من طلائع مجدة وملكوته المرتقب !

فلنبداً عصر يقظة لحياتنا الممتازة ، واحساس بقدرتنا الفائقة على الأعمال العظيمة . وليكن ديننا هو حيرتنا ودهشتنا : كيف خلقنا ؟ وكيف اقتدرنا ؟ وكيف نعلم ؟ وكيف نعمل ؟

والراحة الدائمة هى فى أن ندفع بأجسامنا وأفكارنا الى رحاب الطبيعة مفكرين فيها باحثين عاملين ... وبأرواحنا بين يدي ربها متعرفين اليه صابرين على الدهشة والحيرة والايمان بالغيب حتى يأتينا اليقين فى الآفاق وفى الأنفس . ولا بد وراء ذلك من تأويل ويقين !

قد تطير الطير فى أجواز الفضاء وهى فى ذهول ..
وقد يسبح الحوت فى جوف العباب وهو فى ذهول ..
وقد تدرج الوحش والأنعام والبهائم على أديم الأرض وهن فى ذهول ..

ولكن ابن الانسان ينبغى له أن يتساءل دائما : كيف أحيا ؟ ! كيف أفكر ؟ ! كيف أدرج ؟ ! كيف أسبح ؟ ! كيف أطير ؟ ! ثم كيف أريد وأقتدر ؟ !

وينبغى له ألا يفغل عن ترديد هذه الأسئلة :

ما الذى أخرج الانسان من ركام الموت والجمود ومختلط القوى
العمياء التى يزخر بها الكون ؟

وما الذى وضع فكر الانسان واختياره وسط الدورات الجبرية
التي تتداول الأرض ؟

وما الذى هبأ له مهاده الوثير المريح المستقر وسط النيران والصخور
وتدافع القوى العمياء ؟

ان رحلة واحدة فى جوف الماء الزاخر ، أو الهواء الدافع ، أو النار
الموارة ، أو التراب الثقيل الفادح المتراكم . . كافية أن تشير لنا الى
موضعنا وخصوصياتنا فى الكون ، والى رعاية من أخرجنا وسط هذه
الأنهوال والقوى العارمة المجنونة ، فى مهاد من رحمته ، بين عوامل
جبروته وسطوته ا

نضجت الثمار.. وآن القطاف

آلهة وحيوانات - عمل الطبيعة في تكوين الانسان
الواحد - عصر الفوران والغليان - مدنية خالدة ذات
سلطان عجيب شامل - جثنا لنحيا لانبوت - الحياة
بالفكر في المجامل والمعامل

اذا جردنا الانسان مما أسبغته عليه الحياة المدنية من أفانيها وأنواعها وأشكالها ، ظهر لنا أن البون بعيد جدا بين الانسان الذى اخرجته الطبيعة ، وهذا الانسان الذى غيرته الصناعة وتعقيد الفكر ، وظهر لنا أن حياته الصناعية عالم مستقل منفصل خلقه هو . ولكنه عالم غير خالد ولا متوالد الا باطراد تقدم الانسان . بخلاف مخلوقات الله في الطبيعة فانها أبدية دائمة تعمر بها الطبيعة .

وكلما فكرت في الفرق العظيم بين حياة رجل على الفطرة ، وبين حياة رجل ألماني أو أمريكي أو فرنسي أو انجليزى ، وعقدت موازنة بينهما في المأكل والملبس والملهى والمركب والعمل والانتاج والفكر والاحاطة بأفاق الدنيا ، والتسلط على الطبيعة ، ظهر لى أن الأول يكاد يكون في صفوف نوع آخر غير الانسان ، وأن الثانى ينقصه الروح والعدل والايمان ليكون الانسان المنشود البار بوصايا الله ؛ لأنه هو الذى أحسن الأخذ عنه ، وخلفه في الماديات خلافة واسعة ، ونمت على يده الحياة وتنوعت ، وتشققت مجاريها وتوسعت .

ولا يجوز عقلا أو شرعا أن يعطى الأول كرامة الحياة وعزتها ، وأن يتسلط على الثانى ، ما دام كل منهما على حالته . كما لا يجوز لحيوان أن يسخر انسانا .

وكلما استعرضت معارف الانسان المدنى المدونة في كتبه وصحفه وألواحه وأرضه وآثاره ، أدركت مبلغ ما حمله من أمانات الحياة ، وأسرار الدنيا .

ولا شك أن الانسان المدنى العادى الذى يقرأ صحيفة يومية ، يحمل ذهنه من قضايا للعالم وأخباره فى الصباح والمساء ، ما لم يكن فى حسابان أحد من السابقين ووجدانه ..

ولا شك كذلك أن هذا قد ترك أثره الواسع الشامل فى تكوين ذهن الانسان الحالى ، وتكليف أعصابه واحساسه بالحياة على غير ما كان عليه الناس فى زمن المواصلات والثقافات المحدودة .

فالأقدار تصنع عقل الانسان الحديث وقلبه صناعة تشترك فيها كل معارف الحياة العصرية .

ومن الأعمال العظيمة التى تقوم بها الحياة الآن ، عملها فى تكوين الانسان الواحد الخاضع لمؤثرات واحدة . ونحن الذين يقع علينا تأثير أعمالها العظيمة ، ونعيش فى غيبوبة عن خطواتها بنا ، لا يدرك منا هذا التأثير الا الراصدون المسجلون الذين تجعلهم الأقدار مخصصين لرصد خطوات الحياة وتسجيل ظواهرها . وهؤلاء يكادون يكونون ناديين عن حبال الشبكة التى تلف غيرهم من أبناء الحياة .

لقد تركزت المعلومات ، فصارت القارات كالقرى ، وملايين الجنود كأصابع اليد ، والسيارات والمركبات كالنعال ، والطائرات كالعصافير ، وأخبار العالم الانسانى كله كأخبار الحى الواحد .. ١

وهكذا تتركز الحياة وتتلخص فى فكر الانسان ، وتختزل صورها العظيمة فى أرقام وحروف .



وهذا العصر جدير أن يسمى « عصر الفوران والغليان » — على سبيل التشبيه بسطح ماء فى وعاء على نار — فقد لبث سطح الحياة ساكنا فى عصورها السائفة ، لا يتحرك الا حركات موضعية ، كما يلبث سطح الماء أول ما يوقد عليه فى النار . حتى اذا وصلت حرارته الى درجة الغليان ، هدر وفار واشتد وقذف وتبخر وتحول ..

ان عوامل الحرارة كانت تحته من قديم ، ولكنها لم تصل معه الى درجة النضوج والحركة السريعة والتحويل الا أخيرا . وكذلك عصر الانسانية الحالي ، هو عصر ظهور كوامن أسرارها وأسرار الطبيعة ظهورا شديدا متلاحقا .

وقد انكشفت حيوات جميع الناس للناس ، فعلموا أنواعهم ولغاتهم وأديانهم ومذاهبهم في الحياة .

وقد كانوا ضائعين مغمورين تائهين كأسرة مفرقة ، فرقها حادث ، ثم جمعتهم الظروف مرة ثانية .

انى أتخيل صورة الدنيا في عقول ساكنيها الأولين ، وصورتها الآن في عقول بنيها المثقفين ، فيصينى دهش مشوب بفرح وبهجة وشكر لله على تسديده الانسان الى غاية ابتدأت وجوها تنكشف .

وكان الأنبياء والحكماء القدماء وحدهم هم المدركون وجهات الحياة . وكانوا في الناس ما يكون البصير بين عميان ، والأب الكبير بين صبيان ، والراعى بين قطعان . وكان قليل من الناس هم الذين يدركون ما يشيرون اليه . ولكن الآن صار العلم والدين والادراك الصحيح شيئا مشاعا كالهواء والماء ، تقاربت فيه المعتقدات والآراء .



أجل ، هذا زمن حصاد جهود الانسانية ؛ فقد نضرت الأزهار وأدركت الثمار ، وظهر الحقل مستوى السوق مستغلظ الأعواد ، قد أينعت فيه علب الأسرار وحان قطافها !!

انظر في بقاع الأرض جميعها ، تجد انسانية تفتح عيونها وتستيقظ من غفلاتها لتدرك الحياة الحديثة ، وتشارك فيها وتتلاقى مع غيرها في خدمتها . وقد زال الابهام والغموض اللذان كانت عقول الانسانية القديمة والمتوسطة تراهما في ظواهر الحياة ، وصار الانسان معتمدا على نفسه وحسابها الدقيق وأخذها بأساليب الطبيعة في الانتاج والاختراع ، وترك الاعتماد على الأمانى ، فضاقت دائرة الاعتماد على الأقدار وحدها .

ولتلفت الى الماضى كثيرا ، لنذكر مدي ما كسبناه وحصلناه كانسانية واحدة من محصولات الحياة التى وضع كل شعب وكل حضارة لبنة فى بنائها ، حتى خرجت هذه الحضارة العالمية المشتركة التى اقتحمت كل قطر وكل مدينة فى الأرض ، وصارت من قدر الله الذى لا مرد له ولا مفر منه . انها حضارة باقية خالدة ، لن تبيد ولن تفنى ولن ترتد ! اذ أن بذورها ألقيت فى كل مكان ونبتت فيه . فلئن ذهبت أوربا الى الخراب والدمار ، لسوف تبقى أمريكا .. ولئن ذهبتا معا ، لسوف يحمل المشعل أمم الشرق وتلك الأمم المنشورة فى القارات وجزر المحيطات ، وغيرهم ممن اقتنعوا بأن هذه المدنية هى نبوة الطبيعة ذات المعجزات الدائمة ، التى لا مفر من الايمان بها والعمل لها ، وأن هذا العصر هو أوان حصاد الغلال وجنى القطف التى زرعها وتعهدها الأقدمون ، وزادت كل أمة فى ميراثها حتى صار فيها من كل قطر ورد ، ومن كل أمة مدد ورفد .

ان هذه مدنية فرضت نفسها فرضا على الناس جميعا : فرضت آلامها وشروها ، كما فرضت اسعادها وخيراتها وعلومها ، وصار الناس لا يستطيعون منها فرارا ، بعد ما دخلت عليهم أقطارهم قسرا واقتدارا .. هى قدر لازم لا فكاك منه كأنها الرياح والأمطار والأشعة ..

ومما يؤكد أنها خالدة مؤبدة ، انتشارها فى كل مكان وأنها ليست كالمدينيات السالفة الموضعية ذات العصبية القومية ؛ لأنها قامت على العلم الذى لا تتناقض حقائقه بتعدد الأماكن والأجناس ، بل تتلاءم وتتوافق بتوافق قوانين الطبيعة الواحدة .

وكانت المدينيات السابقة تجارب وجذورا متشعبة لجذع شجرة عظيمة هى هذه المدنية الحالية .

ولم يحدث فى الماضى أن صبغت مدنية الناس جميعا كما فعلت هذه المدنية ، فخفض لها الموحد والوثنى ، والملحد والمؤمن ، والزنجى والاسكىمى ، والشرقى والغربى .

ولم يحدث أن وجدت ميادين كثيرة مشتركة بين الناس جميعا كما

وجدت ميادين الاشتراك العلمى والآلى والصناعى والسياسى والأدبى فى رحاب هذه المدنية .

ولم يحدث أن اشتبكت مصالح الناس جميعا كما اشتبكت الآن بفعل السرعة ، وسهولة الانتقال ، وتبادل المنافع ، وتشعب الاحتياجات . ولم يحدث أن درست ثقافة واحدة فى مدارس الأمم جميعها كما درست هذه الثقافة العصرية .

فأى مكان نجا من سلطان مدنية الزمان ؟

أى طريق لم تجس خلاله السيارة ؟ وأى جو لم تخفق فيه الطائرة ؟ وأى بلد لم يستصبح بنور الكهرباء ؟ وأى قطر لم يعرف ما عند غيره ؟

ان هذه المدنية تحيط بالانسان فى كل أفق من آفاق حياته . وانى أستعرض الآن كل ما يحيط بى وأنا أكتب ، فأجد جميع ما تقع عليه عيني قد اشتركت فيه آلاف العمليات الانسانية المعقدة ، وقد صار احساسى بها كاحساسى بضرورات حياتى . وأكاد لا أرى شيئا من يد الطبيعة وحدها الا جسمى ... وحتى هو لم يسلم من هندسة الخلاق و « رتوشه » !

ويمكنك أن تجرد الأرض مما فعله الانسان فيها ، وما عقده وركبه ، لتدرك مدى الحياة الأرضية من غيره ، ومدى العالم الذى أحدثه هو ... واذا ألقيت نظرة على شارع فى نيويورك أو لندن أو القاهرة ، يروعك أن ترى ما فى مخازنه ومناظره ، وآثار الأيدي التى عملت فيه ، حتى لا تستطيع بعض الأذهان أن تتخيل الدنيا خالية منه ، من طول الألفة وطول الغفلة عن التفكير فى مبادئ الحياة ..

طوفوا فى شوارعكم أيها الناس بقلب ذاكر للطبيعة ، مدرك لمبادئها لتعرفوا مقدار ما بينكم وبينها ، ومقدار قوتكم الابتداعية ، فتتلفتوا لأنفسكم متعجبين محترمين محافظين عليها وعلى قواها الفكرية والانتاجية من الضياع والذهول والغفلات !

ان أفراح الحياة تغمر قلبى حين أطوف بجسمى فى المدن العظيمة ، أو حين تطوف بى الحياة فى دور السينما ، فأرى عجائب ما استحدثته الانسان فى عوالم المواد والمعانى .

ولست أزهد في رؤية الحياة المادية وتقصى دقائقها ، لأن كل دقيقة
منها ترسل في قلبي طاقة من التعجب والايمان ..

ما جئنا للحياة لنموت ونستحضر فلسفة الموت من أول يوم ! والقبر
ليس نهاية ، وانما هو بداية مرحلة تالية ... فعلى الذين يجعلون القبور
نصب أعينهم فيهنونوا من أجلها كل عظيم ، ولو كان الصحة أو العلم
أو التفاؤل ، أن يعلموا أنهم جاءوا ليحيوا ويحسوا الحياة عميقة فيما خلق
الله من شيء ، وينتفعوا بالطيبات والزينات التي أخرج الله لعباده .

ومن الكفر أن نترك الأجسام فريسة للآفات وعوامل الشؤم ،
انتظارا للموت الأكبر .. فيدب فيها منذ ولادتها ..

كذلك يجب أن يكون ايمان الرجل المتمدن ، ايمان البصير الواقف
بأن عمل النفس البشرية في المادة ومتاعها بها مع تذكر الله تعالى ، باب الى
الايمان لا الكفر كما يتوهم الأغبياء البلاء الأغرار !

انى لا أعيش في نفسى وحدها ، ولكنى أعيش في نفوس بنى الدنيا
جميعا ، لأرى الحياة بعيونهم من آفاتهم ، حتى أخرج من الدنيا ومعى
كثير من أسرار الحياة في القلوب والعقول .

وأنصح لأصحاب الايمان التقليدى أن يستحدثوا في قلوبهم ونظراتهم
ما استحدث ، ليعرفوا أى لذة وأى ايمان مضاعف يغمر قلوبهم .

وأنصح لأصحاب النظرة المادية والذهول عن المعانى ، أن يستحضروا
أرواحهم وراء كل نظرة وكل عمل وكل علم ... فان هذا هو الوضع
الحقيقى لحياة الفكر ، والاستخدام المعقول للروح وقوى الجسم .

لنعش بأفكارنا وأرواحنا دائما ، سواء أكنّا في غابات خط الاستواء ،
حيث الطبيعة بكر غير مفضوضة ، لم يطمشها انس ولا جان .. أم في مصانع
روسيا وأمريكا وأوربا ، حيث يدور الفكر مع الحديد في ضجة وتعقيد
وقدرة !

الضمير ووصايته على الحياة

حارس الحدود - لاقدسية لمقدس الامم - هو الباكورة
الاول - لا تتمجلوا الحلقة الاخيرة - البوصلة الهادية
الى القطب الاعظم - المجرى الخفى للحضارة - مقدمات
الضمير العالمى - بركة من حرب كثيرة اللعنات - حديث
الانسانية عن نبأ عظيم - لكن ابناء الحاضر - بين
الحضارة والثقافة - قلوب قرود فى جلود بشر - فرار
الى العاصم .

كل مذاهب البر ، وحدود العدالة ، ومرافق الرحمة ، ومواضعات
الفضيلة فى المجتمعات الانسانية الراقية والمنحطة ، انما هى آثار من آثار
الضمير الانسانى : ذلك النبع العميق الذى يستمد من فيوض الله المقيم
الجبال أوتادا ، والصفاف سدودا للمياه أن تطغى وتملأ الأرض بدون
نظام موزون ، والجاعل بين المواد والقوى العمياء حدودا لحفظ الحياة ،
ونسق الجمال .

وقد جعل للحياة الانسانية الاجتماعية حدودا كذلك بحراسة الضمير
وكل شئ مقدس يتحول الى عمل حقير مجرم ، اذا لم يصحبه الضمير
والاحساس بالعدالة والحق ، كالاحساس بالنفس .

خذ مثلا : تشريح جثث الانسان فى الموت المشتبه فيه ، أو فى حالة
المرضى من الفقراء ، أو للتعليم : يحوله الأطباء الذين لا ضمير لهم ولا حس
بالجماعة عندهم الى جزارة واهدار لجسم الانسان وكرامته فى سبيل
التمرين ، حتى لتجد الجماعم البشرية فى المزابل ، والمخ الانسانى فى
المراحيض مع أن العمل نفسه من أنفع الأعمال .

وخذ مثلا ثانيا : دراسة القانون للدفاع عن الحق ، ومعرفة الواجب ،
تحولت فى أيدي المرتزقة من المحامين الى مؤاجرة لطمس معالم الحق ،
وتضليل القضاء عنه ، والباسه بالباطل ، وايقاع من لا حيلة لهم ولا قدرة
على الدفاع عن أنفسهم أو عن الحق .

وخذ مثلاً ثالثاً : مهنة التعليم : هى فى أصلها وصاية على الناشئين والجهال ، وارشاد من يجهلون العلوم والحقائق . ولكنها قد تحولت فى كثير من الأحوال الى مجرد عمل آلى لملء حافظة التلاميذ بالأرقام والحروف تحت سيطرة آلية ، واهدار للأخلاق والشخصيات .

وخذ مثلاً رابعاً : الجنديّة : انها أسمى مراتب المروءة وخدمة الحياة ، اذ هى جود بالنفس فى سبيل الحرمات والمقدسات . ولكنها قد تحولت الى وحشية حين فقد القلب نبل الفروسية ورحمة الأقوياء .

وخذ مثلاً خامساً : حياة التدين : انها فى الأصل فيض ذاتى بين ضمير الانسان وضمير الوجود ، فاذا بها تتحول الى ألفاظ جافة واجازات ومنافسات ومناقشات وارتزاقات ووظائف ومناصب مدرسية .. دينوية .. وهكذا لو رحت تتقصى سائر أعمال الانسان المقدسة الكبرى ، تجدها قد خلت فى الأمم الضالة من خفقات الروح ومصاحبة الاحساس الانسانى العالى ، يفعلها الفرد وهو كآلة من الآلات !

ولئن زعموا أن أصل الانسان وحشى منحط بغير ضمير ، وأن هذا الضمير تاريخه حديث فى حياته ، وأنه نشأ من ضغط الحوادث المؤلمة عليه ، ومن تفاديه ما ثبت أن به مضرة له بعد ارتضاء حياة الجماعة .. فمن الذى جعل فى أخلاقه تلك القابلية وفى أعصابه تلك المرونة التى تتأثر بتلك الحوادث والأخلاق الضارة والنافعة وهواجس الخير والشر ، حتى لتكاد تلك القابلية تكون ميزاناً لا يتغير ولا يتبدل فى جميع الأمم الحية الا بعض أمم تعيش على هامش الحضارة ؟

فميزة الانسان على غيره هى هذه القابلية فى أعصابه ، والمرونة فى طبيعته . وليكن مكافئه من الأحياء قبل نشوء تلك القابلية ما يكون من الانحطاط والوحشية ، فلن يضير النخلة الفارعة المثمرة الجميلة أن يكون أصلها نواة ضئيلة محدودة ، وأن يكون البعد بين جذرها القبيح وتاجها الجميل بعداً بالغا ، فان كل كائن حى أرضى لا بد له من أصل منحط فى الطين ، ثم يبلغ أوج حياته بعد حين .

ويتأكد عندى يوما بعد يوم أن الانسان لم يبلغ بعد درجة نضجه النهائية ، وأن كل حقبة من حقبة التاريخ تظهر جانبا خفيا من طبيعته ، وأن « القطفة » الأخيرة من ثماره لا بد أن تكون هى التى تحمل جميع الأسرار التى أرادها فيه خالق الأنواع ! فمن الانصاف ألا تحكم عليه حكما نهائيا قبل أن يبلغ مبلغه الأخير ، وألا تفقد الأمل فيه ما دام طريق ترقيه مفتوحا أمامه ، وما دامت الطبيعة تفتح صدرها له .

أجل ، انه قانون طبيعى لم تتم دورته لينتج نتائجه النهائية . وان الباكورة الأولى من ثمراته انما كانت تلك الحساسية الدقيقة التى أطلقنا عليها اسم « الضمير » وهى حساسية صادقة مرهفة تتأثر بعوامل نمو الحياة ، وتتفتح لها وتركن اليها وتحبها وتحتنى بها ، وتستكثر منها وتسميها « خيرا » ، وتتأثر بعوامل الدمار والألم والفناء وتنقبض عنها وتفر منها وتدفعها وتسميها « شرا » .

ولا شك أن الذى وجه الأنواع كلها الى طرق حيواتها المختلفة ، لا يجوز أن يكون قد وجه حياة الانسان الى غير طريقها . فغير معقول أن يستثنى الانسان وحده من بين الكائنات الأرضية ، ويدفعه فى طريق خطأ غير طريق حياة قدرها له ، فما عهدنا فى الطبيعة عبثا أو استثناء من قواعدها العامة الى هذا الحد ! وفيماذا يكون الاستثناء ؟ فى الانسان : الابن البكر للأرض !

لا شك اذا أن الضمير كان هو المجرى الخفى لحياة الانسانية ، وأنه ميزان حياتها ، وأنه « ابرة البوصلة » تهديها الى طريقها المقدر لها ، وتوجه بها الى قطب الكون الأعظم !

وما وقع لى مرة أن أغفل الحق فى غمرة من غمرات الضعف البشرى الا وجدت له رهبة تزلزل قدمى وتطمس النور فى عيني ! فالحق يقظ جدا . أو قل ان الضمير متيقظ لحراسته جدا .

وأنت اذا تصديت للدفاع عنه ، ثم استعملت فى سبيل ذلك الدفاع شيئا من الباطل ، شعرت - اذا كنت ذا ضمير - شعورا صاعقا ، أن

ذلك الحق الذى تدافع عنه بالباطل ، انقلب فى عقلك الباطن ووعيك
الظاهر ، الى سلاح مهاجم لك يقول : لا ! لا ! طريقى ليست من هنا ..
لقد ضللت وأضللت بى .. ارجع !



ومهما يكن من شئ ، فهل أضر نشوء الضمير حياة الانسان
أو نفعها ؟ هل كان من الممكن أن تنشأ تلك الحياة الاجتماعية السامية
المعقدة العظيمة فى غير ظلاله ؟ وهل قامت حضارة من الحضارات العظيمة
التي أثرت فى تقدم الانسانية بغير سلطانه ؟ وهل من الممكن أن يحل شئ
آخر محله فى الوصاية على الحضارة والثقافة والحقوق والواجبات ؟ هل
تستطيع حضارتنا هذه على قوتها وعظمتها وتعدد أفانيتها أن تتحرر
من سلطانه وما نشأ فى أحضانه من أخلاق ، ثم تحيا بعد ذلك وتستمر
فى نمو وازدهار ؟

ان حدود الخير والشر التى ندين بها ، وصورهما التى نعرف ، انما هى
نتائج « عملية » تمت فى خفاء فى باطن النفوس الانسانية ، فعزلت طائفة
من الأخلاق والأفعال واعترفت بها ورضيتها وأسماها « الخير » أو « البر »
أو « المعروف » ، وعزلت طائفة أخرى منها أنكرتها وكرهتها وأسماها
« الشر » أو « الاثم » أو « المنكر » . ولن تجد أمة ولو كانت متوحشة
تنكر بفطرتها أصول الخير والبر التى رضيتها حضارتنا وتتألم منها ولا
تستجيب لها ، وترضى أصول الشر وتسربل بها وتستجيب لها بفطرتها .

نعم قد تنكر الخير والبر فى خارج دأثرتها الخاصة وتأبى فعله مع
غيرها من الأمم ، وترى من الخير لذاتها والبر بها أن تفعل الشر مع الأمم
الأجنبية عنها ، ولا تشعر بوحدة الضمير بينها وبين سواها .. ولكن هذا

لا يكون الا فى تلك الجماعات الصغيرة التى لا تزال تعيش على هامش
الحضارة ، ولا تزال متخلفة تخلفا كبيرا عن سير الحياة بالأمم العظيمة .
على أن هذه الظاهرة ان وجدت فى المتوحشين ، فيخيل الى أنها
سرعان ما تزول منهم ان نشأ ناشئوهم فى أحضان مذاهبنا الخلقية

وحضارتنا وثقافتنا . فليس انكارهم للخير العام طبعاً أصيلاً في نفوسهم لا يتخلون عنه . وقد مرت جميع الأمم بذلك الدور حين كانت الفردية طابع الحياة الانسانية . ثم تحولت الفردية والانانية الى غيرية واشار في نطاق الأسرة ثم في القبيلة ثم في الجماعة ثم في الأمة ثم في الامبراطوريات واتحاد الولايات . واذا اطردت النتائج مع مقدماتها ، فستنشئ معارك هذه الحروب ضميراً عالمياً أوسع وأرهف ، بعد أن وجدت مقدماته من وحدة الثقافة العلمية والفكرية والفنية أو تقاربها في الأمم ، ومن اختزال الأبعاد والمسافات بين بقاع الأرض ، حتى صارت أمريكا بعالمها الجديد النائي جارة للعالم القديم ، ومن اهتمام الكثرة الغالبة بقضايا الانسانية واحاطتهم بتفصيلات حيوات الشعوب والأجناس ، ومن اختلاط الناس في نطاق واسع ، واشتباك مصالحهم اشتباكاً ليس منه فكاك .

وانى كلما رأيت تلك « التشكيكية » العجيبة التي حشدتها بريطانيا في جيوشها بمصر ، من زنوج افريقية وهنود آسيا وصفرها وبيضاها ، ومن جنود أسكتلندا وازلندا وكندا وجنوب افريقية ، مضافا اليهم تلك التشكيكية الأمريكية وسائر الأحلاف .. أشعر شعوراً ساراً متفائلاً ، خصوصا اذا رأيت الجنود الزنوج والماورى وغيرهم من الأمم التي تعيش على الفطرة الى الآن ، يرتدون ملابس الجند الانجليز والأمريكان ، ويتحدثون حديثهم ، ويخضعون للنظم العسكرية خضوعهم ، ويمهرون مهارتهم في قيادة الطائرات والسيارات وسائر الآلات الدقيقة ، وقد خرجوا من أدغالهم وأكواخهم وصحاريهم وكهوفهم الى العالم المتحضر ينظرون ويدركون ما يدرك اخوانهم السابقون في العلم والمدنية ، ويشاركون « الرجل الأبيض » أهدافه ويحاولون اللحاق به .

وان عملية الخلط والمزج هذه التي تجريها هذه الظروف بين شعوب الأرض جميعا ، هي لا شك من بركات هذه الحرب الكثيرة اللعنات ... وما كان لعامل آخر في ظل التدرج والتطور أن يفعلها ، ما دامت هناك نزعات استعمارية ووصاية جائرة جشعة خائنة من الشعوب السابقة على الشعوب المتخلفة .

وأحسب أن هؤلاء الجنود الملونين المتخلفة أمهم ، لن يرضوا بعد عودتهم الى ديارهم أن يعيشوا عيشهم قبل الحرب ، بل لا بد أن يعلوا مستواهم ومستوى أمتهم تبعاً لهم ، ولا بد كذلك أن يزول منهم كثير من روح سوء الظن وقبح الثقة بغيرهم من الأمم بعد مخالطتهم اياهم وامتزاج دمائهم في سبيل غاية واحدة .



هذه الانسانية تتحدث الآن جميعها عن نبأ عظيم واحد : هو المثل العليا المرجوة لحياة الناس بعد هذه الحرب ، وقضايا الحق والعدل ، بعد أن أصابها جميعاً طائف من آلام الحرب وفظائعها ، وقبح آثارها . ولا بد أن يتسع ضميرها ويجنح من القومية الضيقة والأناية العاشمة ، الى نزعات انسانية شاملة سامية ، يتجرد فيها الحق والعدل من العنعنات والنعرات الجنسية التي طالما تقسسته وتوزعته ، وخلعت عليه من ضيقها وسفها ما جعله حقاً لدى قوم وباطلاً لدى آخرين ، وما جعله يوماً شرقياً وآخر غربياً . مما أورث كثيرين من المفكرين شكاً في وجود الحق وريبة في تحقق العدالة بمعناها الجليل الجميل المرسوم في الصحف الماثورة وفي الفكر المثالي .

واذا تجرد الحق والعدل من النعرات والتعصبات ، ووضعاً في نصابها المثالي أمام الانسانية جميعها أبيضها وأسودها وأحمرها وأصفرها ، وطبقت آثارها عليها في حراسة الضمير بدون تحيز وتمييز ، فقد وصلت الانسانية حينئذ لفردوسها المؤقت المنشود ، وتفرغت لما يجب أن تتفرغ له وحده ، وهو فتح مجاهيل الطبيعة وكشف أسرارها ، وتسخير قواها لتقليل المشقة وزيادة المنفعة .

غير أن الناس لسوء ظنهم بأنفسهم ، ولقبح رأيهم في الانسانية ، وانعدام أملهم في سمو مستقبلها ، لا يحاولون أن يأخذوا أحداث هذه الحرب وظواهرها أخذ دراسة وتمعن واتعاظ بعبرها ، بل يحسبونها طبيعة من طبائع الحياة لا يمكن أن تتخلى عنها الانسانية . ولذلك لا تحتاج لديهم الى تفكر وتدبر مخلصين للنجاة من أهوالها بقطع دابر أسبابها .

وسوء ظنهم بأنفسهم ، وقبح رأيهم في الانسانية أثران من آثار الماضي الجاهلى الذى كان فيه الضمير الانسانى ضيقا ، والتفكير البشرى محدود الأفق ، والخلق رهين الغرائز المنحطة ، والجهد عاجزا قاصرا عن ادراك العلوم والأعمال الكثيرة البركات والمخففة للمشقات .

ولذلك تمنيت ولا أزال أتمنى ان تتحرر من التاريخ ، وان نكون ابناء الحاضر العظيم الذى سما فيه فكرنا وجهدنا ، وانكشفت لنا فيه من الطبيعة أكثر الوجوه التى كانت مستورة غامضة ، وأدركنا اطراف جسم امنا الأرض ، وأنواع مواليدها من الجمام والحيوان والنبات ادراكا بالمقاييس الدقيقة والمعايير العلمية التى وزنت دقائق صنع الله وأبرزتها لنا واضحة جلية .

والواقع أن الدنيا برغم كثرة المتعلمين والمتحضرين فيها ، لا تزال مجتمعاتها مسيرة بآراء غير آراء المفكرين والعلماء المدركين لحتائق الحياة والباذلين جهودهم لتذليل العقبات وجلب المنافع . والذين يسكون دفة المجتمعات ويديرونها ، هم الذين كان أمثالهم يسيطرون عليها فى القديم ، وأكثرهم من السماسرة والدجالين ومجبنى الجاه والمناصب للسيادة والخيلاء والانتفاع الشخصى واللعب بالشعوب وشفاء الحزازات والأحقاد .

ولا تزال خمائر الماضي تبث جرائم الفساد فى الحاضر ، فيبنى الجديد بانقاض القديم . وقد تتغير الصور والأشكال ولكن الجوهر باق كما هو . وقد حسب الناس أنهم ماداموا قد لبسوا لبس المتحضرين ومشوا برشاقتهم وحركاتهم ، واصطنعوا أدواتهم فى الزينة والرياش وطرق الأحاديث ، فقد تغيرت الدنيا وصاروا فى مدنية القرن العشرين ، بينما قلوبهم وغرائزهم على ما كانت عليه قلوب قوم « نوح » وغرائزهم .

وينبغى أن نفرق بين الحضارة والثقافة : فالحضارة هى العيشة الجسمية فى الحضر ، وهى تكسب الأشخاص رقة ورشاقة وخبرة بمواضعات الناس الاجتماعية وزينهم وحركاتهم ، ولكنها لا تكسبهم ثقافة عقلية خلقية عميقة تتصل بأصول الحياة والآراء والمذاهب والعقائد والأفكار

والأخلاق والمعلومات التى يقوم عليها بناء حياة صحيحة . أما الثقافة فهى العيشة العقلية والقلبية بالمعلومات الرشيدة ، قديمة أو جديدة وبالأفكار والآراء الصالحة .

ومع الأسف لا يزال المتحكمون فى الشعوب أكثرهم متحضرون غير مثقفين : يدركون صور الحضارة وقشورها ، ولا يدركون جوهرها ولبابها ، ولا يحسون حاجات الزمن ، ولا يعيشون فى قمة الفكر والعلم ، بل لا يرونها ؛ اذ ليس لديهم أدوات النظر .

فمن أين لهؤلاء الحاكمين أن يسيروا بمن تحت حكمهم من الشعوب الى اهداف الانسانية العليا وغاياتها المشتركة ، وأن يفقهوا لغة الحوادث ويسمعوا نداء الزمان ، ويروا تلك الخطوات المطردة التى تخطوها الانسانية فى طريقها الى غايتها المجهولة ؟ ومن أين لهم أن يقبلوا ضمائر الشعوب الضيقة الأنانية الى ضمائر انسانية عالمية تمهد لحياة السلام والاستقرار الدائم ؟

ان الأمل الوحيد هو فى المربين الذين يتولون الناشئين فى جميع الشعوب . وواجبهم أن يوقفوا ضمير كل ناشئ ، ويوسعوا مجراه حتى يشعر بمعنى الانسانية الحقيقية ، فلا تكون حياته المدنية طلاء ودهانا فوق جلدة قرد وحشى !

وحسب الحياة ما لقيته من كيد هؤلاء الذين لهم مسالينخ الآدميين وقلوب القروء ، وما تحملته من أنانيتهن وسفالاتهن التى شوهدت وجهها وجعلتها مأساة دائمة !

وكل يوم ، بل كل ساعة تصطدم حواس الذين لهم اخلاص الفكر والقلب بما يشوه جمال الحياة ، ويضع تحت الأضراس حجارة قاسية من الغيظ والاضطرام والألم المالحق لبشاشات النفوس وايمانها بالعدالة فى حياة المجتمع !

وما كذب الايمان بالانسانية فى قلوب هؤلاء المؤمنين ، ونبههم الى قيمتها الحقيقية ، الا رؤية هذه الطبائع المسوخة .. فما كانت الانسانية لهذه المهازل والآلام والجرائم والسفالات التى تزخر بها المجتمعات الفاسدة

التي يسيطر عليها من يأخذون الحياة كأخذ السباع والذئاب والكلاب والخنازير ، فهم لا يفهمونها الا على وجه الختل والسطو والجريمة والنباح والعواء والتهويش والانحطاط .

ولسنا نحلم بجنة في الأرض كاملة الأوصاف ، فيها ملائكة من الناس يحكمون .. ولكننا نريد بيئات تدين بمثل عليا على الأقل في الحقوق العامة - ودع عنهم الحقوق الخاصة .

فالى الضمير : ذلك المصباح الذى توقده يد الله دائما في ظلمات القوى العمياء التي تمج بها متاهات الحياة وحنايا الصدور ، ولن تستطيع أعتى الأعاصير أن تطفئه أو تخنق شعاعه - البه يجب الفرار للاعتصام من امواج هذا الظلام !

حيث الأنس بالإنسان

زال عهد الصمت والجمود - رسالة يبعثها سر
الإنسان - ضالة لا تبعث على الاستكانة - لاتبطلوا
النتائج - موارد فياضة معطلة تنتظر الصنعة ، السيد هو
إنسان الصناعة - بين قيادة البقر وقيادة الفولاذ - مضى
زمن التخريف في الله وبقي التخريف في الإنسان - بزوخ
على هوة ا سر ظهور الدين قبل العلم - أسس خفية
لحياة الاجتماع - أباطل أصلح للحياة من الحق ؟ -
مم تفجر نبع الضمير ؟ - حيث الأنس بالإنسان .

قديمًا كان كل شيء في الطبيعة صامتًا جامدًا ، أيام بدء ظهور
الإنسان ، فلم يكن يتكلم غيره هو ؛ بل كان هو أيضا أبكم محبوس اللسان
لا يتكلم الا بمقاطع ساذجة ، وأصوات وجدانية ، وكانت وجوه الطبيعة
جامدة مبهمه ، وأبوابها موصدة .

والآن صارت الأشياء متكلمة محدثة طليقة الوجوه مفضوحة الأسرار .
أنطقها الإنسان الذي علمه الله البيان ، فعلمه هو بدوره إياها ، وجرده منها
خناجر تحدته وتعيد عليه حديثه ، لتؤنسه في رحلته الى صوب مجهول .
ولقد زادت عجائب الكون بانضمام العجائب الانسانية الى العجائب
الالهية في الطبيعة ، وكان كفر الإنسان بالله ناشئًا من ذهوله عن بدائع
مخلوقاته تعالى ، وكذلك صار الآن كفر الإنسان بنفسه ناشئًا من ذهوله
عن مصنوعاته هو !

ألا ان حملة على الايمان بنفسه ، رسالة لا تحتاج الى رسل يبعثهم
سر السماء الى الأرض ، وانما تحتاج الى رسل يبعثهم سر الإنسان ووحى
أعماله في الأرض .. !

وقد ظل الله ربه يقول له وهو طفل جاهل قاصر عاجز : من هنا
الطريق .. الى الحياة والملكوت .. افعل هذا واترك هذا .. كن كذا ولا تكن
كذا .. حتى أدرك جادة الحياة الكبرى ، وبانت له تباشير المدنية المنشودة

التي كان يحلم بها ويطلبها من الرسل كمعجزات .. فأسرع إليها وغمرت
حواسه أعاجيبها ، وألهاه ذلك عن التفكير في نفسه ، فعاش في ضجة
ما يصنع كما تعيش دودة القز في الشرقة .

وقد خلق الله بينه وبين الحياة ، بعد أن ترك له وصاياه في الصحف
الأولى .

قد يقول قائل من ذوى الروح المتشائمة المعطلة : ماذا يريد ذلك
الإنسان المحدود من ضجته في الأرض ؟ ضجة حناجره ومصانعه ومدافعه
وجاراته ودباباته وطياراته وبوارجه ؟ انه ضئيل ، وإن مسرحه ضئيل :
فهو شيء صغير على سطح الأرض ، وهي ذرة سابحة مع ملايين الملايين
من النجوم والكواكب ؛ فماذا عساه أن يصنع ، حتى لو ركب الأرض
نفسها وصرف مقاليد سيرها كما يصرف مقاليد طياراته وجاراته ؟ أليس
انقضاء نهايته ونهاية ما يصنع ؟

فأقول لأمثال هذا : رويدكم .. لاتتعجلوا نتائج حياة الإنسان
ولا تشكوا أنها ستكون عظيمة أعظم مما تتصورون ، بعد أن رأيتم من
فعله مالمو رآه آباؤكم لما تواتوا عجبا !

انكم تشكون فيه لأنه لم تثبت لحياته نتائج دائمة ، وعندكم أن كل
أعماله ملاء وسلوى في شئون خاصة ، كالشئون الخاصة بأى فصيلة من
فصائل الحيوان .

كذلك قال الذين لا يعلمون من آباؤكم مثل قولكم ، اذ لم يروا
ميتا يرجع ومفقودا يؤوب .. !

ولكن الأمر في حياة الإنسان وخلوده ليس كما تتوهمون أمرا
متعجلا .. انه ثمرة لا بد من نضجها في زمن معلوم تظهر بعده نتائج خالدة ،
وأسرار مخبوءة ، لها صلة وثيقة بالكون الطبيعي نفسه ، وبالروح الأكبر
الذى وراء الطبيعة .

وما دام الإنسان لم يصل الى حدود جامدة لا وراء بعدها في الكشف
والاختراعات والوقوف على أسرار الطبيعة ، فثمت له بقاء ، ولوجوده

غايات ، هو لا يذهب من الأرض حتى يحقق جميع الغايات من خلقه .
ان كل شيء يبدو عليه انتظار تحقق تلك الغايات المجهولة المرتقبة ،
وربما يذهب من الأرض حين يستطيع أن يحول جسمه الى قوى وطاقت
تعبّر الأرض في لحظة وتوجد كما تريد باذن الله !

وسيرى الذين يذهبون الآن ، أنهم بعد الموت في دور انكشاف
وظهور ، اذ لا يعقل أن يمضى هذا « الخالق الصغير » الى الفناء المطلق .

ثم أقول : ماذا تريدون أن يفعل اذن ؟ أتريدونه ينام حالما يدخن
النارجيلة والحشيشة والأفيون كما يصنع أغلب انسانية الشرق المضيعة ؟
ام تريدونه يجلس فارغا ينتظر الموت ، وينشد الأشعار ولهو الأحاديث ؟
ان عليه أن يملأ هذه الأرض بالضجة والقوة التى يستطيع تسخيرها ،
وأن يسلط قوى نفسه الكامنة على هذه المواد الساكنة ، ويثيرها أيما
ثورة ، ليدخلها في نطاق الحركة بعد السكون والحياة بعد الركود ، ولا
عليه بعد ذلك أنه ضئيل ، فوق زورق ضئيل ، يسبح فى عيلم كبير ..

فلو نظر الانسان الى جيروت الطبيعة وهول السماء ، لاستصغر جهده
على الأرض مهما عظم ، ولم يفعل في حياته الا ضرورات احتياجاته . وبالطبع
هذا يردّه ضعيفا مستضعفا ، شقيا ، فريسة لغيره كما كان . ولكنه اذا
آمن برحابة نفسه وقوة فكره وقدرته على أن يفعل الأعاجيب ، وأنه على
ضلالة جسده ، يستطيع أن يحرك الجبل وينسفه بتسلّط قوة طبيعية
أخرى عليه ، اذن ، كان هذا أنفع وأجدى ، وكان أشرف له ، اذ يجعله
قوة من القوى العاملة في الحياة .

ان الطبيعة تغازل فكره وتثيره للعمل فيها منذ أيامه الأولى ؛ فالطفل
يبحث في محيطه ويسلط جميع حواسه على محتوياته ، فيراد ويلمسه
ويذوقه ويتسمعه ويشمه ، حتى يحيط بخواصه ويشير كوامنه ويطلقها خيرا
من تعطيلها وسجنها .

وقد وجدنا كل ما في الطبيعة من مواردها الكبرى بسيطا غير معقد ،
فياضا بكميات كبيرة جدا ، خاضعا للتعقيد والتركيب والتأليف والتوزيع

والتنوع ... فدلنا ذلك على أن هذه المواد انما وضعت هكذا هائلة فياضة ،
انتظارا لصناعة ستتناولها بها يد صناع .

وكلما رأيت غزارة الماء — وهو أصل الحياة — وكثرة المقادير التي
تصبها الأنهار في البحار فتذهب من غير انتفاع الا بجزء قليل جدا منها ،
قلت ، ان هذه الكميات الهائلة انما أفيضت لا لاختصاص السهول الحافة
بها فقط ، والتي تصل اليها مياهها في سهولة ويسر ، وانما أفيضت لاختصاص
هذه الأراضي البور من الصحارى والسهوب الظمأى العقيم .

وكلما رأيت مناجم الأرض تمتلئ بالمعادن والركاز المعطلة ، وهي
ذات النفع العظيم والامتاع الدائم ، قلت : هنا مواد ظلت الطبيعة تحفظها
في صدرها ، حتى أتى يوم بعثها على يد من عرف أسرار الانتفاع بها في
زمن نمو علوم الآليات والكهرباء .

وكلما رأيت أغلب مناطق الأرض لا تزال خالية من السكان أو غير
متشعبة بهم ، قلت : هذه مساكن احتياطية لأقوام آتئين ستلجئهم ضرورات
الزحام الى سكنها وتعميرها وتعديل مهودها واجوائها واختصاص بقاعها .

وكلما رأيت البحار السبعة وما فيها من عوالم وعناصر وموارد للطعام
والحرارة والصناعة ، قلت : هذه قدور هائلة يطبخ فيها مستقبل مجهول
لهذا المخلوق .

فهذه المقادير العظيمة من المياه والمعادن والأراضي والغابات ، ظلت
تفيض فيوضها بالكيل الواسع ، وتدور دوراتها وترجع من غير أن ينتفع
بها أحد انتفاعا يبرر غزارتها ، الى أن أتى عصر تفتتح حاجات الانسان
الصناعية والعمراية بتفتيح أسرار الطبيعة لفكره ، فاذا بهذه الموارد التي
كان يظن البعض أن فيها اسرافا وتبذيرا ، يبدو لعيون العلماء وأرباب
الصناعات والأعمال أنها موزونة متكافئة مع نمو حاجات الانسان واتساع
افتتانه .

هذه الحياة الصناعية البارة المعقدة الكاشفة عن قوة الانسان
الابتداعية النامية المنمية ، التي بها تفرد وامتيازه بين الكائنات ، وبها تغلبه

على غيره من الحيوانات ، بل وتغلب بعض أقوامه على بعض ، قد نمت نموا عظيما حتى بدت في هذه القوى الساحقة التي يستخدمها الآن في حربه .

ولا شك أن انسان الصناعة هو سيد الأرض . أما انسان الزراعة فمهما افتن فيها وهندس واجتهد ، فإن حياته حياة بدائية ، لا تعقد الفكر ولا تترك في الأعصاب أثر القوة والابتداع والسيادة . وقد صارت الزراعة الآن خاضعة الى حد كبير للصناعة ، وذات تبعية لها .

ولذلك رأينا الأمم الصناعية تسود الأمم الزراعية ، على رغم القلوب الطيبة والمثل العليا التي تشيع بين الزراعيين في العادة ، منتقلة اليهم من اعتسادهم بعد بذل جهودهم على منزل الغيث وباعث الخصب ، ومن طول معاشرتهم للنعاج الوديدة والبقر المطيعة والأنعام التي تعطى ولا تأخذ ، وتسام على الخسف ومع ذلك تجتر سعيدة حاملة ... !

وطبيعى أن يتغلب من يدرّب أطفاله على ركوب « الحيوانات » الحديدية ، وقيادة « الوحوش » الفولاذية ، على من يدرّب أطفاله على ركوب الحمير والبغال ، وقيادة الأغنام والأبقار...

وكل ما يحدثه الانسان في المواد يدل على اتساع مدى نفسه وامتداد خيالها ، وأخذها من محيط واسع عميق ، وامتياحها من ينبوع زاخر بالصور والأشكال والأنواع ، وقوة تعقيد فكرها وقدرته على احداث نسب جديد ، بين العناصر والمواد ... وهذا مالا وجود له في الزراعة .

ولكى تدرك ما أرمى اليه ، فكر في الحياة الصناعية من المسمار الصغير الى المصنع الكبير وما بينهما .

* * *

يلام الانسان على غفلته عما صنعه هو بيديه وملا الدنيا به ، كما كان ولا يزال يلام على غفلته عما خلقه الله في الطبيعة .

ولقد مضى زمن التخريف والضلال في العقيدة بالله رب الطبيعة ، لأن الحياة لا تحتمل الجهل به تعالى الى الحد السخيف الذي كانت تقبل فيه

عبادة الأصنام والأشخاص والنجوم وغيرها ، ولا تحتل أن تجرد الطبيعة منه تجريدا كالذى كان من المعطين منكرى القصد والارادة والعناية فيها ، ولفظت العقول الأديان التى تعتمد على غير العقل فى اثبات حقيقة الوجود الأولى والحقائق التى تليها ، وعشق الناس جمال الطبيعة وصدقها ، وعرفوا من أسرار الصناعة فيها ، فبقى عليهم لتكمل عقائدهم فى الحياة ، أن يتيقظوا دائما لمنشئها ومدبرها ، ويتقربوا اليه بالفكر فيه وتكريم اسمه ، كما يتقربون — على الأقل — لأساطين علمائهم الذين عرفوا من علومه جانبا ضئيلا .

ولكن ، جد تخريف وضلال فى العقيدة بالانسان ، بسبب فرض لم يثبت فى نظرية النشوء ، أطلق حوله كثيرا من الاعتقادات الفاسدة . ومقاومة هذا التخريف الأخير هى من أهم رسالات الدين فى هذا العصر .



هذا الفرض جعل كثيرا من الناس لا يريدون أن يصدقوا أن بينهم وبين الله صلة محترمة أو عناية . وكأنهم يجفلون من التكريم والاحسان اللذين يقول الدين ان الله يصطنعهما فى معاملة الانسان .

وهم يقولون ان حياة الانسان بالنسبة لله تعالى — على فرض ايمانهم به — حياة ضئيلة ، وان بينهما هوة سحيقة لا عبور لها ، وأن الحياة الانسانية على الأرض لا تقدم ولا تؤخر فى سير الناموس الأعظم الذى ينتظم الكون . فسواء على الله وعلى الكون أن يضل الانسان أو يهتدى ، أن يعف وأن يشره ... فتلك شئون خاصة به ، خاضعة لاعتبارات مجتمعه ، وسوف يفنى بأخلاقه وأعماله كما تفنى النمل والنحل وكل ما لبسته الحياة ، من غير رجعى أو مصير أكمل ..

ولكن الواقع أن ضجة الانسانية وحدها ، وتغير الأرض بها وحدها وتعقد الدنيا بها وحدها ، واطراد نمو الحياة المادية وانكشاف خصائصها بها وحدها ، وارتقاب غاية مجهولة منها وحدها ، هى أمور من الحق بحيث تشغلنا عن سواها ، وهى ذاتها البرزخ الذى نعبّر عليه تلك الهوة التى بيننا وبين الله !

وما دمنا لم نر كائننا غيرنا يعمر الأرض ويشيرها ، ويستحدث فيها
أعاجيب لم تكن ، وما دمنا نؤمن بحكمة بارئء الوجود الذى أدخلنا اليه ،
اذن : لا نستطيع أن نعتقد أنه ليس بيننا وبين الله برزخ أو صلة ، مع اننا
نرى أنفسنا كل شئء فى الأرض ..

وعند ما ينظر السطحيون لظاهر مجموع الناس ، يخيل اليهم أنه
لا صلة بين قلوبهم وأفكارهم وبين السماء ، وأنهم غير مأبوه لهم من صاحب
الوجود ... وحينئذ تنطلق الاعتقادات الفاسدة والتافهة بالحياة وتنطلق
وراءها الغرائز الخطرة ، وتوجد « طمأنينة الكفر » وينظر الانسان
للانسان على أنه شئء تافه ، يصح سلبه واستعباده وقتله .

ولكن عند ما ننظر للحياة الانسانية من داخل الأرواح والأفكار
والقلوب ، نجد النظر يخلق المنظور خلقا آخر جليلا ، ويشعر الناظر أن
عين الله راعية وصية على هذا المخلوق .

فما أعظم أثر هذا فى طمأنينة النفس حتى لو كان باطلا ! انه يرفع آمال
النفس البشرية وأفكارها حتى يجعل منطق الله خالق الطبيعة الهائلة منطقها
هى ! مع أن الهوة التى بينها وبين الله حقيقة ، اذا استسلم الانسان للحس
وحده فى عبورها لن يتمكن ! اذ يجد مكانه فى الوجود يكاد يكون
لا شئء ... اذ الأرض ذاتها لا شئء بجوار عظمة الكون ، فما بالك بالفرد
الضئيل فيها !

هذا النظر الروحى العميق يجعل للنفس ثقة واحساسا بالعظمة ، اذ
يجد به الانسان لنفسه مكانا ملحوظا فى الوجود ، حين يجد علاقته وثيقة
بصاحب الوجود مباشرة .

* * *

ومن العجائب فى ظهور حياة الانسان وتدرجها ، أن حياة الروح
والتدين فيها سبقت حياة العلوم ، فبنيت حياة التعزية والثقة على الدين
قبل العلم .

ولو سبق العلم الدين ، اذن : لكان موقف الانسان فى الحياة موقف

ابن الطريق الشريد القادر الفاجر ، الذى لم يجد أبا وأما يأخذ من حنانها
حنانا لنفسه ، ويعرف أن قلبيهما منبعان غزيران لصفات الاخلاص والرحمة
والعجب ، بل يجذ نفسه مدركا رشيدا ، ذكيا قاسيا ، على قارعة الطريق ،
تدافعه زحمته القاسية ، يعرف جرائم الحياة وجفائها ، وأخلاق الشوارع
والأسواق ، ولا يعرف روابط الأسرة ومعاملة الأخوة والبنوة ووصايا
الأمومة ، فيكون موقفه فيها موقف قاطع الطريق المسلح بالأدوات والمهارة.

* * *

علام يقوم بناء الحياة الانسانية ؟

حين أستعرض نظام مدينة أو أمة أو أمبراطورية ، فأجد ناسها يعيشون
في تفاهم وتعاطف ومبادلة منافع ، وأجد مرافقها ومبانيها وشوارعها
ومصانعها ومعاهدها تقوم في دقة وموازنة وجمال وأمانة ، كأنها من الطبيعة
الموزونة بيد الله ... أسائل نفسى :

من الذى أقام بناء هذه الحياة الانسانية في تلك الأمة أو المجموعة
على هذه الأوضاع العظيمة ؟

ومن الذى سدد جهاد أفرادها جميعا نحو غايات مشتركة وأهداف
موحدة ؟

ومن الذى أعطاها تلك الروح الاجتماعية الواحدة التى تجعلها تسلك
في أعمالها وآمالها مسلك الروح الواحد في الجسم الواحد ؟

ومن الذى هذب طباعها ورققها وجملها وصقلها وسار بها شوطا بعيدا
من عيشة الوحشية والتأبد ، الى هذه الانسية والاجتماع ؟

ومن الذى أقام هذه الأسر « والعائلات » على التراحم ، وجمع أطفالها
ورجالها على الحب ؟

انه لا شك سر النبوات التى هبطت على القلوب الكبيرة التى كانت
للانسانية في مهد نشوئها ، كالأومومة الرحيمة المضحية المربية المسددة .
ان هذا لا شك هو الأساس الأول الذى قامت عليه الحياة الاجتماعية
وذهب بناؤها مطردا في العلو والسمو ..

فجامعو المعانى الكريمة التى اكتشفت فى الطبع الانسانى هم الانبياء .
وقد صارت المعانى الاخلاقية الكلية هى اساس بناء الدول المحكمة
الوضع ، بعد أن كانت فى أول أمرها معانى شخصية فى قلوب هؤلاء الأفراد
القلائل . ونسبة المؤمنين الآن أكبر من نسبة المشركين والمعتلين وصارت
الاديان السماوية ممثلة فى أعظم أمم الأرض .

فلئن غابت الآن هذه الأسس المعنوية لحياة الاجتماع عن الأنظار
القصيرة والأفكار المشلولة ، فكما تغيب أسس الأبنية العظيمة فى باطن
الأرض ، لا ترى ولا يعرفها الا الناظرون فى الأعماق ..

ولقد مات الرعيل الأول من الآباء والأمهات ، ولكن بقى الأبناء دليلا
متجددا عليهم .



ثم نسأل : أيهما أصلح للحياة ؟ أن يعتقد الانسان أن الله به خفى ،
وأن يؤمن بالانسان فيحتفل لولادته ، ويقوم لجنازته ، ويؤثره على نفسه ،
ويتواضع له ويحترم دمه وعرضه ، ويعيش بالأخلاق التى تسمو
بالحياة الاجتماعية ، وتقلل الخلاف والشقاق ، وتنمى المدنية وتحيط
بالانسان بجو من سكينه العلم ورقة الفن ، وتسخر العلم فى خدمته وتخفيف
ويلاته ، وتضع أمامه أهدافا مرسومة ومثلا عليا ، وفلسفة يطرد بها الوفاق ؛
وتجعل ابراهيم وموسى وعيسى ومحمدا وغيرهم من الرجال الآباء نماذج
وقمما يتطلع اليها ... ؟ أم أن ينظر الانسان الى الانسان كما ينظر للنبات
والحيوان ؛ فاذا ولد فكجرو الكلاب أو سخل النعاج ، يسخرويلعب به ،
ولا عرض ولا ناموس ولا قيود ، وحياته حياة فنا آلى وعلمها للتدمير
والغلبة ، ومثلها وصولية ... واذا مات هلك وقذف به الى ظلمة الأبد من
غير رجعة أو ذكرى أو أمل فى مصير أكمل ؟ !

أما والله لو كان دين الانسانية هذا خداعا باطلا ، لكان أعظم أثرا فى
صلاح الحياة من ضده ولو كان الحق ! لأنه قانون الحياة الاجتماعية ،
فاذا تركه الانسان كان عليه أن يرتد الى حياة العايات . وقد ارتد بعضه
فعلا الآن ، ولكنه سيعود ..

ولست أدري : ما هو غرام بعض الناس في أن يزعموا أنهم كشفوا
تيارات واتجاهات في الحياة تجعل الناس يحطمون الحياة الاجتماعية التي
نمت موارث علومهم وأخلاقهم في أحضانها ؟

ان كل ما يضر حياة الجماعة هو شريمت الضمير ويتزع منه الايمان
بالخير ويسلم الى النكسة والارتداد . فينبغي ألا يفلسف به .



على أسوأ الافتراضات في تفاهة أصل الانسان وضالة مكانه في الوجود،
فتفجر نبع الضمير في قلبه ، وطواعيته تحت تأثيره ، لا بد أن يكونا بوحى
وضغط من عالم أعلى ..

وهذا الروح اللطيف الذى يوجد في القلب حين الحب ، أو حين مبادلة
العلم والفكر ، أو حين تفتح القلوب بالخير ، أو حين النظر للوجود بالعين
الصافية الآملة المتفائلة ، أو حين استحضار المعاني الكبيرة : كالمروءة
والايتار والتضحية الصامتة ، أو حين الايمان العميق الرحب المشع ... هذا
الروح هو مكان رصد الانسان والأنس به والأمل فيه .

فلنرصده من هناك ليكون المنظر جميلا أخذا ، يبعث على التفاؤل
والحب والسعى الى الاكتمال ... أولى من أن نرصده من مكان آخر يبدو
منه مطموس الجمال ، مقبوح الخصال ، منحط المكانة ، باعثا على التشاؤم
والبغض والحقد وسوء المآل !

التحرر من التاريخ

التحرر من التاريخ - نحن غير البائدين - تلاميذنا
اصبح علما بالطبيعة من أرسطو - العلوم والفنون ليست
تحفا تقتنى منفصلة عن النفس - لابد من قلوب حديثة -
من جرائم التاريخ - الانسان يصنع كثيرا من أقداره
استطرد الى مشكلة القدر - الى المنتظرين بعثا من غير
نفوسهم - الان فقط وجد الحق أدوات كاملة للدعوة الى
تصحيح الافكار عن الحياة - عباب التاريخ يجرف
الطفولة النضرة مع الجيف القذرة ! - لامر من عزل
الطفولة لتصحيح أفكارها - مناقضات بين مافى الشوارع
ومافى الجامعات صورة من دواستنا الحالية للتاريخ -
طبائع مدلسة ليست بنت زمالها - مايستهلكه الشر -
هل مضت الحاجة الى دور الغرائز فى خدمة الحياة ؟ -
حرب الالهة

طالما ألححت على التاريخ : هذا الجدار الهائل .. هذا السد القوى ..
هذا السجن العتيد .. لأحطمه وأتقذ نفسى من جوه المعتم الخالق !

وطالما قلت ما دام هذا الماضى القاصر الجاهل المخرف الوحشى يحمله
الانسان فى أوعيته وأعصابه الى الحاضر ، فهو دائما فى ضلاله القديم ،
كما يعيش حامل الميكروبات الضارة دائما فى أمراض ونكسات .

والحقيقة التى يجب أن توضع نصب العيون الآن ، هى أن هذا
الانسان العصرى ، هو غير الانسان البائد بلا شك ! هو غيره فى علمه
وادراكه للطبيعة وتذليله لعقبات الحياة واضطلاحه بأدوات تحقيق
الاحتياجات ، وتفتيحه لكنوز الأرزاق والأقوات .

فكيف يرضى أن يحمل ذات قلبه القديم وغرائزه كما كانت ، وأن
يحمل غشاوات القرون الأولى ليعيش بها فى عصر الانكشاف والظهور
والقدرة الفائقة ؟ !

كيف يرضى من ملك زمام اليابس والبحر والجو ، وذرع الأرض

بالطول والعرض ، ونبش كنوزها ، أن يعيش بأساليب الذى كان لا يعرف
غير طريق القرية أو النجع أو الجزيرة التى يعيش فيها ؟

ان تلاميذ المدارس الابتدائية أصبح علما عن الأرض والطبيعة من
سقراط وكوفوشىوس وأرسطو وابن سينا وابن رشد وغيرهم من حكماء
القدماء ؛ فكيف ترضى الانسانية الحالية أن تعيش حياتها النفسية بأساليب
جهلاء عصورهم ؟ !

ان التاريخ النفسى للحياة الانسانية ينبغى أن يدرس بعين غريبة عنه
ناقدة له فى شك وتمحيص ، فما هو الا سجل جهاد الناس فى سبيل وصولهم
الى حقائق هذا العصر الحالى ؛ وما يليق أن تؤخذ مرحلة من مراحل
محط يطمئن الناس اليه بقولهم ؛ لأن مراحل السابقة كانت مراحل موضعية
ضيقة خاصة بأمة ما من أممه ، ولكن أمر أمم الناس الآن أمر جماعة توشك
أن تتقارب أهدافها وتتشتبك مصالحها وتشتجر اشتجارا لاخلاص لفروعها
منه ، أبت أم كرهت .

هل من المعقول أن نلبس ملابس الحياة الحديثة على الأجساد ثم
لا نغير ملابس النفس ؟ أنكون قرودا وبيغاوات تحكى قضايا العلم
بالسنتها وظواهرها ولا تمثله قلوبها ونوازعها ؟

هل يكفى من العلم أن يقتنى فى الحوافظ والذاكرات غير ممزوج
ولا مدمج فى الأعصاب والأحاسيس والانعالات ، وأن يوضع فى الرءوس
كما توضع التحف والدمى على الرفوف والمناضد للزينة والخيلاء والبيع
والشراء عند الحاجة ؟ !

ان العلم ينبغى له أن يكون فى كياننا كالماء فى أعواد الشجر الحى ،
لا يقف تسربه اليه وانماء حياته الا اذا جف وأحطب ومات .. فلا شجر
بدون ماء .

ان « جراحة » عظيمة فى داخل الحياة النفسية الانسانية تنتظر اجراءها
لبناء قلوب حديثة تتلاءم مع الأفكار الحديثة !



ومن آثار التاريخ في الحياة العصرية هذا الخلاف العنيف بين سدة الأديان بعد ما سطعت شمس الله الواحد ... وبعد ما أدرك العقل التناسق والانسجام والتوافق بين قوانين الطبيعة في الذرة والمجرة مما لا يمكن أن يكون الا بإدارة يد واحدة !

ومن آثاره فيها أننا لا نزال نخضع لمنطق الأمم التي كانت تعيش متحاجة في سدود وتخوم تفصل بين عقولها وأخلاقها ومراقفها ، وتجعل الدنيا دنويات ، والانسانية الواحدة أنواعا متباعدة ، وتجعل من اختلاف الأجناس والألوان واللغات اختلافا أصيلا جوهريا بين الطبائع الانسانية يبيح هذه العداوة الفاجرة المريرة المخربة للعرمان ، ويحمل على المبالغة في البطش والطغيان ، ونسيان الصفات المشتركة بين بنى الانسان .

ومن آثاره أن أكثر الناس لم يدرك بعد مدى الانتقال العظيم ، والترقى السريع ، والتفاوت البعيد بين الحياة قبل القرن العشرين والحياة فيه ؛ ولذلك لا يزالون يضمرون في أنفسهم اعتقادات متشائمة في الانسان ومستقبله ، ويدينون في الحياة بدين السخط واطلاق الغرائز الخطرة والآراء التافهة التي تجعل الانسان يعبر الحياة بدون أن يجهتد في ملء نفسه بأسرارها ، وفي اضافة كشف أو اختراع أو منفعة أو فهم الى ميراث الحياة الانسانية ... وليس هناك شيء أضر على الحياة الانسانية من نزعة التشاؤم والتبرم والسخط على حاضر الانسان ومستقبله !

ومن آثاره أننا رضينا أن يعيش أكثرنا جاهلا أميا لا يفقه مبادئ العالم والحياة التي في رءوس العلماء ، مع ان نمو تلك الأسرار يتغير ويتقدم كل صباح ومساء . وكأننا بذلك وأدنا هؤلاء الأحياء ودفناهم كما كانت تفعل جاهلية العرب بموءودة الأجساد .. وكان هذا الاهمال منا كفعل من يرى أهله يموتون ظمأ واحتراقا ، وهو على علم بمنبع ماء غزير يطفىء غلتهم ولوعتهم ويحيى نفوسهم ، ولكنه لا يسعى الى اقتادهم ..

ومن آثاره أننا نعيش في ذهول عما يحيط بحياة الانسان الآن من كنوز تفتتح وأعاجيب تخترع ، فترى الناشئ منا ينشأ بين القطارات والسيارات والطيارات والراديو والتليفون والغواصات والفوتوغراف

والسينما وغير أولئك ، ثم يجهل أمرها وتركيبها ولا يدري عنها شيئا ، ولا يكلف نفسه سؤال أحد عن نبئها العظيم .. كأن ذلك شيء تافه أو أمر بدهى لا يحتاج الى فكر شديد وتمجب بالغ !

ومن آثاره أننا برغم ادراكنا الآن كثرة الأقوات وكفاية الأرزاق كثرة وكفاية تشبعان حاجات الانسانية جميعها ، لو وزعت توزيعا معقولا بدون احتكار وتحكم واتلاف لجانب من المحصول في سبيل الاحتفاظ بالأسعار المرتفعة .. لا نزال نطيع الجشع والطمع ونعصى دواعى العدالة والرأفة بالطبقة المحتاجة المجهودة !

ومن آثاره أننا لا نزال نغضى عجزنا وكسلنا بالاستسلام لما نسميه « الأقدار » ، مع أن مفتاح كثير من الأقدار بأيدينا ، ومع أننا نرى في الظاهر أننا نصنع أغلب أقدارنا ، ومع أن دائرة الايمان بالأقدار في الدين لا تتعدى منطقة الصبر على المصائب والكوارث التى تأتى إلينا بدون حيلة أو خيرة منا ، ومنطقة الرضا بما نحصل عليه بعد الجهاد ..

وهنا مكان استطراد الى مشكلة الأقدار لا بأس أن نرسل فيه بعض الحديث :

هناك أقدار نريد أن تتحقق ، وهى أقدار الخير والسعادة ، وهذه موقفنا منها يجب أن يكون كما يأتى :

أن نسعى جهدنا للتمهيد لتحقيقها بالأخذ بأسبابها التى تهدينا تجاربنا الى أنها عوامل جالبات لما نسعى اليه ، فإن تحقق ما نبغى فذاك ، وإن لم يتحقق — وهذا قليل نادر — علمنا أن الارادة العليا المسيطرة على وجودنا ، لها غاية غير غايتنا فى تلك المسألة التى نسعى لتحقيقها . والايمان بتلك الارادة يقضى حينئذ بالاذعان والتسليم لقدرها العالى الذى لا حيلة معه .

وهناك أقدار نريد ألا تتحقق ، وهى أقدار الشر والشقاء . وهذه موقفنا منها يجب أن يكون كما يأتى :

أن نسعى جهدا للتمهيد لدفعها بالأخذ بالأسباب التي تهدينا تجاربنا الى أنها عوامل دافعات لما نخشاه وتجنبه . فان كان ما نبغى ، فذاك ، وان لم يكن ، كان أيضا الاذعان والتسليم للارادة العليا .

تلك هي مشكلة الأقدار في جانبيها . وفي كلا هذين الجانبين رأينا أن على الانسان أن يقدم جهده في التمهيد لها أو دفعها . فاذا وقف أمامها منتظرا مكتوف اليدين مشلول التفكير ، كان حريا أن تأتي اليه أقدار الخير فلا ينتفع بها ؛ اذ لم يبذل لها جهدا من فكره وأمله ، وكان حريا كذلك أن تنزل عليه أقدار الشر فلا يسعى لتخفيفها ، وأن يجزع منها جزع الذى يظن أنه كان في مقدوره أن يدفعها ولكنه قصر في ذلك ، فيظل ملوما محسورا ..



والحياة العملية ذات البراهين البريئة من الجدليات توحى إلينا ، بل تحدثنا بكلمات مقروءة مسموعة بريئة من غموض الرمز والاياء ، أن الذى ينتظر أقداره بدون أن يسعى لجلبها أو دفعها ، لن تكون حياته الا كحياة ذلك البدوى ساكن الصحراء الذى لا يعمل عملا لجلب الماء ، وانما هو ينتظر سقوطه عليه من السماء . وطبيعى ألا تكون آماله بيده ، وأن يعيش حياته معرضا لأخطار الظمأ والجفاف ، معلق القلب ، مهدد العيش ، يتجدد قلقه كثيرا لأنه لم يمسك من أسباب الحياة الا بجبل بعيد ، هيهات أن يكون في يده دائما ..

وأنى تكون حياة هذا البدوى من حياة بدوى آخر ، سعى حتى اهتدى الى ضفاف نهر تمسك منابعه بحوالب السحاب ، وتجلب الماء اليه جاريا ميسورا ليده وأفواه دوابه وقطعانه ، ثم هو بعد ذلك يقيم الخزانات ويشق السواقي والقنوات ، ليصل منها الماء الى كل بذرة بذرها ؟

لاشك أن كليهما أخذ من مصدر واحد ، ولكن أحدهما حمل نفسه على العسرى ، والآخر حملها على اليسرى .. وشتان ما بينهما !

فلينهض الراقدون على آذانهم في الشرق الاسلامى مستسلمين في صغار لعوامل الشقاء والحرمان ، حاسبين أن أحوالهم ضربة لازب ، حتى

يأتيهم آت من غير أنفسهم ، ينفخ في الصور ، فإذا الأرض حولهم جيوش
وجحافل ، ومصانع ومعامل ، ومعاهد ومعابد ، وحقول وجنات وعيون ،
وإذا هم — بقدرة قادر ! — آلهة في الأرض يحكمون !

لينهضوا ليحرروا أنفسهم من قيود التاريخ النفسى الذى انحدر اليهم
من الجاهليات ، فهم يعيشون به في الماضى ، وان كانت أجسادهم تلبس
أثواب القرن العشرين ..

ولتكن قوارع هذه الحرب أجراسا وأبواقا تجمعهم وتدفعهم الى
السير مع قافلة سريعة المراكب ، متلاطمة المواكب ، غليظة الأثقال ، حاشدة
جبال الحديد والفولاذ والقوى العارمة المجنونة التى يقول قائلها : « أنا
القدر ! أنا القدر ! يا بنى البشر ! » .

هل لنا أن نزعّم أن الحق وصل الى نفوس أكثر الناس فأدركوا
صدقه وجماله ثم مع ذلك رفضوه ، وحينئذ يحق لنا أن نتشائم في مستقبل
الانسان ؟

أحسب أنه لم يصل في عصر ما من عصور التاريخ الا الى القليل من
الناس . والى الآن لم تقم دعوة الى الحق الواضح في الطبيعة بدون أن
توضع عليها وفي طريقها أغشية وعقبات ومعوقات تحجبه وتمنع الناس من
ادراكه .

والآن ، وقد تيسرت أدوات الدعوة وأدوات الاقناع وأدوات التربية
يجب بدء دعوة ..

وان في الناس لخيرا كثيرا جدا أعظم مما يتضح من النسبة التى نجدها
فيهم الآن ..

والدليل على ذلك ، نجاح الدولة الاسلامية الأولى ونجاح أمم الشمال
في أوربا خلقيا وعلميا ، فقد أثرت فيهم التربية حتى أوشكت بلادهم أن
تخلو من السجون والجرائم والخيانة ، حيث الثقة بالنفس الانسانية
وطيدة .

ان أدوات صحة النظر في الحياة واتجاهاتها ، موفورة الآن لأغلب سكان الأرض ؛ ولكنهم مأخوذون عن ذلك بجرائر التاريخ . وكان من الواجب بعد العلم الغزير أن يوجد الفكر الهادى والقلب الكبير الذى نضج وطاب ؛ ولكن عباب التاريخ وسيوله لا تزال تجرف الطفولة والبذور مع الجيف والقش والغشاء ، وتلقى الجميع الى المصب الذى تلتقى فيه الأخطار من الضلالات التى تركها أبناء الجهالة الأولون ..

فلا مفر من فصل البذور والطفولة وعزلها عن مجرى سيل التاريخ ، وانشائها بأيد غير ملوثة ، انشاء يرضى به هذا الزمان وعلومه وفنونه ، ويؤهل الانسانية لتلك الخلافة الواسعة المتعاونة في جهاد الطبيعة واستئزال بركايتها وثمراتها .

ولا مفر من تصحيح الفكرة عن الحياة وتوجيهها الى الايمان بها كرحلة ممتعة أتاحها القدر لمن يخرج من العدم ، فيجب صرفها في العمل والفرجة والاطلاع على ما يمكن الاطلاع عليه من آفاقها .

ولا مفر من تحويل عبقرية الفكر الى عبقرية القلب والخلق والجسم . فالعلم والفن يجب صقل النفس بهما ، واشراب الجسم اياهما ، واخراجه على مقتضاهما ، بحيث لا تتخلف حياة النفس والجسم وقواه وحركاته عن المدى الذى وصل اليه الفكر ، وبحيث لا يتخلف ما في الشارع والحقل عما في مدارس الفنون والعلوم والتجارة والزراعة وما اليها ، حتى تكون حياة الجماعة صورة ومظهرا صادقا لحياة الجامعات والأندية الثقافية ، ولا يكون في الأمة مفارقات ومناقضات بين حياة الفكر وحياة الواقع .

ولا مفر من حمل كل انسان على أن يدرك نفسه ، ويستغرق في التفكير في حياته وحياة الانسانية ، ويتيقظ لتلك القوة والقدرة التى تتسلط بها الانسانية على القوى العمياء الجبارة وتسخرها في خدمتها .



وما الانسان بدون نقطة للمعنى الفائق والروح السامى الذى في حياته الا جسد يختلج ويضطرب في زهول وبلادة ، ويحيا هكذا حياة مغناطيسية آلية .

ولكى ندرك جرائر التاريخ على العقول ، وأثره فى تدليس الحاضر
وافساده وتزوير النفوس ، سأعيد عليك حديث صورة لا تجهلها عن طرق
دراسته على السنة العجائز وفى المدارس ومجالس القصص :

يتفتح عقل الناشئ منا فتلقنه عجائز بيته ، وشيوخ قومه ، ومعلمو
مدرسته : تاريخ قوميته ، وتاريخ الانسانية بأغلاطه ونقائصه ، ومحاولات
العصور القاصرة فى فهم الحياة ، وجهاد الانسانية فى شق طريقها الأول
بين الصخور والمتاهات والعقبات ؛ فما يكاد عقل الناشئ يصل الى دور
الحكم والموازنة ، حتى يكون قد تطبع بما وعى ، وأصابه ثقل التخمة ،
وحيرة الامتلاء والتبلبل .

ذلك لأن التاريخ لا يدرس على انه محاولات أولية من الانسان ،
فيها أخطاء كثيرة ، فيجب الحكم عليها حكم دور الرشد على دور القصور ،
ولكنه يدرس وعليه طابع التقديس والاعجاب بالأقدمين والاعتزاز بهم فى
مغالاة وتعصب ، وبخاصة تاريخ القوميات والجنسيات .

وكان من كبرى نتائج ذلك ، أن عاش كثير من الماضى السئ فى
الحاضر . بل وجدنا جماعات تفر من الحاضر لتعيش فى الماضى وترى أنه
كان الحياة .. ! وتمدح الناس بما فعلت الجدود وقالوا انا على آثارهم
مفتدون .

فلم يفتح أبناء العصور المختلفة عيونهم على حياتهم فى زمانهم ، بل
فتحوها على الماضى وعاشوا به فى الحاضر ، وظهر أثر ذلك فى الافتتان
بهوامش الحياة ؛ والعكوف على دراسة سطوحها ، وترك دراسة أصولها
وعلموها النفسية والطبيعية والتجريبية التى تبقى لها نتائج دائمة تسلم
الى نتائج أخرى فى سلم الترقى والتطور .

وقد لاقى أكثر الناس الحياة بطباع مدلسة ليست بنت زمانها ، وانما
هى بنت الماضى السحيق ، وحملوا معهم فى رحلة العصور خرافات ووثنيات
وسخافات احتفظوا بها ، حتى فى القرن العشرين ، ووضعوها حواجز
وعوائق فى طريق الحياة الحديثة ذات المعجزات والنبوات الدائمة التى
لا تحتمل جدلاً أو مخرقة .

وكان من نتائج ذلك أن وجد المصلحون في كل عصر ركازا من
الغباوات والجهالات توضع في طريق دعواتهم الى الإصلاح والعلم وفتح
الذكاء ونور البصيرة ..



ليس قبيحا جدا بالطفل أن يعترك مع اخوته على شيء يريده لنفسه
ويريدونه لأنفسهم ، فيتصايحوا ويتضاربوا ويحطموا ما أمامهم ؛ لأن الطفل
يعيش بالغرائز ، فهو أناى ضيق التفكير ، لا يدري أن أباه يملك الكثير ،
ولا يفهم فضيلة الايثار الا بعد التمييز والتدريب .

ولكن ما بال الأمم التى رأت خيرات الله تملأ فجاج الأرض ، تتقاتل
على البحر الزاخر والحقول الممرعة والجو الواسع ؟ ان ذلك من أخلاق
الطفولة ، وضيق آفاقها ، وتحكم الغرائز في حياتها . وهذه صفات وجدت
لها في مخلفات التاريخ مبررات وحججا وتأريثا !

ومن العجائب أنهم يدمرون ما يسعون اليه من الغنى والثروة حين
تثور غرائزهم ! وان الحقد والشره والطمع تستنفذ وتهلك من مال الأمم
الأثرة الجشعة ، ومن بذلها الدم القياض ، مالا يمكن للخير والسلام
والاحسان والتعاطف والتفاهم أن يستهلكه أو يستهلك عشر معشاره !

ونظرة واحدة الى النفقات اليومية للأمم المتحاربة الآن تكفى في
البرهنة على هذا ، وعلى ان الانسانية ما دامت مصروفة عن طاعة الحق
والعدالة والحسنى ، الى تحكيم الغرائز الدنيا والانحدار في مجرى التاريخ ،
فسوف تظل هكذا تعمر لتدمر ، وتعلم لتجهل ، وتتقدم لتتأخر .

وكأن المقصود بحياة الانسان ، اذا استمر على هذا ، هو تحقيق
مشتريات الغرائز ، واظهار عبقریات النفس البشرية في التخريب بعد
التكوين : فهى طورا تبنى وتعيش في صفات البناء وأخلاقه ، وطورا تهدم
وتعيش في أخلاق الهدم وصفاته ، لتدرك معالم الضدين المتقابلين
الأبديين : الخير والشر ...

ولكن ان صح هذا كتعليل لحياة الشر فى الماضى ، حين كانت الحياة محتاجة الى دوافع الغرائز لتدريب الانسان فى طفولته على ما تهيئه له الأقدار فى مستقبله ، ولحملة على الاقتحام والكشف وتفتيق الحيلة ، وحين كانت نتائج ثورات غرائزه محدودة ضيقة لا تتعدى أضرارها الى هدم أصول الحياة ، وتحطيم أسس الاجتماع ومخلفات الانسانية ذات الحرمات والقيم التى لها اعتبارها ، كما هى الحال الآن فى نتائج هذه الحرب .. فلن يصح الآن هذا التعليل بعد أن صار قتال الانسان كقتال الآلهة لا كخصام الأطفال !

وقتل الآلهة — لو كان هناك آلهة الا الله — تخريب لأصول الحياة ، وسحق لبراعمها ومناطق نموها . وهم يعلمون بالطبع طرق التسلل اليها والاطباق عليها ؛ لأنهم — فرضا — خالقوها وواضعو أسرارها .. فلنوحدهم الانسانية بعد أن صار لها قوة الآلهة فى التخريب ، كما وحدنا الأرباب !

ولنعل بأرواحها وأفكارها عن مستوى بنات الطين والتراب ، من كل ذات ظفر وناب !

- ٣ -

في أصول الاجتماع والسياسة والاقتصاد

عقيدة النوع

قلوب الامهات - حدود النوع - الاحساس بالمجتمع
في الذات - في الدورة الصغرى - للدورة الكبرى - جوهر
واحد في ألوان مختلفة - منطقة التلاقى والاتفاق - حدود
العامة تنهار .

يدين اللسان السوى في أعماق نفسه بشعور الاحساس بالنوع
البشرى ، وبوحدته معه وفنائه فيه ، وخدمة أفراد ومجموعه وأهدافه
العليا .

وفي ضمائر بعض الناس أغوار عميقة رجة في حبها الانسانية وشعورها
بها وبوحدتها معها ، كأنها قلوب الأمهات في شعورها بأبنائها ..

لا شك أن هذه القلوب تستمد من فيوض رب الرحمة والعون والحب
ولا شك أن ضمائرهما تتلقى من ضميره تعالى وتنظر اليه دائما ...

ولن أستطيع أن أفسر التضحية الكاملة والغيرية والايثار العجيب ،
تلك الصفات التي نجدها في قلوب خدام الانسانية وآبائها وروادها ،
الا اذا قلت ان يد الله تعمل في هذه القلوب ، وتتصل عن طريقها بخدمة
الحياة وحفظ لبابها ، وتعمل أعمالها العظيمة للأصلاح عن سبيلها .

والا فما هذا الشعور العميق عند هؤلاء بالفناء في خدمة النوع ؟ !
انه من عالم غير أرضي ..

والا فما هي العدالة التي رضى البشر جميعهم الدعوة اليها منطلقه
من تلك القلوب ، ولهجوا باسمها ، وطالبوا باقامة الدول والمجموعات
البشرية والعلاقات الدولية على أسسها ؟ انها ان لم تكن مستمدة من
عدالة الكون ، فما هي الا لفظ كعلبة فارغة يملؤها كل حاكم قوى بما
يهوى .

ان هذه القلوب ذات العمق والاتساع ، تشعر شعورا أكيدا أن كل

ظلم أو فساد يقع على انسان أو مرفق من المرافق الصالحة لحياة الانسان ،
انما هو واقع عليها بالذات ، وتحس لسعة الأفعى كلما أصاب الأفراد أو
المجموع ظلم أو فساد .

لا شك أن الله تعالى خلق هذا النوع من القلوب لحفظ المجتمع
القاصر وارشاده ، كما خلق غرائز الأمومة والإبوة لحفظ الطفولة
وارشادها .

ودائما يشعر هذا الصنف من الناس أن حدوده مع الله تعالى تكون
حيث حدود الآخرين ، وأن منطقة متاخمة ذاته لذواتهم يقف عليها حارس
يقتض ، هو ذلك الذى يسمونه الضمير ، ومعه جرس التنبيه ، تدقه يد الله
من داخل النفس ، فلا يسمع رنينه الا حامله ... وهو حارس حريص على
أن يرفع صوته دائما ، سواء استجيب له أم لم يستجب .

وحيث تتنادى أكثر ضمائر الانسانية وتتقابل أصواتها على شيء ما
فشم حدود النوع كما أقامها الله !

والانسان الاجتماعى ينبغى أن تكون له عقلية وشعور وآمال تغاير
ما يكون للفرد الآبد المتفرد مغايرة تامة . وليس الأمر فى الالتساب الى
جماعة والعيش معها أمر عنوان أو رابطة ظاهرية ، وانما هو أمر عميق
فى النفس ، لا أمر خوف من الالتقادات ، أو قوانين العقوبات .. هو أمر
احساس بالذات فى مجتمعها ، أو بالأحرى أمر احساس بالمجتمع فى
الذات ! وكل مصائب الاجتماع ناشئة من ترك أدوار النمو فى الفرد بدون
رقابة وتعمد رشيد يسهر على انبات النفوس نباتا اجتماعيا مسالما ، لائما
شيطانيا طاغيا . وان حياة الجماعة يجب أن تخضع الأشواك فى أعواد
الأفراد ، وتجمع تلك الأعواد كما تجمع طاقة الزهر فى تنسيق وتصنيف
لا تختلط معه أشواكها الحادة المشرعة بأوراقها الرقيقة الحريية ختمزقها
تمزيقا ، وتعكس المطلوب من جمال منظرها مجتمعة ، الى قبح منظرها
مجتمعة ممزقة ..

أجل ، ان برائن الناس وأنيابهم فى الأمم المنحطة التى لا تزال الفردية
والأنانية متغلغلة فيها ، تمزق وجوههم وتقطع روابطهم ، فتبدو حياة

اجتماعهم قبيحة الظواهر قبيحة البواطن ، ويشعر حينئذ الانسان الحر
العامر القلب بالمعاني السامية ، أن حياة التفرد والعزلة أجمل وأكمال
وأدعى الى راحة الفكر ، وصيانة أمانات الحياة في النفس .

والناس لا يزالون في دورتهم الصغرى حول نفوسهم وذواتهم
وقومياتهم . لا يزالون محكومين بأنانيتهم ورغباتهم الخاصة ، كما يحكم
الأطفال بغرائزهم الدنيا وحدها . أما دورتهم الكبرى كنوع عظيم يعمر
الأرض ويثيرها ويسخرها مسددا الى هدف واحد ، فذلك لما يشعروا
بها بعد .. مع أنها من الغايات العظمى لخلقهم .

اننى أشعر أنه يجب أن نسقط الأنانية الوطنية والقومية الآن من
حسابنا حين نتحدث في شأن الايمان بالنوع ، وأن ننظر الى الانسانية
الواحدة من أزلها الى حاضرها ، وتتحيل مستقبلها ، لنراه وحدة جامعة
تسير في دورة كبرى بخطى مطردة في طريق تلو وتسمو .

وقد أخذت كل أمة تقريبا دورها التاريخي في حمل الشعلة على
طريقها الخاصة ، حتى ضعفت يدها عن حملها فتسلمتها أخرى ، ثم وصلت
الحال الآن الى أن الأمم جميعها توشك أن ترفع بأيديها مجتمعة شعلة
الحضارة .

والنا حين نجرد الأشخاص الانسانية من جلودها الملونة وألوانها
المختلفة ، نجد جوهرها واحدا في قلوبها وعقولها ؛ فالعواطف الشريفة
والتوازع الخسيسة واحدة في الجميع ، والاستجابة لحجج الحق والعدل
واحدة في عقول الجميع .

وفي كل مكان وجدنا زراعا انسانيا متشابهها في طباعه واجتماعه على
المعاني الكلية التي تنظم حياته ، وفي تلييته لدواعي العلم والدين والجهد
واللعب والحياة والمجد . وما وجد في مقادير ذلك من تفاوت ، فهو لا يضير
وحدته ، ولا يمنع الاعتقاد بأنه من بذرة واحدة .

نعم ان الله بذر بذور النوع الانساني في بقاع الأرض المختلفة
الطبيعة ، وجعلها تنبت متباعدة في عهد طويل ، حتى تكونت الانسانية
الحالية منوعة الظواهر بفعل الأمكنة والتربة واختلاف اللغات ، وتنوعت
أفكارها تبعا لذلك .

فمن أراد بعد ذلك أن يحو آثار ذلك كله ، فهو جاهل خائب .
ولكنه يستطيع أن يجمعها على صفاتها الكلية المشتركة وجوهرها الواحد ،
ويقيم حياتها السياسية والاقتصادية على العدالة التى تدركها عقولها
وضمائرهما جميعا ، ثم يترك أمر تفرقها فى الفرعيات بدون محاولات .

فالناس لا يمكن جعلهم أمة واحدة فى غير العدالة والمجال السياسى
والاقتصادى ، لأن غير ذلك مناقض لقوانين الفطرة فى اختلاف الناس
اختلافا كبيرا فى الأمزجة واللغات والألوان وسائر الفرعيات ؛ اذ أن
خالقهم أراد تمايزهم وتنوعهم هكذا ليتعارفوا ، وتكثر معانى المعرفة
بينهم تبعا لكثرة التفرع والتغاير والتميز والاختلاف ، ولأنه نوعهم كما
ينوع البستاني الحاذق الثمار والأزهار ، فذلك أجمل وأوقع ، وأدعى
للتشيط وكثرة المعلومات والأذواق .. أما التوحيد السياسى والاقتصادى
فى نطاق واسع مشترك ملحوظ فيه حق كل وواجباته ، سواء أكانت
« الوحدة » فى ذلك النطاق الفرد أم الأمة ، فذلك ممكن ما دام مدعما
بوسائل القوة والسرعة والاضعاع للتنظيم ، واحترام السلامة الاجتماعية ،
واشتراك الجميع فى اخضاع الشائر على نظام الجميع .

ومهما فعلت « العامة » فى نفوس الساسة المتخلفين عن ادراك هذه
الحقائق السامية فى حياة النوع ، والقاعدين عن الوصول الى قمة الفكر
والخلق ، الذين يأبون أن يعترفوا بما توحى به حقائق العلم والايمان
وسير الزمان ، ويقيمون الحدود المصطنعة بين جوهر القلوب والأفكار
التى وحدها الله ، ويجعلون الفروق السطحية موانع وعقبات كأداء لا يمكن
اجتيازها — مهما كان من ذلك ، فان السيل الجارف والتيار الدافق النابع
من عالم الفكر الانسانى والضمير الواحد ، سوف يجتاح ما أقاموا من
سدود ويدمر ما صنعوا



وقد انبثقت البشوق فى تلك السدود ، واتسعت الشجرات بما قدمته
الكهرباء الساحرة ، والأثير الجامع ، والعلم ذو الطبيعة الواحدة الموضوعية

وبما قدمته الحروب القديمة والحديثة من مزج الدماء ، حتى يخرج منها
لون جديد تراه بصائر الأبناء بعد هلاك الآباء !

وان أحداث القوة والدم ، وفتوحات الروح والعلم ، هي التي
تستطيع دائما أن تجعل دائرة الجوهر الانساني الواحد أساسا مشتركا
لتلاقى الضمير الواحد للأمم والأفراد ، على استنكار جرائم القوة والدم ،
والاستكثار من فتوحات الروح والعلم .

النقص والتكامل

الانسانية الواحدة - أدوار نمو الانسانية هي أدوار
نمو الفرد - من وحى الحرب العصرية - مقدمات الوحدة
- عصر القبيلة الاممى - الاقدار تفصل الجسم الواحد -
دفع وهم - الخميرة فى أمريكا - أم مجنونة وبنت عاقلة
- من توحيد الارباب الى توحيد الانسان - لاهياة مع هذه
الحرب - قيامة صناعية - سلم طويلة من حرب خاطفة -
المبضع من السيف - دم الحرب دم مخاض - معان تبقى من
أهم تفنى .

ألمس فى نفسى ، وفى كل فرد عرفته مهما كان عظيما ، نقصا أجد
تكميله عند غيرى وغيره . وهذا مما يؤكد فى فكرى أولا أن الناس جسم
واحد يكمل بعضه بعضا ، ولا يستقل عضو منه بحياته الا ظهر مبتورا
ناقصا . وكماله وجماله فى أن يتضام الى غيره ، ويتعاون ويصبر على
مضايقة ذلك الغير حتى يستطيع ادراك الكمال الميسور .

وكذلك ألمس فى كل أمة نقصا أجد تكميله لدى غيرها من الأمم .
وهذا مما يؤكد فى فكرى ثانيا أن الأمم فى المجموعة البشرية ، كالأفراد
فى مجموع الأمة الواحدة ، كل منها لها ميزة تكمل غيرها ، وفيها نقص
يكمله غيرها .

فالفرد الكامل الذى يستطيع أن يحيا وحده لم يخلق بعد ولن يخلق .
والأمة الكاملة التى تستطيع أن تحيا وحدها لم تخلق كذلك ولن
تخلق .

تلك حقيقة توحى الينا الايمان بالانسانية الواحدة ، وتحتم علينا أن
تناسى موارث الوحشية القديمة والعصبيات الأولى ، وأن نفكر للحياة
الواحدة المستقبلية التى يصح أن تنتظم الانسانية جميعها ، بعد أن ذهب
عنها دور الطفولة التى كانت فيها حدود الأرض ومعارفها مجهولة ،
ومواردها وأرزاقها محدودة .

ويعظم في نفسى يوما بعد يوم وجه الشبه بين سير الحياة بالفرد الواحد من طفولته الى رشده الى شبابه الى كهولته ، وبين سير الحياة بالانسانية جميعها من طفولتها الى شبابها الى كهولتها .

وانى أكاد أجزم أن خطوات سير الحياة بالانسانية كلها ، هى خطوات سيرها بالفرد الواحد . وكل من يتفرس في الحياة الاجتماعية يجدها وحياة الفرد سواء في تدرجها من الغرائز والعواطف الى الرشده والعقل .

وكما يحصل للطفل والشاب أن يغضب كثيرا ، ويكون أنانيا فرديا في حاجاته ، ويحطم ما أمامه ولا يبالي بالنتائج ، كذلك الانسانية في دور طفولتها : أنانية غضوب تحطم كل شئ في سبيل منفعتها الضيقة .

ولكن كما تمنع التربية وضبط الأعصاب وفعل الزمن الرجولة من أن ترتد الى أساليب الأطفال وغرائزهم ، وتجسها عن الغضب والتعطيم — الا اذا امتدت فيها حياة الطفولة ، للشذوذ أو عدم تقدير النتائج — كذلك الانسانية لابد أن تصل الى هذه المرحلة في يوم ما قريب أو بعيد .

يوحى الى ذلك ، ما أراه في الحرب الحالية من عنف التحطيم وشدة البأس ، وجنون الانسانية ، وقسوة الآلة ، بحيث لا يمكن مطلقا أن تحتل الحياة بعد هذه الحرب ، اذا لم تقمع الغرائز والصراعات التى أثارتها ، واذا لم يوضع أساس حياة مشتركة للانسانية الواحدة التى ابتدأت وحدتها تبدو وتستعلن في هذه المجموعات الكبيرة من الأمم ، وهذه الرباطات الوثيقة بينها ، ومن اختزال المسافات والأبعاد واشتباك المصالح ، واشتراك مناهج الدراسة والثقافة العامة ، ومن معرفة كل جنس بخصائص كل جنس ، ومن الدراسات المنظمة ، والمؤتمرات الجامعة ، والجمعيات العالمية ، ومن كثرة الأسفار وامتزاج الطبائع ، واختلاط الأجناس ، وتفكير أرباب التجارات والأعمال في الأسواق العالمية ، ومن تبادل تعلم اللغات والأغاني والملاهي وأدوات الزينة ، ومن « الصندوق السحري » : الراديو الذى سيصوغ حواس الطفولة وقلوبها غير صياغة قلوب الآباء الذين نشأوا محجوزين ، محجوبا بعضهم عن بعض بالسدود والحدود والتخوم،

ومن « السبورة السحرية » : السينما التى تنقل الدنيا وناس الدنيا ،
وتعرض الجميع على أنظار الجميع فى حجرة ضيقة .

* * *

يصح أن نسمى عصرنا الحاضر « عصر القبيلة الأسمى » . والانسانية
كلها الآن تمر به كما مرت كل أمة بعصر القبيلة . واشتداد التنافر بين
مجموعات الأمم المختلفة فى هذا العصر ، هو صورة مما كان يحدث بين
القبائل فى الأمة الواحدة .

ولم يحمل القبائل المتعادية فى القديم على الصلح الدائم والاندماج
والوحدة الشعبية ، الا ما كان بينها من حروب وتخريب وتعطيل للحياة .
فلما رأت أنه لا حياة مع الحرية الكاملة والوحشية المطلقة ، تنازلت كل
قبيلة عن بعض حقوقها وحرقاتها ، ورضوا ذلك ، اما بضغط الأقوى
الأعدل ، واما بالادراك الصحيح للموقف ومراعاة مقتضيات الحياة .

وكذلك كان الأمر فى تكوين الإمبراطوريات المختلفة : حروب ونزاع
مستمر ، وتخريب للممالك والمملوك ، ثم اتفاق أخير ونزول من الجانبين عن
بعض المصالح فى سبيل المصلحة التى لا غنى عنها للجميع .

وكذلك تكون الاتحاد السوفييتى ، والولايات المتحدة الأمريكية من
جنسيات وأديان ومذاهب مختلفة ، بعد حروب ونزاع دمر حياتهم فى
بعض مراحل تاريخهم .

وكذلك وجدت البذرة التى لا بد أن تنمو بعد هذه الحرب : وهى
بذرة « عصابة الأمم » التى سيحافظ الغالب والمغلوب فى هذه الحرب على
ايجادها وجودا فعالا مسلحا (١) ، لا وجودا سوريا كالذى كان عقب
الحرب الماضية .

(١) تحرر هذه للطبع مصادفة فى ٢٨ ابريل سنة ١٩٤٥ (بعد أن نشرناه فى ٢٨ ابريل سنة
١٩٤١) ومؤتمر « سان فرانسيسكو » مجتمع لتكوين « مجلس الأمن الدولى » المستند الى قوة
عالمية . وفى قلوب الانسانية التى دمرتها الألام صلاة حارة أن ينجح الله هذا الأمل العظيم ، وأن
يوفق الجميع للإخلاص فيه وتجنب أسباب انهياره .

وعندى يقين غالب ، أن الأقدار تفصل الآن بالحديد والنار جسم
الانسانية الواحدة ، ذات الحكومة الواحدة ، كما فصلت جسم كل
امبراطورية على حدة ، كما فصلت جسم كل أمة على حدة ، كما فصلت
جسم كل قبيلة على حدة ، كما فصلت كل أسرة على حدة ، كما فصلت
كل جسم على حدة ، كما فصلت كل عضو على حدة ، كما فصلت كل
خلية على حدة .. !

هو قانون واحد ينتظم الكون كله ! قانون الجزيء والذرة هو قانون
المجاميع .. واللقاح السياسى واللغوى والعلمى والاقتصادى فى المجموعات
الكبرى والامبراطوريات واتحاد الولايات ، هو الوسيلة الى ذلك الأمل
المنشود .

ولا يتوهمن واهم أننى أزعم أن الخلاف سيذهب من الأرض .. كلا .
وانما سيبقى كما هو ، فى حدود الدولة ، بين الأحزاب والآراء والمذاهب
الاجتماعية ، وكما هو بين الأسرة الواحدة وكما هو بين القوى المتنازعة
فى الفرد الواحد : بين العقل والعاطفة والغريزة ، لأن الدفع قانون طبيعى
كقانون الجذب ، ولكنه دفع لا يفلت من قانون القوة والقهر ، كما هو
الحال فى الدولة الواحدة القوية التى لا يفلت منها من يريد الخروج عليها .

ان نفوس الأمم وطبائعها تتغير تغيرا سريعا من التمايز الى الاندماج
والاتحاد السياسى . فلم يبق فى الولايات المتحدة نعرات أجناس الا ما بين
البيض والملونين - وهو نزاع خارج على القانون والدستور - وانما
صارت كتلة سياسية واجتماعية واحدة بمرور جيل أو جيلين ، وبتوحيد
اللغة العامة .

والولايات المتحدة « خيرة » للحياة الانسانية المقصودة . هى نموذج
ناقص ، ولكنه أقرب الى الكمال من غيره ، وكان من الواجب أن يحذو
العالم القديم حذو هذا العالم الجديد السعيد ، ويترك موارث التاريخ
السيئة ، وعصبية الأجناس ونعراتها ، ويتفق على الحد الوسيط الذى
يرضى الجميع ، مع التضحية ببعض الاعتبارات والحريات .

أوروبا ولدت أمريكا . والبنت هنا أعقل من أمها وأسعد ! فلا تزال
القارة المعجوز تحتفظ بأحقادها القديمة ، وموارث تاريخها السيء في عالم
الحسد والبغض والخديعة والبطش والتنازع . ولا تزال تشقى الأرض
كلها معها . بينما أمريكا تسعدها وتجدد الحياة يوما بعد يوم ، وتنتشر
الأفراح والمباهج في كل مكان .

لقد برئت أمريكا فترة من الزمن من حب الاستعمار والتنازع عليه ،
فبرئت من السعار الذى يصاحبه ، وبرئت من الصفات الذميمة التى
تصاحب خلق الافتراس . وصارت حبيبة الى جميع أمم الأرض .

اتخذت حينئذ الطريق المشروع الى الغنى والثروة ، وهو طريق
التجارة والمنافسة المحمودة واستغلال الموارد الطبيعية ، لا طريق الغصب
والغلاب ، فأخذت تجمع من هذه الطرق المشروعة وتعيش بما تجمع ،
وتوزع منه على مؤسسات البر والعلم في بقاع الأرض ، ثم لا تفجع فيما
تجمع ، ولا تحترق وتدمر معه كما جرى للأمم أوروبا .

وتورطها في الحرب الماضية والحالية انما كان لتأمين هذه الطرق
المشروعة ، وللدفاع عن أقرب الناس الى عقائدها في الحياة (١) .



لقد خطا الانسان بادراكه عقيدة توحيد الله : خطوته العظمى الى الكمال
العقلى والقلبى ، حين رأى أن العالم كله يساق بيد واحدة ، وتوزن أموره
بميزان رب واحد ، فيجب أن يتجه بقلبه اليه وحده .

وسيحطو خطوته العملية والعلمية العظمى ، حين يدرك « الانسانية
الواحدة » ويؤمن بها . وكما حلت عقيدة توحيد الاله مشكلات الاعتقاد ،

(١) يلحظ القارئ أن ما كتب في هذا الكتاب عن الولايات المتحدة الاميركية من حسن
ظن بها كان بدافع مما ساد حياتها قبل الاربعينات والخمسينات والستينات من هذا القرن .
أما في هذه العقود المذكورة ، فإن شيطان الصهيونية وشيطان الاستعمار الجديد قد ظهر انهما
قد ارتدا بها الى تكسة فظيمة موشك أن تقضى على آمال الانسانية فيها ، اذا لم تتداركها
بطولة كبطولة (واشنطن) أو (لنكولن) .

ووجهت الحياة وجهة واحدة ، بعد أن كانت موزعة على أرباب متفرقين .
كذلك سيحل الايمان بوحدة الانسانية مشاكل وعقدا مستعصية ، وتتجه
به الأمم وجهة واحدة ، هى وجهة الخير المشترك ، بدل الخير المتفرق
الضيق الأنانى ، ووجهة العلم البانى المعمر ، بدل العلم المخرب المدمر .

لقد كان منطق الفرقة والتنازع العنيف بين الناس معقولا فى الأزمنة
الماضية التى كان بين الأمم فيها حواجز سميكة من الجهالة والأسفار
الطويلة واللغات المجهولة ، والثقافات المختلفة الى حد التناقض ، وانحطاط
الأهداف ، وكان دور تحكيم الغرائز مقبولا لحمل ذلك الانسان الجاهل
على التسابق العنيف الى كشف بقاع الأرض المجهولة ، لا للذة العلم
وسمو المعرفة ، وانما لمنافعها المادية الضائعة ، اذ لم يكن له علم وعقل
يعنيانه عن الغريزة . وكان الاختلاف الحاد بين الناس متمشيا مع منطق
أحوالهم حينذاك ، لأنه لم يكن هناك أفق عقلى أو علمى أو عملى مشترك
بين أمة وأمة متجاورتين ، بله المتباعدتين ، ولم تكن الظروف لتسمح
بوجود ذلك الأفق المشترك الا عن طريق الحرب التى كادت تكون الوسيلة
الوحيدة للاختلاط بين المتفرقين ، والتعارف بين المتجاهلين ..

أما الآن فقد صار هذا التفرق والتنازع ضارا بالجميع ، قاطعا
للعلاقات التى تنمو فى وقت السلم نموا عظيما غزيرا لم يكن له مثيل فى
العصور الأولى ، وصارت العودة الى تحكيم الغرائز ارتدادا وانتكاسا فى
الحياة كانتكاس الرجل الحليم الى غضب الطفولة الذميم ، اذ قد صار
فى يد الانسان من أدوات الهلاك والدمار أشياء فظيعة تهدم الحياة من
أساسها ، وتسحق براعم نموها ، وتجعل العمل للحياة والسعى لها فى وقت
السلم ، عبثا لا طائل تحته ، ما دامت الحرب تأتى بعد ذلك لتأكل الأخضر
واليابس ولا تبقى ولا تذر .

وقد ثبت الآن أن كل ما يصل اليه العلم من أدوات السيطرة والتغلب
على قوى الطبيعة ، وأدوات ترف الحياة ومباهجها ، يتحول الى أدوات
دمار وابادة اذا ما ثارت بالأمم ثورة الحرب وبراكين الحقد الدفين .

فلا أمان على الحياة من شيء مع غضب الانسان . وقد عاد شعار
الجاهلية القديم الذى كان يهتف به المحاربون القدماء ، وهو تلك
الصيحة : يا منصور أمت !

وكانت الأديان والأخلاق قد جعلت للحرب في العصور المتوسطة
قوانين فيها بقيا على مناطق نمو الحياة ، وفيها ذكرى الود القديم والدم
والنسب وصلة العلم والفن والعمران ، وكانت الحرب تجد في وقت
اخذامها ما يخفف آلامها من نبل الفروسية ، ورحمة القادرين ، ووصايا
القواد بالضعفاء والمرضى والشيوخ والأطفال والنساء والحرث والنسل :
إذا احتربت يوما ففاضت دماؤها تذكرت القرى ففاضت دموعها !

أما الآن فاذا بطشوا بطشوا جبارين ! لا يذكرون طفولة ولا شيخوخة
ولا مخلفات فنون وعلوم وآثار ثمينة ، هي ملك الانسانية جميعها .

ومن كان يظن أن الانسان الأوروبي العالم الفنان الذى، فتنته
أحاسيس الحياة وجن بها جنونا ، فعندها في الزهور والرياحين والحب
والألحان والعناية بالطفولة ، واقتنى التحف والمخلفات الأثرية من الجماجم
والعظام والأحجار والخزات ، ولم يدخر في سبيلها مالا ، وجمع مجموعات
النبات والحيوان ، وحرص على استخراج كنوز الأرض ، والتقى على
صفاء في المجامع العلمية والأدبية والملاعب الرياضية والمؤتمرات العالمية ،
وتبادل تعلم اللغات ، وسكن جميع بقاع الأرض ، وعرف آلام الأجسام
والأرواح ، وأنفق الأموال الطائلة على نبش الأرض ليستخرج منها حلقة
مفقودة تنير له تاريخ الانسانية التى يعتز بها ... من كان يظن أن من فعل
كل أولئك يجزئ على أن يهدم حاضر الانسانية بكل ما حمل في طياته من
الماضى ، ولا يبالي أن يزهد الانسان ومدنه وكل ما حمله عقله وقلبه !!

فأين عالم الدفاتر والمحابر والمنابر والمؤتمرات والمجامع والمعاهد
والمعابد ؟ أين عالم العقول والقلوب ؟ أين الشعر والفن والرحمة والحب
والجمال والخير ؟ أين المعانى التى سجلها الدين والأدب عن الآلام ،
ودارت عليها فلسفات وقصص ومسرحيات ؟ أين مؤسسات الرفق

بالحيوان ؟ أين كل « الدراما » و « التراجيدى » التى كانوا بها ييكون
فى المسارح على آلام الانسانية ؟ !

أكانت ملاهى وملاعب لا أكثر ؟ يا لها اذن من خديعة عبقرية !

ولكن هذه هى الحرب العصرية : صورة مصغرة من أهوال
« القيامة » .. بل القيامة ساعة ثم تنقضى الحياة ويستريح الناس بالموت
الى حين .. ولكن الحرب العصرية « قيامات » لا عدد لها . بها يموت
الناس ويعشون ، ثم يموتون ويعشون ، كلما شنت عليهم غارة جوية الى
أن تضع الحرب أوزارها .

فيا بنى الحياة ! أى حياة هذه ؟ !

ان الله أرحم بالناس من أن يجعلهم مثل هذه الحياة . والناس أرحم
بأنفسهم من أن يحيوا مثلها . انها مرحلة لابد منها فى طريق الانسانية
الشقية الى الاستقرار والراحة واللقاء الذى لابد منه بعد الافتراق
والتقلقل .

ومن بين ظلمات هذه الحرب الخاطفة السريعة يلمع نور السلام البطيء
الطويل ..

ومن بين نيرانها وزلازلها وبراكينها يبدو برد الحياة وثباتها واستقرارها .
ومن بين قسوة القلوب فيها ، بقسوة الآلات والمدمرات تلوح عواطف
الرحمة والحب .

لقد كان من نتائج الحروب الكبرى دائما ابتداء دورة زمنية بالانسان
وانقلاب فى أوضاع الحياة . والذين عاشوا قبل الحرب العظمى الماضيه
وبعدها يدركون الفرق الشاسع بين الحياتين .

هذه السرعة التى فى آلات الحرب ستكون فى آلات السلم مضاعفة
وكما استحال سيف الحرب الى مبضع للطب ، ستستحيل جميع آلات
الدمار الى آلات انتاج وتعمير ورفاهية وهدم للسود والعقبات فى طريق
تعمير الحياة .

ولا شك أن تشبيه الحرب بحادث المخاض والولادة تشبيه صحيح

من كل وجه .. فكل حرب تلد مولودا من الطباع والأوضاع والأفكار
والآلات والمرافق .. مولودا يجدد الحياة ويقذف في شعلتها حطبا !

ولا ضير فيما يصحب ذلك من الألم والدم والهزة والخوف ، فكل
هذه أعراض تصحب حادث الولادة في حياة الانسان .

ولن تضيع سدى تلك الأرواح التي ذهبت قرايين للمعاني السامية
في قلوب الأمم المحاربة لأقرار الحرية والحق والسلام ، وانما هي لبنات
في البناء الخفى للوجود الانسانى .. وانها كلها حية تنظر الى عراك
الجماعات في عالم الظواهر كعراك ذرات تحملها الرياح ، أو حصى يحمله
ماء السيل حتى تبلغ مكانها المرصود في بناء الوجود .

وسواء أوضع حجر في خفاء الأساس ، أم رفع في علانية القمة ،
فالكل بناء واحد .

وتبلغنا أنباء انكسار أمة وانتصار أخرى فلا نلتفت الى الأفراد فيها ،
وانما يعلو عنوانها أو ينخفض ، وهي صورة موحدة ليس فيها توزيع ،
فتفرح كلها بالانتصار ، ولو باد في سبيله كثيرون ، وتستاء كلها بالانهزام
ولو انتصر فيها كل فرد نصرا فرديا ، وأتى بأعمال البطولة المعجزة .

فهل لأصحابنا الفرديين الأنانيين أن ينظروا موضع الفرد من الأمة
في ضوء نار هذه الحرب ، وموضع الأمة من مجموعة الأمم التي تنتسب
اليها ، حتى يتبينوا أنه لا وجود الا للمعاني العامة التي هي ملك الدولة
أو الانسانية جميعها ؟

ان هذه النظرة الى المعاني الكريمة العامة تجعل الناس يحملون السلام
بقلب عارف بها ، ويحاربون اذا كتبت عليهم الحرب بسيف كمباضع
الأطباء : تقطع لتشفى ، وتقتل فتحسن القتل بدون مثله ولا نية اثم أو
جريمة ، وتجعلهم خصوما شرفاء رحماء ، يحاربون بروح رياضية كأنهم
يلعبون ، وتجعل من السيوف ظللا للضعفاء والمسالين .

وتلك نظرة الربانيين المؤمنين بالله وبالانسان : أئمن ودائع الله في
الأرض .

الواحد

البحيرة الكبيرة من المنبع الصغير - هذه الحرب من
قلب واحد - صمامات التيارات العظمى - الفرد المنشود
عالم معقد - التبادل بين الفرد الواحد والانسانية الجامعة
- توزيع الدنيا على الافراد والافراد على الدنيا - من جذور
الشجرة الانسانية الى ثمارها - لابد لجباة الشجرة من
اعتراف كل جزء فيها بكل جزء

تظهر بوضوح قيمة الفرد البشرى الواحد ، ومبلغ آثار تصرفه ، في
تدبير تشرشل أو هتلر أو روزفلت أو اينونو أو ابن سعود أو ستالين
أو أيزنهاور أو أمثالهم ، فإن تصرف أحدهم يجر على أمته اما الحسنى
والفخار ، واما السوء والدمار .

ففى أمثال هؤلاء يتبين كيف يجر فرد شعبه أو العالم وراءه فيخفضه
أو يرفعه . ومعنى هذا أن الفرد البشرى ذو قيمة كبرى في حياة الاجتماع ،
وأن وضعه هذا يحتم على الدولة وعلى العالم أن يخترسا دائما من سوء
تصرفاته ، وما يجلبه على الاجتماع من الضر ، وأن يحفلا دائما بحسن
تصرفاته وما يجلبه الى الاجتماع من النفع .

فتصرف الفرد في الحياة الاجتماعية أشبه بتصرف ماء مستبحر من ثلم
رخو على أرض منخفضة ، يبدأ ضعيفا ، ثم لا يلبث أن يتحول سيلا
حدورا لا استطاع رده .

ومهما قيل في حكم الديمقراطية المطلقة ، والشورى الفضفاضة ، فروح
الاتتقال والبطولة وفتح آفاق جديدة ، تتركز غالبا في فرد واحد ،
وخصوصا عند الأزمات الخطيرة ، ويكون هذا الفرد حينئذ كموضع نبع
الماء في البحيرة التى يكونها ويكون آثاره وعظمته بها ، فموضع النبع
صغير ، ولكنه هو البحيرة الكبيرة في الواقع .

وكيف انبثق هذا الدمار في هذه الحرب على العالم ؟ لقد انبثق من

قلب رجل واحد ملء بالحق والضعف على الذين رأهم لم ينصفوا أمته .
وتجمع الحق والضعف فيه ، وانتقل منه الى أمته ، كما يتجمع القبح
والصديد في رأس « خراج » ، فيصيب جسم صاحبه بالحمى والرعدة ،
ولا يمكن اندماله الا بعد التصفية النهائية .

فهل بعد هذا يحتقر بعض الأمم شئون الفرد الواحد ويتركونه مهملا
زاعمين أنه لا وزن له ازاء الأمة أو العالم ؟ !

وهل قام الخير أو قام الشر الا بواحد ؟ الواحد هو أساس العدو
اللانهاى .

وهكذا ، اذا أراد الله أن يتصل بالناس اتصال تغيير في نظمهم المعاشية
أو السياسية أو الدينية ، وضع يده في قلب واحد ، وسلط منه تيارا خفيا
على الجميع . فاذا كان يريد خيرا بالعالم أطلق تيار الخير من قلب رجل
الخير ، واذا كان يريد قسمة وقصاصا أطلق تيار الصعق والخرق السريع
أو البطيء من قلب رجل الشر .

فلنجهد أن نجعل قلوب الأفراد مواضع ليد الله حين يريد الخير .



والعناية والمشية الالهية التى تخرج وجوه الناس ونفوسهم وعقولهم
صورا شتى متميزة ، مهما كثرت الأعداد ، بحيث لا يتشابه وجهان ، ولا
يتماثل عقلاان في كل شيء ، حتى ولو كانا لتوأمين ، ترشدنا الى أن نرى
في كل فرد جانبا متميزا من الانسانية ، وأنه موضع عناية وقصد من
مخرجه الى الوجود .

ولو فهمت الدولة قيمة القصد في الفرد الواحد ، وخطره في الحياة في
حالتى صلاحه وفساده ، ما كانت تسمح لنفسها أن تترك فردا دون
أن تمر عليه بمنظار مكبر يكشف عن أدوائه ومنافعه .

فالفرد اما بؤرة ظلام ونجس وفساد متنقلة تحمل الجرائم الفتاكة
معهما حيث حلت .. واما بؤرة صلاح وطهارة واشعاع تحمل وتعكس

عوامل الحياة والجمال معها حيث حلت . وشتان ما بينهما ! فكيف نهمله الدولة هذا الاهمال الشنيع وهو ما هو في جسمها ! ؟

لو أفلت فرد شرير شيطاني من قيادتها وحراستها ، اذن : لعاث فسادا في حرثها ونسلها وعمرانها . ولو ضاع فرد ملكي من رعايتها وتعهداتها وتشجيعها ، اذن : لضاع عامل عظيم من عوامل نموها وارتقائها وسعادتها ولعل فيه ما يرفع النوع كله .

ويظن أكثر الناس أنه يكفي لانشاء « الفرد الانساني » أن نطرح بذرة منوية في رحم من الأرحام ، تولد بعد مدة ، فتتمو حتى تكون ذلك الجسم المعهود الذي يملأ أسواق الحياة .. ونسوا أنهم في انشاء شجرهم وغراسهم وحيوانهم يسلطون يقظتهم وعملهم وتعهدهم الدائم ، حتى يحصلوا على ما يريدون من الأصناف المطلوبة المرغوبة ، وأنهم يسهرون لمحاربة الآفات التي تدنو من حرثهم وحيوانهم .

ألا ان الانسان المنشود عالم معقد ، ليس الجسم الظاهر الا وعاءه وقالبه ! اما سره ومعناه ولبابه ، كما يريد رب الحياة من « النوع » ، فأمر لا تظهر الى عالم الاجتماع الا اذا اجتمعت لها عوامل الحياة الصالحة بنسب موزونة .

وان الروح التي عنها يتحدثون ، هي نتيجة تفاعل الحياة الحيوانية في الجسم مع نتائج التربية والبيئة والتعليم وجميع المؤثرات . انها كائن يكون نتيجة وجود هذه العوامل الأرضية المختلفة . وان من أدواتها ذلك اللوح الخفي السريع التأثير ، الذي ينطبع فيه ما يقع عليه أو يتخيل أمامه من المؤثرات .

فالذين يلقون « بذور » الانسان في الأرحام ، ولا ينتقونها قبل القائها ، ولا يهيئون لها الجو الصالح وهي في مستودعها ، ولا البيئة الصالحة وهي في نشأتها ، ويتركونها هكذا تتداولها العوامل الطبيعية مصادفة ، هؤلاء ينبغي ألا ينتظروا من الحياة أن تعطيهم تلك الوحدات الانسانية المنشودة القريبة من الكمال في صفات نوعها .

والانسانية ملك الفرد ، والفرد ملك الانسانية . وما كان من المستطاع أن يحصل الفرد الانساني ما يحصله الآن من الأفكار والمعلومات والتجارب والأرزاق والمتاع لو أنه عاش فريدا متأبدا معتزلا حياة الاجتماع .

فنحن جميعا بازاء بحار المعانى يأخذ كل فرد منا غرفة منها يلونها فى انائه بلونه الخاص ، ثم يقدمها الى غيره من الناس . وكلما أضيف فرد الى المجموع ، زاد أفق من آفاق الحياة فى الأرض . ولن يمكن أن يحل فرد محل آخر ، فان كل ثمرة انسانية لها سر خاص لا يرى فى سواها . وانى ما جلست مجلسا مع فرد ما ، الا رأيت فيه صورة للعالم لست أراها مع غيره .

ومن العجيب أن كل فكر يريد أن يطبع الانسانية على غراره هو ويحملها على حياة تصدق منطقها الخاص ، مع أن التوزيع والتمايز بين الوحدات الانسانية قانون مطرد .

وينطوى فكر كل فرد على صورة للعالم غير الصور التى فى أفكار الآخرين ، فكل فرد يرى الدنيا من خلال نفسه ، وكأن الأكوام عدد العقول ..

وما أعجب أن تقرأ وجوه الناس ورءوسهم ايضا انها صفحات يبدو للناظر العجول أنها سطحية ضحلة ، ولكنها للناظر المتملى المنقوس ، تقذف به الى لا نهائية ذات أعماق .. والعيون هى مسالك تلك الأعماق !

هكذا يثير وجه كل فرد وعقله صورة من صور الدنيا . وكل فرد كأنه الحياة كلها مستقلة ، حتى ليخيل اليك أن الدنيا الانسانية تنقص بسوت فرد واحد ، وأن مكانه لا يملؤه غيره ، سواء علا أم سفل علم أم جهل فتوزيع الدنيا على الأشخاص وتوزيع الأشخاص على الدنيا ، يعطى صورة فنية أو حبكة مسرحية يحشد فيها الفن الرفيع ، والاخراج البديع .

ولذلك قالت التوراة والقرآن : « أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا .. » .

ومن هنا جاءت قداسة الحياة الفردية في الشرائع ، واستنكر الاعتداء عليها استنكارا اجماعيا . وقد أعطت الانسانية الفرد حرية تخيلاتها لنفسها ، واستوحيتها من احساسها العام وضميرها المشترك .



والانسانية كجسم شجرة واحدة : فيها جذور لا بد أن تعيش في الطين والظلام والعفونة ، لتحلل غذاءها وتأخذ عناصر بسيطة تركب منه ما تشاء من اللباب والقشور والأزهار والثمار والعطور ، الى آخر ما في عالم الأشجار .

وفيهما سيقان لا بد منها لتحمل غيرها وترفعه الى عالم الجو والضوء والتسمات .

وفيهما أوراق تبلغ من الكثرة حدا كبيرا يرتفع الى مستوى الزينة ويشترك في صميم العمل الضروري لحياة الشجرة ، لأنها « رئات » يتنفس بها الشجر .

وفيهما أزهار وهبها واهب الحياة العطر والجمال ، وأخرج فيها روحا خاصا يخيل للناس أنها ليست من عالم الطين والعفونة والتحلل والظلام . وفيها ثمرات هي صناديق أسرار الشجرة ومستودع حياتها المقبلة ، وهي روح الشجرة ، تحمل سر نوعها من الماضي للمستقبل .

ولا مفر من اعتراف كل جزء من الشجرة بكل جزء آخر لتجيا جميعها ، ولا بد أن يعلم كل جزء أنه وضع في موضعه الرفيع أو الوضع ، ليخدم نفسه ويخدم الجميع . والسفالة في الموضع أو العلو فيه ، والعلانية أو الخفاء ، كلها نظرات اعتبارية في الظاهر . والحقيقة أن نصيب العمل واحد ، والنتيجة واحدة : هي حياة الشجرة بحياة أجزائها ، وحياة الأجزاء بحياة الأم .

وينبغي ألا ينظر جزء من الشجرة لآخر نظرة حسد أو ازدراء ، وإنما ينظر نظرة طاعة لليد التي وضعت في هذا الكل ليؤدي دوره وخدمته .

ويكفى عزاء لما سفل واختفى أن حباته كثيرا ما تكون أثبت وأدوم
مما علا ، ويكفى عزاء لما علا وارتفع عن سرعة فئائه أنه أجمل وأشهر .
وكلا المعنيين جدير أن يحار بينه وبين قسميه الاختيار !

ألا اننا ممثلون نؤدي أدوارا يرسمها ويحملنا عليها مؤلف رواية الحياة
ومخرجها ، بديع السموات والأرض ! فينبغي أن نعرف مواضعنا الحقيقية
من الكون ، وأدوارنا فيه ، لنؤديها على أكمل وجه ، ثم نخفى وراء
« الكواليس » الى يوم اصدار الرواية الأخرى التى سنؤديها فى المسرح
الأكبر ، فى الكون الواسع !



فقط ، اضمنوا لكل عامل بارع ، مهما كانت مواد عمله خسيسة
أو كريمة ، مكافأة وتكريما وتعظيما لمواهبه ، ولا تقصروا اهتمامكم
وتمجيدكم على الأجزاء الرفيعة الملونة المزوقة من شجرة الانسانية ؛
كالباسة والحكام والأثرياء ومن اليهم ، من الذين خصهم المجتمع الجاهلى
بالاحترام ؛ بل امنحوا وقدموا ذلك الاهتمام والتمجيد لكل عامل بارع فى
عمل من أعمال الحياة الانسانية ، تفتح لكم أبواب من سعادة الحياة
ما كنتم تتصورون أن وراءها شيئا ذا قيمة وتأثير فى حياتكم يعادل تأثير
السياسة والحكم وما اليهما .

اقضوا على تخصيص الحكام وذوى السلطان والثراء بتعظيمكم
وخشيتكم ، وانظروا لغيرهم كذلك من العمال ولو كانوا كناسين ،
وكرمهم كرامتهم ، فان لهم فى الدولة أثرا لا بد منه كآثار « أصحاب
الدولة ! »

الولسوة والصّدفة

رد على « نبي » النازية « نيتشه » الذي كان إيمان
« هبلر » بفلسفته في عبادة البطش والخيلاء والكدياء
أعظم سبب في فداحة جرائم الألمان في هذه الحرب



رحمة القبح والنقص - الفارون من الزحام - النقص
هو مادة فن الضحك والتهريج - الشعور بالنقص وخدمته
للحياة - عبقریات الغباء - في سعي الذكاء - الحذر
من جموح الذكاء - تبادل الفهم بين العاجزين والعادين

مات صديقي المفكر المخلص ، المشوه الخلق ، المحروم من الجاه
والثروة ، الموهوب من الحكمة وصدق الاحساس ، فتحررت أفكاره
العظيمة من شخصه الضعيف وجاهه المغمور ، واقطعت الصلة بين الكاتب
الضئيل والمكتوب العظيم ، وابتدأت كلماته تدب فيها الروح وتبرز
مستعلنة بهيئتها المجردة من هلهلات ملابسه وسقم جسمه ومهانة فقره !

وكان يدرك ما يجول بخواطر الناس عنه حين يغشى مجالسهم ويحتك
بهم ، من الاستصغار لشأنه ونبو البصر عنه ، فكان يجتهد أن ينأى عنهم ،
ويتخرج أن يغشى مجامعهم التي يعرضون فيها أجسامهم الرشيقة وملابسهم
الأنيقة ، وأحاديثهم اللبقة التي يتحدثون فيها عن أنانيتهم واختباراتهم في
علائق الطين والذهب ، وضجيج المخاصمات والمنازعات التي لا تتصل
بصميم الحياة ولبابها ، ولا بقدس الفكر وحقائق العلم .

ولم يشأ أن يترك صورة لشخصه ، حتى لا يقترن وجهه — وكان
ديم الخلق — بأفكاره وميراثه الروحي ، فتذهب قباحة بزه وهيته ،
بقداسه فكره ونزاهة حكمته . وقال : أتركها كلمات يتيمة محبرة من
وجهي وجملة جسدي ، كما تلقيتها كلمات طليقة محررة انسربت الى
فؤادي موجات عذراء ليس لها نسب الا ضمير الكون !

وكان يشعر بجسمه الناقص شعورا عميقا عسافا عصف بزهرة

صباه وضحة شبابه ؛ اذ كان مبكر الحساسية بذاته وشذوذها عن ذوات أترابه ولداته ؛ وضاعف من آلام شعوره يشذوذه الجسمى ما كان يلقاه من عبث أولئك الرفاق الصغار به ، وسخريتهم من قماءته وخروج خلقة على غير استواء .

وفي قلوب الصغار جبروت وقساوة لا ترحم الضعف أو القبح في حيوان ولا انسان ، اذ لم يعودوا أن يستقبلوا الدنيا بشئ من فلسفة رحمة النقص والقبح ، لأن القبيح أو الناقص لم يخلق نفسه ؛ ولم يخير هواه ، ولو خير لاختار وكان المذهب الكامل الجميل .

ولما مضت به السن من بيئة الطفولة العابثة الساخرة بألوان من السخرية الصريحة القاسية ، وأقبلت به على بيئة الشباب الذى عرف من ضروب الحياة ألوانا من النفاق الاجتماعى ، وعرف من آداب الاجتماع أنواع المجاملة والمصانعة التى قد تخفى من الرحمة والثناء او الهزء المتع والسخر المبرقع ، أقسى أنواع الايذاء على النفس الحساسة الشاعرة بنقصها بين الكاملين ، أيقن انه لا قبل له بزحمة الاجتماع ، ولا احتمال منه لضغطه وقسوته ؛ فأخذ ينأى عن موارد الحياة الاجتماعية وانحاز الى نفسه وحدها ، وانطوى عليها فى صبر وسكينة وبراءة صدر من ذلك الغل والحقد الذى يعتري كثيرا من الناقصين ، حين يطاردهم زحام الكاملين القادرين الذين سلحوا بالغفلة أو الفجور أو بالاقتحام او بالثروة او بالجاه ، فينقلب الناقصون الى أبواق سخط وبؤر تشاؤم ومصادر اجرام ليحصلوا ما فاتهم الحصول عليه من طريق السباق الشريف والمواهب القادرة ، أو ليحطموا المتاع الذى لم ينالوا منه شيئا ونال منه غيرهم اى منال !

قلت له مرة : — يا كمال — وكان هذا اسمه ! وكأنه كان من تمام سخرية الظروف به — انك لا تصلح لجد الحياة وصرامتها التى أخذت بها نفسك ، لأن للجد والصرامة أدوات مادية من السمات والقامة والقوة تكون اطارا لازما لمعانيتها ، وليس لك من ذلك شئ ! وانما أراك تصلح لعبث الحياة وبجوحاتها وأضاحيكها التى تفرج عنك ضيق ذلك الجد

الذى حبست فيه نفسك ، وتفرج عن الناس حين يرون منك الاعتراف
بنقصك ، واستغلالك اياه فى العبث بالحياة والناس وبنفسك ، أو يكون
هذا على الأقل وسيلتك الايجابية لاثبات وجودك فى هذا المجتمع الذى
يصيح فيه كل شخص لاثبات شخصه والاعلان عن ذاتيته .

فقال : « تعلم عنى ، منذ طفولتنا ، أنى برغم نقصى تعشقت الكمال
وهمت به ، وأنا اعلم انى لا امثله ، وان الأرواح لى وللناس ان ارسل
نفسى على سجيتهما ، فأعترف بعجزها ونقصها ، وأستخدمها فى فن
الضحك والتضجيك على الأقل ، وأعلم أنى حينئذ أكون قريبا الى قلوب
الناس حين ارضى احساسهم بكمال شخصياتهم بمضاهاتها بنقص
شخصيتى . ولكنى من أجل عشقى للكمال وشدة شوقى اليه ، تسكت
بالسبب الوحيد الذى أتيح لى منه ، وهو هذه السكينة وهذه العزلة
النفسية ، وهذا الرضا المستسلم بالواقع المقسوم لى من حظ الدنيا .
وهو الفكر المخلص الذى يرصد الحياة والناس بعين غريب عن الحياة
والناس . وانك لا تدري ما أهتدى اليه من فجوات لا يهتدى اليها
المغمورون بضجة الحياة ، القادرون على الخوض فى زحامها . ودائما يلقط
الضعيف ما فات القوى ، وكثيرا ما يفوت ! فالقوى دائما مشغول بعنف
نفسه وكثرة ما يحصله من مظاهر الحياة عن الاشتغال بما تحت الظاهر .
والضعف يسبب للضعيف الذكى يقطته الى ما يفعله القوى وما يتركه ،
ويجعله يظفر بالحق المغمور فى دنيا القوة ، والتجربة دلت على أن الضعفاء
أو الذين فيهم « مركب نقص » هم من خدام الحياة ، وموطدى الاجتماع
على أساس الحق والواجب والرحمة والعدالة .

ثم قال : ان الحياة مدينة لنا نحن الناقصين بأعظم نصيب . . وان
الأقوياء المدلين بقدرتهم على الخوض فى معترك الحياة لا يدركون أن
الشعور بالنقص أعظم عامل فى حمل اصحابه على الاتاج ومتابعة خطوات
الكسالى الحضارى والخلقى .. لأن الفاقد يدرك لذة الواجد وحولها هالة
من أحلام الحرمان .. ولأن الناقص يكمل الحياة بارهاف حسه
بالفجوات التى فى حياته وحياة الناس ، ويزيد عليها ما لم يستطع أن

يحتفه في نفسه . والاستعراض التاريخي لمن كملوا الحياة من العلماء
والحكماء والصالحين يكفي أن يقيم الدليل على تلك الدعوى . فقد كان
دائما الرواد في الخلق والسلوك والعمل والانتاج هم من يشعرون بعدم
القدرة على الخوض في معترك مظاهر الحياة مع الأقوياء المسلحين بأدوات
القدرة على الزحام . ثم قال : من أجل ذلك تحملت العزلة والحرمان من
المتاع بالناس ، لأفكر في وضعى ووضع أمثالى ، ولأذود قسوة الجاهلين
عن الضعفاء والشاذين . ولأحاول أحداث انقلاب فى نظرة أولئك لهؤلاء
حتى يروا أنهم شركاؤهم فى خدمة الحياة شركة متساوية ، وأنهم حتى
ولو كان شذوذهم وضعفهم عن غباوة وتخلف ذهن ، هم وحدات من
الانسانية لا غنى عنها ، وأن للغباوة عبقرية كعبقرية الذكاء ! ! هى عبقرية
الصبر والاحتمال والقيام بتوافه الأعمال التى لا غنى للحياة عنها ، والسير
فى الحياة فى ذهول ورضا وقدرة على تقبل العمل الرتيب المكرور فى غير
سأم ولا ملل !

فلئن كان للذكى فضل السبق الى كشف واحات جديدة فى الحياة ،
وفضل اضافة ما ليس منها أو تنقيح ما يستحق التنقيح فيها ، فللغنى فضل
عظيم فى احتمال واقع الحياة بدون تدمير وكفران ، وعدم تطلع الى شئ
غير ما كان : وفى التعبد للحياة والتعلق بها .

وله كذلك فضل الرضا بما يكلفه فيها من عمل ضرورى حقير
كالكنس والكسح والخدمة وما إليها . وانى أتخيل الحياة خالية من
المحدودين فى آمالهم وعقولهم ، فأراها حينئذ سعيًا محتدما بين الأذكىاء
القادرين الذين يتطلعون جميعا الى السيطرة والسيادة ، ولديهم وسائل
الخدعة والغلبة ، وفيهم الحسد والقلق والحقد والنفاق والجراة
والاقتحام . ! فالذكى دائما منتفض على الحاضر ، يحاول أن يغير
ما يحيط به ، ويخلق لنفسه عالما آخر يكون هو وحده رأسه وغيره
الذئابى .. وان الذئب أذكى من الحمار والشاة ، ولكن شتان بين
نفعهما للحياة ، واضرارهما بها ! ولذلك أهدرت الحياة ذكاءه وطاردته ،
شأنها مع كل ذكاء بارع يعتدى على قوانينها فى سبيل غاية شخصية ،

لأن الذى يهدم دعامة بيت ليستعملها أرجوحة مزوقة يتمتع بها ، يجب عقابه واهداره مهما كان عظيم الصناعة بارع الابتنان .. وقد ثبت أن عالم الذكاء الانسانى يشتط كثيرا فى الخروج عن نطاق الطبيعة وحدودها ؛ ويأتى بأشياء غريبة عنها ؛ فيجب الاحتراس منه !

وأغلب ذكاء أذكىائنا القادرين وعلومهم كذكاء الثعابين والذئاب ، لا رحمة معه ؛ ولا خلق ولا شعور بالمسئولية الاجتماعية ، ولا بالمعانى السامية التى تحمل على العطف والتواضع ورحمة النقص وتقدير حياة الأقل ذكاء وقدرة . فكلهم يخاتل ولا يخلص للجماعة ، لأنه لم يشعر بالجسم الاجتماعى الواحد ، ولم يؤمن بعقيدة النوع .

ان الأولي أن نعتقد أن الحياة الاجتماعية مبادلة بين القادرين الأذكى والعاجزين الأغبياء . فلقد أخذ الآخرون من الأولين عبقرية الفكر وانتفعوا بها ، وأخذ الأولون من الآخرين عبقرية الصبر والاحتمال والعمل وانتفعوا بها كذلك لتحقيق أفكارهم وأحلامهم . وأكثر من ذلك : أخذوا منهم غفلتهم وتقائص خلقتهم وصيروها « قفشات » وتهريجات وأضحك أوسعت مدى أفراحهم ومباهجهم وسلواهم جميعا ساخرين ومسخورا منهم .

ثم قال : تلك هى التعزية عن حياتى وحياة أمثالى من الذين خرجوا على غير استواء .. جنت عليهم الجهالة القديمة ، وأوشكت الثقافات والتأملات الحديثة ان تنصفهم وتضعهم مواضعهم فى خدمة الحياة مع خدمات القادرين الكاملين .. ولولا ضعف قوتى وهوانى على الناس ، وقلة أدواتى المادية للدعاية بين الجماهير لهذه المعانى ، لصدت بها دعوة الى تكريم كل كائن بشرى والعناية به ، وتفهم الحكمة فيه مهما بدا به من نقص ظاهرى ؛ فليس المهم أن يكون المرء تاجا على رأس الانسانية ، وانما المهم أن يكون نافعا ولو كان نعلا لها !

* * *

استمعت فى عجب الى هذا الحديث الصادق الذى دوى فى فؤادى ، ووجه فكرى لبعض أسرار الانسان ، وجعلنى وأنا من « وحدات »

الإنسان العادى الذى لا يشعر بنقص يخيّل اليه ذلك — أتضاءل أمام هذا الذى ينبو عنه نظر أكثر الناس ازدراء له وتهوينا من شأنه ، وتذكرت به لباب الانسانية الذى ضيعه وأخطأه الناس وراحوا يبحثون عن التشور المزوقة . وقيسون المرء بعرضه وطوله ، ولونه وثيابه ، مغذلين وزنه من أصغريه : قلبه ولسانه .

نم قلت له : لقد كنت أرثى بعض الرثاء لك ولأمثالك ممن أخطأهم . عظم كمال الأجسام واصابوا من كمال الفكر والروح .. ولعلّى الآن أرثى لنفسي وأمثالى ممن لا يفقهون كثيرا من أسرار الحياة ، ولا يبقى منهم شئ حين يضرّح لهم فى القبور التى يستوى لديها جسم العملاق وجسم النقيس والوجه الجميل المصقول والوجه المقبوح المسوخ ، ولا يستعصى على ظلماتها الا نور الفكر والروح اللذين ليسا مما يحمل الى القبور ، وانما يخلدان فى الأفئدة والصحف والسطور !

فقال : لا ترث لأمثالى ولا ترث لأمثالك .. فانما نحن جميعا نمثل « رواية » الحياة التى لا بد فيها من اختلاف شخصيات التمثيل وأنواع الأدوار . حتى لا تكون الرواية حديث شخص واحد ، وموقف ممثل واحد يتكرر تكرر الرقم الواحد فى الملايين .

لا رثاء .. وانما فهم وتفاهم وتبادل تقدير ، وتساوى نظرات من الأعلى للأدنى والأدنى للأعلى ، ان صح أن فينا أعلا وأدنى .. وذلك كله من حدود عقيدة النوع .



لقد مضى « الجسم » الناقص ، وخلف هذا الكلام الكامل .

ولا عجب فالنحل ، وهو ذباب ، يخلف الشهد المصفى ..

وقد أحسن حين لم يترك صورة « للصدفة » الخسيسة ، حتى لا تجنى على « اللؤلؤة » النفيسة ، بل تركها درة عذراء ، ليس لها نسب الا جيد الغادة الحسناء المعشوقة : الانسانية !

الفكر والسلطة

أثر التناقض بين مافى النفس ومافى خارجها - صفات
الأب الشعبى - أرسقراطية الفكر محمودة - السياسة
على قوانىن الفضيلة - المفاح بين جرائم حب المال وحرانىم
حب السيطرة - دولة الاحلام فى حكم المفكرىن الصدىنىى
- أىهما أصلىح للحياة ولرجال الفكر ؟ - العىش أولا
ثم التفلسف - اقتراحى للاصلاح السرىع - الحكمة ضرورية
على المفكر الصالىح

تمنىت ولا أزال أتمنى ان يكون رجال الحكم فى كل أمة هم رجال
القمة فى الفكر والخلق والقدرة على تربية الشعوب ؛ فان هذا هو الوضع
الصحيح للحياة الاجتماعية التى يستقىم فىها كل شىء ، وىؤمن المرء فىها
بنفسه وبأمنته وبالأنسانية جمىعا ؛ اذ لا ىجد فى الحياة تناقضا بين المشل
العلىا والقوانىن المرسومة فى الكتب ، والواضحة فى نظام الطبيعة ، وىن
الوقائع العملية التى ىسیر بها الناس . وحيث لا تناقض بين ما فى النفس
وما فى خارج النفس ، فهناك السعادة ، وهناك الايمان ، وهناك الأمل
والعمل المطرد .

انه الذى يؤهل الأب لأن ىكون قىما فى الأسرة ، هو بذاته الذى
ىغول الحاکم والسلطان أن ىكون قىما فى مجموع الأسر . وأولى صفات
الأب ، الفكر والرشد الممتاز ، والعدالة بين ابنائه ، والحب لهم جمىعا .
والحكم كالأبوة : وصاية وخدمة وقىام على الناس بالرعاية والاصلاح
والعدل ، لا سیادة وسلطان ، أو مكاثرة ، أو حب تسخیر للناس ، أو
طلب للامتیاز علیهم ، أو اتقاء لشرور سلطة أخرى ، الى آخر أسباب
الحكم التى تواضعت علیها جاهلیة الناس .

وكما ان الأب فى الغالب هو اكبر اهل البىت عقلا ، وأقدرهم على
الكسب والانتاج والاصلاح ؛ كذلك ىجب ان ىكون « الأب الشعبى »
أى الحاکم الراعى ..

وفد أغفل الناس هذه البديهة في الحكم ، ووسدوا الأمر الى غير أهله الطبيعيين ، وصار مالكو رقاب الناس ، وموجهو الأمم ، غير رجال القمة في الفكر والخلق ومعرفة اتجاهات الحياة ؛ وانما هم المحترفون للسياسة ، والجائعون للنهرة ، والعاشقون للجاء والمناصب والبطلش والخيلاء ، والجاهلون بعلوم النفس والتربية وأرصاد القدر وسير قافلة الحياة بالأحياء .. الذين صعدوا الى المناصب بالمكر والخديعة والدجل السياسى لا بالطبع الكريم ، والفكر الناضج ، والمجهود الصالح والخدمة النافعة .. الذين نفوسهم نفوس عوام ؛ أوهم جعلوا همهم تملق العوام والنزول اليهم ؛ بدل أن يرفعوهم بالتربية وقسوة الآباء التى لا بد منها فى بعض الأحيان ..

و « الأرستقراطية » فى الفكر ضرورية للاجتماع ، وليست بغيضة كالأرستقراطية فى المال ؛ اذ لو اتبع الحكماء أكثر الدهماء ، ما خطبوا بالانسانية خطواتها فى الترقى ، وما وصلوا بها الى شئ من اسباب سموها وهداها .

والمحترفون للسياسة ، وعشاق المناصب ، يجعلون همهم تملق العوام ليركبوهم الى المناصب . أما العلماء والمجاهدون فى سبيل الفكر ، فهم الذين يحملون الناس على آكتافهم الى واحات السلام والصالح والاتقاع . وقد يضربهم الناس ويهينونهم كما يهينون الدواب التى تحمل متاعهم .. ومع ذلك لا يتخلفون عن أداء رسالاتهم فى نقل الناس من سئ الى حسن ، ومن حسن الى أحسن .

ان رجال الفكر المخلصين للحقيقة ، الباحثين دائما عنها ، الحاملين بصور الكمال ، هم وحدهم الذين لا تبطرهم المناصب والرياسات ، ولا يسعون لها الا لأنها تمكنهم من تحقيق ما يحلمون به من وسائل الاصلاح واسعاد الناس ، وهم الذين يقيمون السياسة على قوانين الفضيلة ، لا على الختل والخداع وتصيد المال والخيلاء بالجاه .

واعتقداى أن شقاء الانسان السياسى ناتج من أن اكثر رجال السياسة الآن صاروا بعيدين عن الأفكار العليا الحرة ، وصاروا تابعين

رجال المال الذين يبعدون عنهم كل ذى فكر واحلام ومثل عليا في الروح .

وعالم المال بؤرة للشهوات العنيفة ، والغرائز الحادة ، والمنافسة الذميمة ، وشراهة التملك ، وتبرير الوساطة والخوف من التغير والتحول .

وقد نشأ من اللقاح بين جرائم هذين الصنفين : محبى تملك الرقاب ومحبى تملك المال ، ذلك الانسان السياسى الفظيع الذى يخدع القطيع ويلعب به ويحلبه ويسوقه ويذبحه حين الضرورة الشخصية على مذابح الهوان والظلم ! ولن تتخلص الأمم من شقائها وفوضى حياتها ، الا اذا اختارت رجال حكمها من بين مفكريها الذين لهم روح تهيم بالكمال ، ولهم قدرة عملية على التنظيم وفن « الاخراج » والتنفيذ ، ولهم مع هاتين الهيتين شخصية قوية تصون المنصب وتخلع عليه من هيبتها وسيادتها الذاتية .

فعلى الأمم أن تبحث عن هذا الطراز المفكر العامل ، القوى الشخصية بين رجالها وشبابها الناشئين ، وأن تربيته في مدارس خاصة بتخريج الحكام ، يكون لها برامج تكفل انضاج الفكر الحاكم السائس المربى .

* * *

وحين يوجد الفيلسوف الحاكم يكون التناسق والتربية النفسية وحياة الحقيقة والرضا عن الوطن و « المواطنين » .

وقد كان عهد الانسان الكامل (محمد) وعهود خلفائه الراشدين أمثلة عظيمة في حكم المفكرين الصديقين القديسين في الزمان القديم . وكان عهد الرئيس الدكتور (مازاريك) في « تشيكوسلوفاكيا » مثالا صالحا للحكم تحت وصاية أرباب الفكر المحدثين الذين لا يتحجرون في قوالب الواقع السيء .

فقد فاق « شعبه » تحت حكمه جيرانهم جميعا ، حتى الألمان ؛ فاقوهم في التنظيم الادارى والاقتصادى والرياضى والعسكرى

والاجتماعى : اذ أنهم كانوا تحت وصاية رجل بصير ، بأفاق الحياة ،
مدرك اتجاهاتها ، برىء السيرة والسريرة من آفات محترفى السياسة
الطالبين للمناصب .



ولكن هل من الخير لرجال الفكر أنفسهم أن يعهد اليهم امر الناس
وتدبير سياستهم ومعايشهم ؟ ان لذة الفكر المجرد والهدوء الذى يفسر
عالمه ، والأنس به ، والأحلام فيه ، والاتقطاع اليه ، شىء عظيم قد يفضله
كثير من المفكرين على الاشتغال بصغائر الحياة العملية ، ومضايقات
سياسة الناس وتدبير أمورهم ، ولو كان مع هذا جاه ومال وسلطان
وقوة وشهرة .

بل ان أكثر الذين أخلصوا للفكر والفن ، يضيّقون ذرعا بحياة
الناس العسلىة ، ويخلقون لهم جوا خاصا بهم يعيشون فيه وحدهم ، ولا
يعدلون به سواه . ولذلك فال الجاحظ ما معناه : « ما لذة الأسد بلطم
الدم بأعظم من لذة العالم بعلمه » . وقال أحد الصوفية : « لو علم الملوك
ما عندنا من اللذات لقاتلونا عليها » .

وقد صور « جبران خليل جبران » وجدانى رجل الأدب ورجل
النشب ونظرتيهما للحياة حين قال : « تبادل غنى وأديب النشب والأديب
فرأى الأديب ما بيده حفنة من تراب ، ورأى الغنى ما براسه نفخة من
ضباب .. »

فهل يلذ المفكرين أن ينزلوا عن أبراجهم العاجية المليئة بصور الكمال
والجمال والهدوء الى دنيا الواقع المليئة بالصخب والتشويش والمتاعب ؟
وهل من الخير للحياة أن يظل رجال الفكر فى نظرياتهم واحلامهم
يتصيدونها من آفاق بعيدة ، ويؤلفون صورها ، ويدمنون ذلك وينقطعون
اليه ، حتى يكثروا أمام الناس صور الكمال ، وأن يتركوا للملوك
والساسة العمليين ان يأخذوا منها الجانب الذى يروقهم ويحلوا لهم
تطبيقه فى أساليب حكمهم ؟ أم ان من الخير للحياة ان يتولى رجال الفكر

بأنفسهم تنفيذ ما فكروا فيه ووقفوا اليه ، ولو قطعهم ذلك عن اتساج
الأفكار الكثيرة الرائعة ؟

وهل من الخير للرجل أن يخلد ويذكره التاريخ على أنه مفكر او
فنان ، او ان يذكره على انه حاكم سديد مصلح ؟

ان النتائج العلمى والفنى قد يبقى كما هو دائما فى الكتب والدواوين
والآثار ، يراه الناس كما كان فى عهد صاحبه ، ولكن تتساج الحكم
والاصلاح مؤقت بحياة صاحبه ، فلا تدركه الأجيال التالية ، الا بالحكاية
عنه والسماع ، وليس فيه خلود ذاتى كالأثر الفكرى والفنى ، وانما
خلوده بتطبيقه على الحياة العملية . وهذا طبعا ليس مطردا ولا كثير
الوجود فى جميع العصور .

فحياة الاصلاح والقوة فى زمن عمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد
العزیز مثلا ، انقضت بانقضائهما ، وصار الحديث عنها حكاية مضى
أشخاصها ، وقليل أن يقتدى بهما حاكم آخر ، ولكن حياة اى كتاب
دينى او علمى او فنى تبقى تمثل نفس صاحبها ومنتجها دائما .

ومع هذا يجدر بنا ان نعلم ان حياة الفكر وحده لا فائدة منها الا
لفترات « الترف العقلى » والترف العقلى كالترف المالى ، ما هو الا
شهوة .. شهوة رفيعة .

نعم ان للعقل شهوات كشهوات الغرائز ! فالمفكر أو الشاعر الذى
يتفرغ لعالمه الخاص ، ويترك العمل على اصلاح ما يحيط به ، ما هو الا
كالمدمن على الخمر أو القمار ؛ اذ يغيب عن حياة المجموع ، ولا يجعل بين
عقله النظرى والعقل العملى صلة .

والسؤال الذى يجب أن يقدم قبل البحث فى هذا هو : أمن الخير
للحياة ان تقدم للشعب الفقير المريض المحتاج دواء وحياة عادلة ، ام ان
تقدم له لحنا جميلا ، او شعرا رائعا ، او نظرية كمالية ؟

أعتقد بصدق الحكمة اللاتينية القديمة « عيش أولا ثم تفلسف » .

والحياة العملية هى الحكم فى هذا . وقد قل الجهد والفكر القديمان اللذان كانا يدوران على اللذة القاصرة . وأتى عصر الفكر العلمى الذى ينتج محصولا ينفع الناس فى حل « مشكلات العيش » .

فصاحب الفكر التجريبي الآن صار صاحب الخطوة ، والخالد الأثر عند الناس ، لأنه يشتغل فيما يعود بالنفع عليهم جميعا .

وقد جانبت الحياة الحالية من لا ينتج شيئا يصح انتفاع الناس جميعا به ، واحتضنت كل من يقدم لها المنافع ، وأغدقت عليه الجاه والسمة .

* * *

وينبغي أن ينصرف حديثنا هذا الى غير العلماء الطبيعيين الذين يكشفون عن أسرار الطبيعة . فهؤلاء لهم أن يتفرغوا ويعيشوا فى عالمهم وحدهم، الا اذا كانت لهم قدرة على الجمع بين حياة الحكم وحياة هذا اللون من العلم .

أما الذين يفكرون فى النظريات الأدبية ، ويدرسون الاجتماع ويضعون فلسفته ، فيجب أن يختار منهم من يستطيع الاضطلاع بأعباء الحكم وتطبيق النظريات على الواقع .

ويجب أن يعلموا أن المفكر الناجح هو من يلهم فكرة ، ثم يصنع بها أمة أو جماعة .

ويخيل الى أن كل الجهود الفكرية التى ليست داخلية فى منطقة العمل هى هوى ذاتى وترف عقلى .

اننا لانسك ديوان شعر ، أو نسمع لحنا ، أو نقرأ قصصا أو تاريخا ، الا اذا فرغنا من أعمالنا المعاشية ، وأقبلنا على أوقات الفراغ نستمتع بها ، ولنا يقبل على هذه الألوان فى جميع الأوقات الاهاو مستغرق ، أو محترف مرتزق .

اننى أعتقد أنه يجب للإصلاح السريع فى أى بلد متخلف أن يضحى أهلها بعيشة الترف العقلى مدة موقوتة ، تغلق فيها جميع المعاهد العالية

سنة أو سنتين اذا لزم الأمر ، ويحشد جميع أساتذتها وطلابها للخدمة العامة والاشترك في حركات الاصلاح الاولى ، وترك التفرغ للبحوث الفكرية والهوايات الفنية ، وتفرغ لتدبير أمور الجماهرة الجاهلة من الأمة حتى يعلو مستواها ويتقارب مع مستويات الأمم التي سبقتها في التعليم والاصلاح .

قد يبدو هذا غريبا عجيبا .. ولكن هو ما أعتقد ، لأنى أرى وجود المريض جدا بجانب الصحيح جدا ، يفقد بهجة الحياة لدى الصحيح ، ويؤلم المريض بالحسد والنظر المحروم . وأرى أن الأولى للعالم والمفكر ألا يوغل في علمه وفكره بينما يترك غيره جهلاء لا يفهمونه ولا يقدرونه .

ووجود عدد من جهابذة العلماء بجانب ملايين الجهلة التعساء المرضى هو بذاته كوجود الميادين والشوارع الجميلة في المدن المكدودة ، بجانب آلاف القرى التي تقام من الطين والسرجين والأحطاب والمستنقعات .

فعلى هذا ينبغي أن يعلم الأدباء والمفكرون أن عملا صالحا يقدمونه في حكم صالح يسعون اليه ، أولى ألف مرة من تقديم قصيدة رائعة ، أو مقالة بارعة ، أو فكرة عبقرية غير عملية ؛ إذ أن هذا العمل الصالح المشرأنا لدى آلاف من القلوب المحرومة ، وأسرع الى اسعادها وأدنى الى أسلوب الله في نفع عبادة ؛ فهو يعمل لهم كثيرا في تدبير الطبيعة ولا يتكلم الا قليلا في كتب معدودة ..

وان قانونا عادلا يضعه لأمتة حاكم رشيد ، لأتفع ألف مرة من جملة كتب تعرض أفكارا عالمية للترف العقلى ؛ لأن القانون العادل يضمن ضرورات الحياة للناس جميعا . أما كتب الترف ، فتضمن الحياة المترفة لبعض الناس .

ولو ترك محمد (عليه الصلاة والسلام) القرآن من غير أن يترك أمة قد قام عليها بالتربية والحكم والتوجيه والتعليم ، لظل القرآن ككتاب من الكتب لمؤلف من المؤلفين .. ولكنه عمل وجاهد كما أمره منزل القرآن ،

حتى صنع أمة تجسدت في أشخاصها معاني هذا الكتاب ، فأخذ يسعى بهم وصاروا هم كلمات حية تشرح آياته .

وأظن أن سعادة الرجل الذي ينجح في تطبيق مشروع يسعد الناس ، تروى كثيرا على سعادته باخراج أثر فكري أو فني حبيس في الورق .

فليحمل الأدباء والمفكرون نصيبا من الخدمة العملية ، وليروضوا أنفسهم على اسعاد القلوب بالأعمال ، كما يسعدون الآذان بالأقوال ، وليجتهدوا أن يحققوا معاني مقالاتهم في أشخاص وأعمال مجسمة ، وليسعوا دائما الى أن يكون الحكام والرعاة من رجال القمة في الفكر والخلق ، حتى نلائم بين ما في النفس وما في خارج النفس ، فيكون الحكم ضريبة على من يحسنه من هؤلاء ، ولا يسند الى غيرهم مهما كانت الظروف .

ثورة الفكر على الواقع

أقدام تحكم في الرؤوس ! - هل الجامعات مسارج
للمنيل ؟ الجهل يستغل العلم - لابد للعلم من جنود
الروح - الحياة تخطو دائما الى الامام - نعمة الحياة هي
فحص الفكر النائر - لا استسلام للواقع النافس - في
نومنا اطلال ومستنقعات ! - وجوب العمل الصالح في
امراض الفكر - اصلاح المعائن أولا - دهن الحطب بالدون
الاخضر !

أما من ثورة عالمية للعلماء والمفكرين يقومون بها في اجماع ضد دجاجة
السياسة ، وسباسة المال ، وحاملي الجاهلية ، والمرتدين عن دين الحياة
بالعلم والفضيلة ؟ !

أما يؤلمهم ويحز في نفوسهم أن تخنق آراؤهم ومشلمهم العاليا ، وتداس
أفكارهم التي لها يعيشون وبها يأنسون ؟

أما يغيظهم أن يظلوا دائما مجرورين في عجالات أولئك الدجالين
والجهال والسباسة ، يسحبونهم على وجوههم في تلك الطريق المعهودة
من عهد الجاهلية للآن ؟

الجامعات ، لو صحت الأوضاع ، هي رؤوس الأمم التي تفكر بها ،
وتتصرف في شئون الحياة صادرة عن وحيها ، فلماذا نرى الشوارع تتحكم
في الجامعات ، ولا نرى الجامعات تتحكم في الشوارع ؟ لماذا نرى الأقدام
تتحكم في الرؤوس ؟ !

هل يقنع الجامعيون من الحق والعلم والفن أن يروا كلا منها في اطار
من الصحف والكتب الجميلة والصور المعلقة على جدران الجامعات
والمتاحف والمعارض ، وأن يتحدثوا عنها في حجرات الدراسة ، ويلبسوا
لها « الروب » الجامعي ، ويهزوا بها ذقونهم ، ويقفوا بسمت ووقار ،
وينطقوا بمضغ ولباقة ؟ !

ما فائدة هذا التمثيل الدائم على مسارح العلم أيها الحكماء ، مادام هناك مناقضات فاحشة بين ما فى البيوت والشوارع وما فى الجامعات ، وما دتم أنتم تلبسون للحياة العملية ثيابا أخرى ، وتضطرون لأن تواجهوها بوجوه أخرى ؟!

ما فائدة الجرى وراء البدوات والفروض الرياضية للحياة ، والتنقيب عن أحافير الماضى اللغوية والأثرية ، والتخيل بأحلام المستقبل المثالية ، مادامت تيارات الحاضر تفلت من أيديكم وتستعصى على توجيهكم ؟

لقد نكل الحاضر بسخلفات الماضى ومقدساته ، وبآمال المستقبل وتخيلاته تنكيلا فظيعا ، حين أطلق هذه الحرب الحطمة الطاحنة بصواعقها ونواصفها ، فاذا الأبراج المعاجية والصوامع الجامعية تذروها الرياح دخالا وهباء منثورا مع ما فيها من كنوز الماضى ورصيد المستقبل .

وكان ذلك كذلك لأن الجامعيين والمفكرين لم يؤمنوا طريق العلم والحضارة ، ولم يكلوا الوحوش والغيلان المثلثة فى الدجالين والسماصرة والجائعين للشهرة ، والجهال الذين يفتكون بالمدينة ، ويأخذون منتجات العلم وينتفعون بها فى تسخير الحياة من غير أن يأخذوا الأسس النفسية الفاضلة التى فى نفوس العلماء .

وكان ذلك لأن خدام العلم لم يسلكوا فى تعبيد طريقه وتأمينها مسلك خدام الدين الأولين ؛ فلم يقيموه على أساس التعصب له والثورة به والقضاء فى سبيله ، ولم يقيموه فى نفوس الطلبة على أساس الروح ذات الجذوة الحمراء التى تنضج كل ما تقتنيه وتحوله الى كيائها ؛ وانما أقاموه على أساس الفكر ذى الجذوة البيضاء الهادئة التى تقتنى المعلومات كما تقتنى اليد الأشياء ، وتضعها على الرفوف وفى الخزائن ؛ فهى دائما منفصلة لا تندمج فى كيان المقتنى .

فلا بد إذن من ثورة اجماعية للعلم تقوم على أساس التعصب له وللفضيلة ؛ فان العلم من دين الله الذى يدين به البشرية وتتوحد به غاياتها ومقاصدها ، وتخضع أعناقها لمعجزاته الدائمة المتجددة .

ولا بد من السرعة فى إقامة أسس الحياة على الثابت من قوانينه .
حتى لا يكثُر العدد من ضحايا عهد الانتقال كما هو الحال الآن ، كما
لا بد من الثقة بالفكر البشرى الهادى المستنير ثقة كاملة .

فقد قاد الفكر القطيع البشرى ، ونقله من حياة البساطة والعجز
والجهل الى هذه الحياة المعقدة القادرة العالمة ، ولا يزال يقوده وينقله
مرحلة مرحلة فى طريقه الى مستقبل مجهول .

وكلما استقرت الأجسام البشرية فى مرحلة ، وعاشت فيها حياة آلية
رتيبة ، واطمأنت جنوبها اليها ، وقالت هنا ينتهى الطريق ويقوم الهدف ،
ثار بها ثائر من عالم الفكر ، ودفعها الى أفق جديد تقاوم هى الاندفاع
اليه فى أول الأمر ، ثم لا تلبث أن تسير مع عجلة الفلك بدافع من قوة
التطور البديعة ، وتأخذ فى دور الاستقرار فيما انتقلت اليه ، الى أن
يومض بارق ويشور ثائر على الواقع ، ويلوح لها بجديد من عالم المثال :
فتسببه بعد جهد على رغم ما تلاقيه من عنت الانتقال وترك المألوف .

فقصة الحياة الانسانية هى قصة الفكر وثوراته المتتابعة على الواقع .
ولولاه لظل القطيع البشرى كأى قطيع حيوانى مما يدرج على الأرض :
لا ارتقاء له بذاته ، ولا قدرة له على تغيير واقعياته .

وما كان يراه الواقعيون القدماء مستحيلا أو بعيدا عن قدرة
الانسان ، حققه الفكر المتطلع الثائر ، وجعله من أيدينا دائى القطوف .

وبعبارة أخرى : كثير من حقائق اليوم وواقعياته التى تتقلب فيها
الحواس ، وتعمل فيها الأيدي ، كانت أحلاما وبروقا تلوح فى آفاق
الفكر الموهوب المدرك لما وراء صور الواقع من صور أكمل وأبدع .

والبطء الشديد فى الانتقال ، بل التخلف والوقوف الطويل فى مرحلة
من مراحلها ، بل الارتداد الذى يحدث فى كثير من الأحيان ، انما مبعثه
العناد والجمود والجموح من القطيع ، والتوانى والاهمال من المدركين
للكمال ، القاعدين عن نداء الفكر واهابته بهم أن يتجردوا لما استحفظوا

عليه ويأخذوا الانسانية اليه . الطامسين لتلك الصور الجميلة التى يرسمها فى صفحات ضمائرهم ومخيلاتهم القلم الأعلى الذى يعلم الانسان ما لم يعلم ، ويدرجه فى قراءة الحقائق وادراك الكمالات درسا درسا .

ومما لا شك فيه أن الحياة الاجتماعية يمكن أن تكون أحسن مما هى عليه الآن وأكمل ؛ لأن تدرج هذه الحياة من صور الاجتماع الأول الى هذه الصور المعقدة العظيمة فى الاجتماع الحالى ، وطوعية الفرد تحت أحكام القوانين والنظم والتقاليد التى تحيط بكل تصرف من تصرفاته ؛ أكبر دليل على امكان الوصول الى ما يصبو اليه ذوو الأفكار السامية والقلوب الكبيرة التى نضجت فيها معانى الانسانية وأسرارها . وما يضر الانسانية شئ كما يضرها الاستسلام للواقع الخاطيء الناقص القائم على أسس فاسدة .

وقد كان يصح الى حد ما ، اغتفار التوانى وترك المجتمع يقوم على أسس فاسدة وأشكال ناقصة ، أيام كانت الثقافات محدودة والمعارف ضيقة والتعليم لونا من ألوان الترف فى الحياة ، وأيام كانت حدود الأشياء وقيمها مختلطة مشوشة ؛ وأيام كانت آثار هذا التوانى والاهمال ضيقة الأضرار هينة الجرائر والآثام ؛ وأيام كانت المعارف متقاربة يدور الناس بها دوراتا نظريا فى حيز ضيق من حياة المجتمعات ، وأيام كان انتقال الحياة فى طريق الآليات والصناعات انتقالا بطيئا لا تنشأ عنه مسافات بعيدة بين القاعد والمآشى ..

أما الآن ، وقد صارت قيمة التعليم والتهديب للفرد كقيمة الخبز ، وحدود الأشياء واضحة مميزة ، وصارت آثار التوانى فى اقامة المجتمع على أسس العلوم والأخلاق والفنون آثارا عميقة غليظة الجرائم والآثام ، وصارت آفاق العلوم والمعارف متباعدة متعددة فى نطق واسعة جدا لا اختلاط بينها ولا تشويش ، وصار كل يوم يأتي بأشياء جديدة عجيبة من وسائل العلم والسيطرة والقوة .. فلا يجوز مطلقا أن يتوانى مفكرو أى مجتمع ويتركوه يقوم على الأسس الفاسدة ، ويسير على مجرى التاريخ الذى يجرف الطفولة النضرة مع الجيف القذرة ...!

ان الناس لم يرضوا أن يسيروا بأقدامهم على الطرق والدروب القديمة
في المدن والقرى ، بل مهدوها تمهيدا فيه فن وتنظيم على أحدث الأساليب ،
فكيف يرضون أن يظلوا في حياتهم الفكرية سائرين برءوسهم على مسالك
وعرة قذرة ، فيها أنقاض وخربات من عالم بائد ؟!

أجل ، في حياتنا الفكرية أنقاض وخربات يسكنها ظلام وحشرات
وخفافيش وزواحف سامة تفرزنا وتفسد احساسنا بجمال الحياة الحديثة ،
فيجب هدمها أو تجديدها ، اذا كان فيها ما يجب أن نبقى عليه ، والا
فسنظل فرائس للفرع والاشمئزاز . !

وفي حياتنا النفسية مستنقعات آسنة تنز وترشح الى ما يجاورها من
الرياض العلمية والفنية الحديثة ، وتفرخ فيها كثير من جراثيم الآفات ؛
فيجب ردمها وتحويلها للازهار والاثمار الصالح ، والا فسنظل مرضى
مصروعين متناقضين ..

وان الناس ما رضوا أن يتركوا موارد الطبيعة كما هي بدون أن
يدخلوا عليها أساليب التنظيم والاستغلال والانتفاع ؛ فلماذا رضوا أن
يتركوا موارد النفس ومصادر الأخلاق ، كما هي بدون تنظيم وتعديل
كما يقضى الادراك الصحيح ، والمنفعة العاجلة والآجلة ؟

لقد أقاموا الاستحكامات والمصافي والخزانات على المنابع والأنهار ،
لينتقوا غيضا وفيضها وأقذارها ، مما ذاقوا منه الدمار والأمراض في
العهود القديمة ، ولكنهم لم يقتنعوا بعد بأن موارد النفس ومصادر
الأخلاق وما فيها من غيظ وفيض وقدر وضعف وطغيان ، تحتاج الى
اقامة أمثال تلك الاستحكامات ووسائل التصفية من الأكدار .

فهل يظنون مصريين على العمى عما وراء الأجسام ، سجناء الشواخص
والكشافات وحدها ؟!

لقد صارت الحياة المادية بما أدخله عليها العلم والفن حياة قيمة
جدا ، تحمل على الثقة بالانسان كعامل عظيم من عوامل التكوين والتنويع
التي في يد الله ... فيقبح جدا بالانسان أن يترك نفسه تحت تأثير الغرائز

الضيقة ، والحماقات القديمة التى تحمله على تدمير تلك الحياة المادية القيمة ، وتخريبها هذا التخريب الذى تمثل اليوم مأساته الدامية الشنيعة على مسرح الأرض كلها ..

ان الفكر البشرى قوة مبصرة عظيمة تتحكم فى كثير من القوى المادية العمياء ؛ فالواجب الأول أن يعنى به قبل غيره ، وأن يحافظ المجتمع على قوانين نموه واطراده والارتفاع به ، وصيائمه من العوادي التى تعدو عليه فتفسد حياته ثم تفسد الحياة به .

ومن العجيب أن تفزع الدولة حين ترى جسما مريضا مرضا وبائيا فتضرب بينه وبين الناس نطاقا من العزل الصحى « والتطعيم » والوقاية ، ثم لا تبالى ولا تفزع حين ترى الأمراض الفكرية الوبائية تجتاح صحة القلوب والأفكار ، وهى أوعية أسرار الحياة الانسانية وعوامل توجيهها !

ان العناية بالمظاهر الجميلة البراقة لا تغنى عن العناية بالخفايا والأسرار فى أى شئ ؛ وخصوصا فى الحياة الانسانية التى يجب أن يسبق الفكر فيها كل عمل وكل مظهر . وان المجتمع ليهدر قيمة الفرد الاجتماعية مهما كان جميلا قوى الجسم حين يرى به جنة أو مسا من الخبال ، فيسجنه فى مستشفيات المخبولين أو سجون المجرمين ، ذلك لأن الفكر هو الشئ الأول والأهم فى الانسان .

لولا العقول لكان أدنى ضيغم

أدنى الى من شرف الانسان

والاخلاص للفكر والعلم يحمل على ابتداء حياة الأمم بهما وإنشاء أوضاعها من جديد ، ومقاطعة الاشتغال بأى فرع من فروعها الا بعد اصلاح الدعائم والأصول التى يقوم عليها بناؤها .

و « الترف العقلى » الذى تراه الأمم المتخلفة فى الأمم الراقية التى سبقتها بأشواط وأشواط ، فتفتتن به ويتوجه اليه أفراد منها منسلخون عن حياة الشقاء التى تحياها أمتهم ، ينبغى ألا يشغلها ويصرفها عن مجابهة العقدة الأولى ، وهى اصلاح أسس حياتها مهما لقيت من العنت والمشقة

والاضطهاد من الراضين بالحياة كما هي ، والذين لهم مصالح في الحرص على بقاء الحياة كما هي ...

فليكن اجتهادنا في صنع القوالب الصالحة وتخطيط الاتجاهات ، ولو كانت تلك العملية مسئمة ليس فيها زواق ورواء .

وليكن لغيرنا ممن يأتى بعدنا لذة الاشتغال بألوان الترف العقلى ، وطلب الشهرة بأعمال التلوين والزواق ، مما يفتن العوام وأشباههم ، ويذيع الشهرة بينهم .

فاذا أصررنا على تزويق الأجسام الآدمية الحديثة بطلاء رقيق من المدنية ، تاركين النفسية القديمة كما هي ، فلن يكون ذلك أقل خداعا من دهن الأحطاب والجذوع النخرة باللون الأخضر ...! ايهاا للناس بأنها نبات صالح في أرض طيبة ..

المسألة الأفغانية

أم العدد والحساب - الرباطات الثلاثة - منطقة الزعازع
والعواصف - الحدود في الاقتناء والتوريث - الاسرة تتسع
خطر العقليات المادية - فالوث الشقاء الانساني .

هلمى يا ذات الخطر والجلالة !

الى قلمى .. كما يقبل الشعبان العظيم زاحف الرأس الى ساحر ليحطم
نابه ويظهر لعابه !

هلمى يا بوق الشيطان ، ينفخ فيه على القلوب فتكون كالمخالى
والخزائن والجيوب ، تختزن الأجسام ذات الحجم والكشافة والثقل ،
وتمتلئ بالحطام وهى مهبط الأسرار ومجلى الأنوار ١٠٠

هلمى يا دين البشرية ، وقبلة قلبها ، وكعبة طوافها وسعيها ١٠
يا أم الدينار ا ذى الغرة والطرة ، والبريق والرئين ، والثقل الخفيف
والروح اللطيف ، الذى يسرى به الشيطان الى الأقداس المغلقة فى الضمائر
فيفتح به مكان الطهر ، ويحيله الى نجس وعهر ١٠

يا روح « العجل الذهبى » الذى يتشكل ويتجسد ويتقمص جسم
كل شئ ، فيتراءى به ويتخيل فى صور شتى تذهل العيون عن الحق
والشرف والايمان !

الى قلمى أيتها الأفعى ذات الرؤوس والقرون والألسنة والذبول التى
لا عدد لها لأنها أم العدد والحساب !

الى قلمى أيتها الأفعى التى تنهش قلب الانسانية فى الشرق والغرب
وقد سممت مجرى التاريخ البشرى ومنابع الفكر والشعور ، ولفت
جسمها المخيف على جسم البشرية الضعيف ، وأرسلت فحيحها وهمسها
فى إذن الأفراد والأمم فأوغرت بينهم العداوة وتركتهم من حمى سموها

يموج بعضهم فى بعض ويحطم بعضهم حياة بعض وأحالت قلوبهم الى أوكار وأوجار لها .

أيتها « المسألة الاقتصادية » ! ياوكر الجرائم الفردية والاجتماعية والسياسية ...!

اننا نشعر برباطات ثلاثة تضغط على قلوبنا وتشد عليها وتربطنا بثلاث غايات عظمى هى : « الحياة » و « ما وراء الحياة » و « المجتمع » . فالذى يربطنا بالحياة هو « الحب » وتنتيجته الاندماج فى « الزواج » والامتداد فى « النسل » تعزية وتعويضا عن « خلود الذات » وهو الأمل الأكبر الذى لم يتحقق .

والذى يربطنا بما وراء الحياة هو « الدين » ، وتنتيجته التعرف الى الله بارىء الوجود ومفيض الحياة .

والذى يربطنا بالمجتمع هو « المال » ارضاء لجملته غرائز حادة وشهوات عنيفة تظهر فى الأنانية والأثرة والخيلاء وحب التسلط والمباهاة والافتراس وحب الاقتناء والحياسة والتملك ، وحب « اعلاء الذات » مقرونة بغيرها فى مجموع ..

والرباطان الأول والثانى لكل منهما منطقة تتصل بالجانب الأعلى من الانسان ، وتثير فى قلبه أشواقا فيها سمو ، وفيها رفق ووداعة وحنان ونسيان « للذاتية » والأنانية ؛ فلذلك تحيا بهما النفس سعيدة مسعدة ، منتفعة نافعة .

أما الرباط الثالث ، فلا يتصل الا بمنطقة العواصف والزجاج من النفس ؛ اذ هى مجال الاحتكاك والمنافسة والسباق والصراع بين ذوات مختلفة متفاوتة القوى والمواهب .. وقد سبق الشر من هذه المنطقة الى الحياة وأفسدها ، ولذلك كانت محل العناية والتنظيم والتهديب ، ومحورا عظيما لشرائع الأرض والسماء ، ومثار الحروب قديمها والحديث منها .

وبدون تسوية « المسألة الاقتصادية » فى العالم ، وحل « مشكلة العيش » وتوزيع الموارد الاقتصادية فى الأمة الواحدة وفى الأمم المتعددة

في عدالة وانصاف ، وتجرد عن الأنانية الشخصية والقومية ، لا يمكن الاطمئنان الى مستقبل سعيد للانسانية .

وربما كانت كبرى جرائم الحياة هي جرائم الغنى ومفاسد البطر والترف والطغيان ، نتيجة لغرور المال . نعم ان للفقر جرائم كبرى أيضا ، ولكنها جرائم ومفاسد هي في الواقع عقوبة و « رد فعل » على جرائم الغنى وعدم التوازن الاقتصادي في المجموع .

ولذلك كان من أول الواجب على رجال الروح والفكر ، أن يجعلوا المسألة الاقتصادية وتنظيمها واعتبار أسسها العادلة ، محل عنايتهم الفائقة ، كما يعنون بالمسائل النظرية في اللاهوت والفلسفات والآداب ، وأن تكون لهم رقابة ساهرة وجهاد دائم في التدبير والتنظيم الاقتصادي ، حتى يضمنوا لكل فرد أن ينال حق العيشة بالجسد كما ينال حق الحياة بالروح ، وحتى يكفلوا لمثلهم العليا أن تحيا وتتجسد في أشخاص ، بدل أن تظل طول الحياة ميتة مدفونة في بطون الكتب ، أو مرددة في المعاهد والمعابد وحدها .

ثم يكون واجبهم الأكبر أن يمنعوا التكالب عليها ، والتطاعى في رحابها ، وأن يحملوا المجتمع على السعى إليها في هودة ورفق وشرف .

وان ما تطلبه غرائز التملك وشهوة المال لا يمكن أن يقف عند حد ينتهى اليه . وعلى هذا فواجب أن يدرك الانسان ذلك ، ويحد من آماله ومطامعه بما يوافق مصالحه ومصالح الآخرين ؛ والا انقلب كذلك الثعلب الذي ظل يأكل من فريسة حتى امتلأ وعجز عن النهوض والجري ، فاقتنصه الصائد ..

ومع عدم شعور الجدد والأب بحب الحفدة والأبناء له ، بل مع عدم وجودهم في حياته ، نجد الأجداد والآباء يغالون في الاقتناء والاثراء بدون حد للمطامع ، وبدون التفكير في أن ما زاد على الكماليات في متوسط عمر الانسان ، انما هو حمل باهظ للنفس يرهقها ويكأدها .

فينبغي أن يحد الثرى ثروته بحيث تكفى ابنه المباشر وحده . أما الحفدة والأسباط فيجب اهمال التفكير في توريثهم ، وعدم تضحية المجتمع والمروءة مع الناس من أجلهم وهم في عالم الغيب .

ولماذا يلزم الانسان أن يعول أهله الأدين وذريته الضعاف ، ولا يلزم
بإعالة إخوته في الوطن من العجزة المحتاجين ، وهم أسرته أيضا بالمعنى
الواسع ؟

لابد من إقامة مسائل الاقتصاد والاحسان على هذا المعنى العميق
الكريم ، لا على التبرع والتفضل والاختيار .

لقد كثرت العقليات المادية المغالية التي تحاول أن تفسر الحياة دائما
تفسيرا ماديا آليا .. مغفلة ذلك المعنى الانساني العظيم الذي يتصل بالحق
ومعاني المروءة والايثار والنبل ، ولا يكون المرء انسانا الا بسيطرة ذلك
المعنى على فكره وروحه .

هذه العقلية أعظم نماذجها هم اليهود . وقد انتقلت فلسفتهم المادية
في غلوها الى أغلب الأمم ؛ فهم ليسو الآن ممثلها وحدهم .

نعم ان للمادة آثارا كبرى في الحياة الانسانية ، ولكنها يجب ألا
تكون المحور الوحيد لسياستها العليا كما هي الحال الآن .

ان الفقر أعظم آفات الاجتماع البشري ، وأعظم ما يثير السخط على
الحياة واشد ما يفجع الناس في حياة الكرامة والسكينة والاطمئنان ،
ويثير بينهم الحقد والبغضاء ويرميهم بحرب الطبقات وحروب الأمم فاذا
عولج المجتمع منه نجا من آثار قرينيه وهما الجهل والمرض اللذان يتبعانه
ويكونان معه ثالوث الشقاء الانساني الذي اذ خلا منه وجه الحياة بدا
جمالها ورضى الناس عن الحياة .

ولا يجوز للبشرية الآن أن تنظر اليها نظرتها القديمة المستهتة فأثار
الفضيحة المخدرة بالسهم الذي جعلها ترضى أن يكون بعض الناس بقرا
حلوبا وحميرا ذلولا لبعض وبعضهم يكافح في سبيل لقمة العيش فلا يلقاها
والآخر يبحث عن الكلاب يجلسها على موائده ويرعاها .

ولست أنسى مدى حياتي أمسية من أمسيات أوائل الثلاثينات من هذا
القرن كنت أتعشى فيها بأحد مقاهي (روض الفرج) القديمة ، ومر كلب

بجوارى فألقيت له لقمة خبز فشتمها وتركها ، وبعد هنيهة أقبل طفل
من أولاد الشوارع فالتقط اللقمة وأكلها بلهفة ..

ولكن الحمد لله ! لقد أخذت أمتنا العربية تمضى في حل تلك (المسألة
الأفعوانية) بالعدالة الاجتماعية ، وقد قطعت أشواطاً نحو إزالة لعنة
التفاوت المادى الفاحش بين الأفراد ، وتذويب الفوارق بين الطبقات مسا
رد كثيرين الى الايمان بالانسانية ..

جرائم التفاوت الفاحش

ماذا بين الانجليزى « المنبوذ » الهندى ! - بنور
قبيحة على وجه الانسانية - نقص القادرين على
التسامح - استواء سطوح السائل فى الاوانى المتصلة -
الحد الأدنى فى المسائل الاقتصادية والادبية - التعاون
اخص صفات الانسانية العليا - ينبغي تنبيه كل ذى حق
الى حبه - جرائم التهاون فى الكرامات - لولا من يقبل
الظلم لم يوجد الظالم - غباوة البقر والغنم - الغواش
وعشاقهن •

ماذا بين فكر الانجليزى وفكر المنبوذ الهندى من آفاق صناعية ؟
انه ما بين العطر والبول ، أو الزهر والبرع !
انه ما بين قصر « نائب الملك » وجحر « المنبوذ » فى الهند ..
انه ما بين الامبراطورية البريطانية فى ذهن الانجليزى ، وعالم الرخص
والأنجاس فى ذهن المنبوذ !

يفتح الطفل الانجليزى عينيه على الحياة فيجدها ملكا كبيرا ومجدا
عريضا وتاريخا يحدثه عن عظمته ، وحاضرا يوحى اليه بعزته ومجده ،
ويجد دنيا ذات أفكار وآراء وفنون وألوان علم وادب وعمران وسياسة
واساطيل جوية وبحرية وجيوش برية ، ويجد وجوها مشرقة وأمواالا
موفورة ومساكن مترفة ، الى آخر عالم الامبراطورية العظيمة التى
لا تغيب عنها الشمس (١) ، ولا يغيب رجالها المنتشرون عن تلقى ماء كل
سحابة ممطرة ، وثمره كل شجرة مثمرة ، وكل فكرة أو خطرة عابرة !

ويفتح الطفل الهندى المنبوذ عينيه على عالم عجيب من القبح
والظلمة والقذر والرخس والمطاردة واللعنة من المجتمع .. حتى لا يستطيع
أن يقرب من « البقر المقدس » !

وكيف يستطيع القرب من هذا الحيوان « المعبود » ذى الروث

(١) كانت .. وقد كتب هذا فى عهد احتلال الهند ..

الشافى والبول المعافى والمقام الآلهى ! وهو النجس الشخص والظل ،
الملعون الروح والفكر ، المسكون بأرواح الاثم والشر ؟ !

فمن ذا الذى وضع هذه الفروق الهائلة بين انسانين كلاهما له رأس
وعينان ولسان وشفقان ، وقلب وفكر آدميان ؟

من ذا الذى وضع هذا كله غير الشيطان وجنوده ، وهم الأوصياء
الجاهلون الظالمون !

وكيف اللقاء بين البشرية فى سلام على قدم المساواة ما دامت هذه
السدود فى وجوهها ، وهذه المخاضات من الأوحال فى أرجلها ؟

اننا لنأسى ونأسف حتى على الفروق الصناعية المغتفرة بين فكر
الانسان الذى لا يعلم من حقائق الكون الا أن الشمس اذا طلعت يضىء
الكون وترى العين الأشياء ، والا أن الانسان اذا تكلم جهرا سمعه جاره ،
وبين فكر الانسان العالم بآخر النظريات الضوئية والصوتية .. فكيف
لا نأسى ونأسف ، بل ونثور على تلك الفروق المجحفة التى تجعل البقر
معبودا والانسان منبوذا ؟ !

ان على رواد الحضارة المنشودة أن يبحثوا عن أوكار هذه الجرائم
المنكرة فى بقاع الأرض ويدمروها تدميرا ، حتى لا تنتقل منها عدوى
الظلم والمظالم ، وحتى يبرأ وجه الانسانية الجديدة من بثورها
ومقابحها المزرية .

ولست أدرى ، ما الذى حال ويحول بين الأوروبيين الراقين وبين
أن يأخذوا بأيدي الأمم والجماعات المتخلفة ؟ وما الذى يجعلهم يهملون
بل يقاومون حركة انهاض هذه الأمم المحكومة بهم ، ويحقدون عليهم
وعلى غيظهم ، ويبغونهم سوائهم وحيوانات مهدرة الحقوق الانسانية ؟

أهو شعور الوصى الظالم الطامع على اليتيم القاصر ؟ شعور الذى
يتمنى امتداد طفولة اليتيم وقصور السفه لتدوم وصايته التى يملأ منها
أوعيته الشرهة ، وبطنه النهم ؟ وما يدري هؤلاء أنهم يملأون أوعيتهم

وبطونهم من النار والسعير الذى يدمر حياتهم قبل حياة المحكومين بهم .
ورب البشرية بالمرصاد !

انهم لو فعلوا بمقتضى الروح المسيحى الحقيقى الذى ينتسبون اليه
وبمقتضى موجبات الوصاية والرحمة ، لسعدوا وأسعدوا ..

لو فعلوا لأنقذوا رعاياهم القاصرين وأقنذوا انفسهم من الأمراض
والأحقاد التى تنتقل اليهم من هؤلاء لا محالة .

نظفوا الأرض من جهالاتها وآلامها أيها الأوصياء العلماء القادرون..
فإن أقبح العيب هو نقص القادرين على التمام !

فما لم ترفع الأمم الوصية حياة الأمم المنحطة الى مستواها الراقى
فلن نظفر بالاستقرار والسلام فى هذه الحياة القصيرة .

ومن جانب آخر ، مالم ينهض المستضعفون بأنفسهم ويكافحوا ليرفعوها
الى مستوى الأقوياء الصالحين ، فلن يظفروا بطائل .. لأن ما يدور
بأخلاقهم وقلوبهم من الألم واحساس الشقاء لا تنفطن اليه قلوب الأمم
اللاهية القوية البالية قوتها على ضعفهم ، وسعادتها على شقائهم ؛ إذ أن
ما يدور بخلد البقر والغنم لا يهم الفلاح والجزار اللذين يستخدمانها
ويذبحانها .

والى لأخشى أن يكون استمرار هذا التفاوت الفاحش بين الضعفاء
والأقوياء ، الى الحد الكبير الظاهر فى حياة هؤلاء وهؤلاء ، سوف
يحمل العالم من النكبات ما يجعله دائما فى شقاء وتعاسة .

ولن يحس الأقوياء ويفزعوا من هذه الحالة الا اذا علت انسانياتهم
وسمت ، وصاروا أوصياء ذوى غيرة على أبناء الحياة جميعا ، وحكموا
القاصرين ليخدموهم لا ليستغلوهم وسمحوا لحياتهم الراقية أن تتسرب
الى غيرهم فترفع مستواهم حتى يستوى سطحها فى أوعيتهم وأوعيتهم
غيرهم ، كاستواء سطوح السوائل فى الأواني المتصلة .

* * *

وان أول ما تجب العناية به الآن في « المسألة الأدبية والمسألة الاقتصادية » هو أن يضمن الأوصياء للطبقات الدنيا في العالم جميعه مستوى من العلم والصحة والنفقة يكفل لهم حياة الكفاية في المسكن والمطعم والمدرسة والملبس والمتاع اللازم لتخفيف السأم وادخال المسرات .. ثم يكون مؤقتا لأصحاب الأموال بعد ذلك أن ينموا أموالهم كما يشاءون ، ثم ما داموا يؤدون واجبات الدولة والمجتمع والانسانية .

والأمم التي تأبى حياة التعاون تعتبر أمما بدائية لم تبرأ من التوحش والتفرد القديم ، ولو كانت على قمة الأمم مكانة في القرن العشرين . . اذ أنه اذا فكر الانسان أو الشعب أو المجموع من الشعوب في غايات نفسه وحدها وأنانيته الضيقة ، لم تحدث الغايات الاجتماعية والحركات الدولية العظيمة التي تفسح للانسانية مجالات حيوية جديدة للمتاع والعلم .

فعلى الذين يريدون تحقيق أهداف الحياة العظمى أن يبعثوا في قلوب الأفراد والشعوب الايمان بوجوب خدمة غايات الحياة وأغراضها المشتركة ، وأن يجعلوهم حراسا لا يبالون الفناء في خدمة هذه الغاية العظمى ، حتى لا يأخذوا الحياة بشكوك تزلزل ايمانهم ، بل يأخذوها بعقيدة لا تبالى الفناء في سبيل الحق ، بل قد تطلب الفناء لتخرج من الحياة بشرف خدمتها وتدعيم قواعد الحق فيها .

فالايان بشيء عظيم ، والتعاون على تحقيقه ، والموت في سبيله : هو أخص صفات الانسانية العليا والأمم العظمى .



وينبغي أن تقول الأمة أو الأمم لمن يجهل حقوقه فلا يطالب بها ، ويجهل فرص حياته العامة فلا يعرف التمتع بشئونها : هذه حقوقك وفرصك وامتيازاتك . تمتع بها ، واسلك ، ان شئت ، في متاعك بها الطريق الفلائية .. لا أن يستغل قصور القاصر عن ادراك حقه فيغصب منه ويسرق ويهمل ارشاده .

والحال في أكثر بقاع العالم هكذا ، بل أكثر ظلما ؛ اذ يضطهد من يطالب بحقه .

ومن أعظم أسباب الظلم والطغيان ، التهاون في الكرامات المقدسة والحقوق العامة بحجة المجاملة والتسامح .

وينبغي لتلافى آثار هذا ، ألا تتنازل الجماعة عن حقها في القصاص ، حتى لو تنازل عنه المجنى عليه ؛ لأن بعض النفوس يطغيها ويغريها بالشر ذلك التهاون ؛ ولأن بعضها ناقص الإدراك وسىء التقدير لما عند المتهاونين والمجاملين من تسامح وسعة حلم ، فيفهم ذلك على أنه ضعف وعجز .

فعلى كل شخص ألا يتهاون في الحق والكرامة العامة ، وأن يدافع عنهما حتى يشترك في مقاومة ما يولد عوامل الطغيان .

ولو أن الأبقار والأغنام وما إليها من الأنعام عرفت القوة العظيمة التي في قرونها واستعملتها : اذن لساقت أمامها الذئاب والجزارين .. ولكنها فقدت موضع الشجاعة والتدبير في نفسها فاستسلمت وخافت .

وكذلك من لا يفكر في حقه وقوته الكامنة ، التي يستطيع أن يقاوم بها الطغاة ويحملهم على احترام حقه والحق العام .. يكون قد فقد موضع الشجاعة ، وصارت له طبيعة البقر والغنم ، تساق للمذابح من قرونها وأعناقها وهي أعظم موضع لقوتها وبأسها !

وكذلك تقاد الشعوب الضعيفة رغم أنفها من أعظم مواضع قوتها وبأسها ، وهي قلوبها وأرواحها التي لم يجعل الله لأحد عليها سلطانا مهما بلغت قوته .

« وبعد » فلا بد من التنبيه الى أمر ذي خطر : وهو افتتان الضعفاء بالأقوياء افتتانا يحملهم على الاستسلام لهم ونسيان حقوقهم وكرامتهم وخصوصياتهم التي أرادها الله لهم ، فيكون الأقوياء والمستضعفون كالفواني المتاجرات وعشاقهن ..

فانفوانى يفتن الرجال بظرفهن ورقتهن وجمالهن ، ويخدعنهم عن
الحقوق والواجبات ، ويحطمن رجولتهم ، ويجعلنهم ينزلون عن كثير من
كرامات الرجال فى سبيل هذا العشق المجنون الآثم !

ان « الرجل الأبيض » جميل ذكى ظريف عالم منظم يعشق ! يعشقه
الرجل الملون المتخلف المستضعف الذى لم ينل حظه من العلم والسمت
والظرف .. ولذلك نجد من يخالط الأوروبيين من الضعفاء يفتن بهم ،
وقد ينكر دينه الحق ووطنه ومواطنيه فى سبيل ارضائهم والتقرب اليهم ..
فكثير من مهرجات الهند مثلا ، وسادة الأمم المحكومة ، لا يستطيعون
أن يتركوا عشرة هؤلاء الحاكمين وأنسهم وكياستهم وتفتيحهم لحياة المتاع
والفخفة والتجميل ، لارضاء مواطنيهم من القروء والجاهلين والمنبوذين !

ودواء ذلك أن يسرع العقل المتخلف فى الأمم المستضعفة بقدر طاقته ،
الى الأخذ بأسباب العلم والنظام والتدبير والفن وعلوم الجمال ، لسد
النقص الذى يستطاع سده .

فاذا لم يسرعوا الى ذلك سوف يظلون على انكار بعضهم بعضا ، ولعن
بعضهم بعضا .

فالأوطان هى أشخاص المواطنين قبل أن تكون هى السقوف والجدران
والمرايح ..

الحرب وعبرتها

الطفرة تنتج النكسة - الديمقراطية هي مجرى التاريخ
المختار - أول خطوة هي تغيير النظم الاقتصادية الجائرة -
حرب ليست للإصلاح - لو فعلها هتلر ؟ - لو أدرك
الانجليز والفرنسيون والأمريكان ؟ - التقليد اليابسي
الاعمى - الحرب هي الرد الوحيد على الجاهلية - احراق
الغابة بشمالها ووثابها - هل اعتبرت أوروبا ؟

سيكون فشل النازية وانهيارها كنزعة منطرفة في الاستعلاء والتميز
العنصري ، درساً بليغ الأثر يأخذ العالم الى أعظم دليل جديد على أن تحكم
الفرد في أمته ، أو تحكم الأمة في الأمم ، ومحاولة تغيير مجرى التاريخ
فجأة : لن ينتج الا الارتداد والجبوت والانهيار مهما بذل في احكام الخطة
من الذكاء والقدرة .

أجل ، سيعرف العالم من انهيار ألمانيا بآمالها في سيادة أوروبا أن
مجرى التاريخ كمجرى النهر المستبحر العظيم ، لا يمكن تحويله بدون عمل
عظيم بطيء يشترك فيه الناس جميعاً لا أمه واحدة ، ويقوم قبله عمل
وارهاص وتمهيد .

والديمقراطية في الشعب الواحد ، وبين الشعوب المختلفة ، هي مجرى
التاريخ المختار ! نعم فيه أقذاء وغشاء وقش منحدره من قمم الماضي
وأغواره ، ولكن هذا هو سير الحياة وسنة التطور التي شاء الله أن يسير
تاريخ البشرية عليها .

والذين يريدون أن يفقدوا البشر فجأة جميع المعاني التي عاشوا بها
زمناً هائلاً ، وتكونت عايشها قلوبهم وتطبعت أعصابهم ، بحجة اكتشاف
نظرية علمية أو فرضية اجتماعية ، هم في الواقع غافلون عن آثار آلاف
السنين التي تركت في أعصاب البشر وقلوبهم خمائر ورواسب .

(١) كتب هذا الفصل في سنة ١٩٤١ .. ولم يتصرف فيه عند طبع الكتاب لأول مرة الا
تصرفاً يسيراً

ان هذه المعانى التى يراد من البشر التضحية بها وتقليب القلوب عنها فجأة ، هى التى رأينا فى ضوءها طريقنا الحالى وأفرغنا فى قوالها ، وقام على أسسها بناؤنا المشترك فى جميع البقاع .

وأنا أدعو دائما الى التحرر من موارث التاريخ السيئة ، ولكن طريق ذلك التحرر لا يكون بغير التدرج الطبيعى المدفوع بعوامل التربية والسرعة العصرية . ولا يمكن أن يكون طفرة . فذلك شرود عن سنن الطبيعة . ويجب لذلك أن نأخذ من البشر جميعا للبشر جميعا شريعة وحقوقا وطرقا عقلية متقاربة ترضيهم ويستطيعون أن يلتقوا عليها .

وان هذا هو زمن اخراج هذا الشيء الواحد ، أو هو تمهيد لزمانه فتجب المحاولة لوضع أسس لاخلاص البشرية لنفسها ، وادراكها وضعها . ويجب مطاردة الفساد أن يسكن جسم العالم الجديد بمطاردة خمائر السوء فى النظم الاقتصادية الجائرة قبل كل شيء .

ولو أن « هتلر » وضع قوته الحربية العجيبة فى موازين السلام والاصلاح العالمى ، وعرض فكرة هذا الاصلاح بطريق التفاهم ، ودعا الى ذلك أمم الأرض فى مؤتمر ، وأنذر الانجليز والفرنسيين بعد أجل مضروب انهم ان لم يقبلوا شروطه المعقولة التى يوافق عليها ذلك المؤتمر المفروض ، فهو فى حل من اللجوء الى الحرب ، وأفهم الجميع أنه يطلب اصلاح العالم « كمصلح » ولا يطلب سيادة « جرمانيا » وحدها كزعيم قومى ، وأخرجها فكرة عالمية لا فكرة جرمانية قومية تؤمن بحق ألمانيا وتكفر بحق غيرها .

ولو أن الانجليز والفرنسيين كذلك آثروا الاستجابة لنداء الحياة ولحركة الانتقال السريع فى نفوس الأمم الصغرى والمحكومة بهم والتابعة لهم ، وأسرعوا وسبقوا المظلومين والمحكومين الى الترجمة عن ظلاماتهم ، وغيروا حظ كل هؤلاء ، وضمنوا لأنفسهم المكانة الكريمة بين أمم كريمة .

ولو أن أمريكا شعرت بمسئوليتها تجاه « أمها » أوروبا والعالم أجمع ، وتدخلت فى تعديل حياة السلام على أسس الحق ، كما تدخلت فى تعديل حياة الحرب لضمان مثلها العليا التى تعيش بها ، وكما نهضت للدفاع عنها بقوتها الهائلة وايمانها الصادق وكفايتها الممتازة ...

ولو أن اليابان اتخذت طريقا لاتساع نفوذها وسلطانها غير طريق الاستعمار الغربى المبني على القوة ؛ وأفهمت الصينيين حسن نيتها وأشعرتهم أنها حريصة على مصالحهم وجنسياتهم القرية من جنسيتها . واجتهدت أن تضمهم اليها عن طريق الحب والثقة لا طريق العداء والقوة . واجتهدت أن تأتى للحياة السياسية بأسلوب جديد للفتح العقلى والنفعى غير أسلوب الاستعمار الغربى .

لو أن ، ولو ، ولو : اذن لانتقل الناس الى حياة أسعد بدون حاجة الى هذه « الجراحة » الفظيعة التى يجريها زعماء هذه المعسكرات لاصلاح جسم العالم وتطبيب علله كما يزعم كل منهم ..

ان كل زعيم يقف داعيا الى العدالة والسلام وقفة المسيح بن مريم .. بعد أن ذاقوا ويلات الحرب . وما كان أحوج العالم الى أمثال هذه الدعوات فى زمن هدوء الدم وترجع السلام على عرشه فى دولة الفكر والوجدان .. اذا لكان هذا أوفر للمال والشباب والجهود والطفولة والشيخوخة والمساكن المترفة والآثار العزيزة النفسية التى أصابها الدمار ، ولكان هذا أدعى الى موت الأحقاد التى ربما تكون قد زادت بهذه الحرب وما يعقبها من نزعات الانتقام وتأريث العداوة .

وانى أرى الملام الأكبر يقع على أمريكا ، لأنها كانت تستطيع أن تكون فيصلا وقوة عظيمة تثقل كفة الدعوة الى الخير والحق ، وتجمع حولها أمم الأرض المظلومة المحتاجة الى وصى قوى ومحام بارع مؤمن يدفع عنها اعتداء الأقوياء على حقوقها الطبيعية ، ويفهم الجميع أن ميزان الحياة لا يعتدل الا بترك كل أمة وشأنها من غير تدخل الا فيما يمس النظام العالمى : اذن لكان هذا المال والثروات المصروفة هدرا فى اطعام جوف الشيطان بالحديد والنار والدماء ولحوم بنى الانسان ، أسرع أداة فى ارضاء الأمم الفقيرة واقامة حياة رحبة هائلة للجميع .

ولكن يبدو أنه ليس من الممكن أن تتنازل الأمم والجماعات — مادامت بعقائدها الحالية — عن تقاليدها البالية ، ومواقفات حياتها الجاهلية

بدون أن تصاب بمصائب الحرب التي تحطم كثيرا من أوكار الجهالة والجمود والجشع والأنانية . حتى يمكن لمن يخلفهم أن يتنازل عن كثير من أنانيته ووحشيته في سبيل حياة المدينة والاستئناس وضمان المصالح العامة للمجموع .

فهذا التنازل يكاد يكون مستحيلا لولا الحرب ، فإن مصائبها هي التي تهون على الذين فيهم كثير من آثار الفردية ولم ترتفع نفوسهم وعقولهم الى مستوى العلم والخلق الكريم الذى يفهم أن الانسانية واحدة ، فيجب أن تكون مصالحها مشتركة غير متضاربة .

ونظرة صادقة الى كل ما أعقبته الحروب العظيمة بين الأمم أو الحروب الصغيرة فى الأمة الواحدة كافية لادراكنا أن أغلب النظم الصالحة كان يصيبها الاتساع والشمول والنظرة الرحبة عقب كل حرب .

ويصح أن نقول ان النتائج السياسية الواسعة كانت دائما تظهر فى المعاهدات التى كانت تعقب الحروب العظيمة .

فالحرب دائما كانت وسيلة لتقليم الغابة البشرية من كثير من الأشواك والشجيرات الميتة والطفيليات والثعالب والذئاب التى لا وسيلة للتخلص منها فى بعض الأحيان الا باشعال الحريق فى الغابة كلها ..

ولولا هؤلاء الساسة والماليون الذين لا ضمير ولا فكر لديهم فى وضع الانسانية ومستقبلها وغايتها ، وهم المسيطرون الحقيقيون على الاجتماع ، لكان من الممكن الانتقال من مرحلة الى مرحلة أفضل عن طريق الاقتناع و « معارك السلام » .

ولكن أنانية هؤلاء وضيق آفاقهم وانتقال أساليب الجاهلية عن طريقهم الى الحياة ، هى التى تعوق هذا الانتقال الهين ، وتحتم الانتقال عن طريق العنف والتحطيم .

وأحسب أن نفوس الأوروبيين الذين دمرت حياتهم بهذه الحرب والتى قبلها بربع قرن ، سوف لا يجدون فى أنفسهم ، لو اتعظوا ، غضاضة من أن يتنازلوا عن شئ من حقوق قومياتهم الضيقة ، ونعرات أجناسهم

ولغاتهم وعقائدهم : وسوف يسرون نحو تقارب يكفل عدم التصادم ،
وتوزيع المنافع والأقوات والمصالح .

وما كان لقوة اتناعية أخرى غير الحرب أن تحملهم على ذلك ، بعد
أن شملتهم فى السنوات العشر الأخيرة موجة من النمرات القومية والخيلاء
العسكرية والمنافرات الجنسية ، وسرت منهم الى الأمم التى تتصل بهم ،
حتى الأمم المستضعفة الجاهلة قد أصابها ذلك الادعاء والهتار .

فهذه الحرب كانت ردا سريعا من الأقدار ومن طبيعة الحياة الاجتماعية
الحالية التى لم تعد تحتل الطيش القديم . وان عدنا عادات بأسلوب
جديد . وما أدراك ما أهوال الحرب بأسلوب جديد !

فخوأساس روى للحضارة المادية

بين الوعي والذهول

رحلة في حيات الناس - صيحة في أذن الانسان -
لو ، ولعل ، وربما - لا ملام على الاقدار - لم تفت الغاية
- نقطة البدء في الحياة الفكرية - الجناية الاولى - حادث
عظيم - آثار من الوثنية - الوضع الاميل للدين -
ديانة الحياة .

حينما أعس وأندس الى مجلس في حان صغير أو مقهى حقير : أرقب
الحياة الانسانية في بعض جوانبها ، وأتفرس في وجوه القوم ونواصيهم ،
وأسمع الى أحاديث دنياهم وآمالهم وأعمالهم ، وأتبع نظراتهم للحياة
فأجدها لا ترتفع الى شيء سام ، ولا تدور حول قضية من القضايا العليا
للحياة ، ولا تفكر في مبدأ أو مصير ، ولا تتساءل عن صلاح أو فساد .

وحينما أقذف بجسمي في زحمة سوق من الأسواق بين ضجيج
الحركات والأصوات والأبواق ، وصفقات الأيدي الخاتلة على الأيدي
المختولة في العقود والمبايعات ، وسائر الارتفاقات والمشاحنات .

وحينما أرصد حياة الأفراد اليومية ، فأجدها سلسلة من الغفلات
والأكلات واللذات والأعمال الآلية التي لا استحضار فيها لمعان كريمة ،
ولا يقظة فيها الى أسرارها ومآل الانسانية بها ، وانما هي دورات رحوية
وسير أعمى وراء دولاب الحياة من غير سؤال : الى أين المسير ؟

حين هذا كله ، أجد في نفسي كأن الانسانية عريقة في غفلتها وذهولها ،
وكأنها خلقت لهذه الغفلات ، ولن تكون لغيرها ، ولن تكون لحياة أخرى
وراء هذه الحياة ، وكأنها منفصلة عن حياة الطبيعة الجادة الواعية العادلة
الموزونة انفصالا يكاد يجعلها عالما مستقلا .

ذلك وحى رؤيتي لغفلات الناس وانقطاعهم عما يدور في الأكوان ،
واهمالهم التفكير في مبدأ الحياة ومنتهاها ، وفي خفايا الطبيعة وأسرارها .
وحين أجلس مجلسا تثار فيه الأفكار عن الكون والفساد ، والحقائق

والأباطيل ، وتصول فيه العقول ، وينبرى بعضها لبعض بالاعتراض والرد والتعليق والتشقيق والبيان الساحر والحجج اللاحقة .

أو حين أقرأ كتابا يعرض فكرة من أمهات الأفكار ، ويسيل به سيلها فيفيض على الفكر والفؤاد .

أو حين أرى آلة معقدة التركيب تطير أو تسير أو تخفق بالأصوات والبرقيات ، مما أخرج عقل مهندس ذى قدرة على الاستيعاب والتقليد والابتكار .

أو حين أرى شيخوخة جليلة واقفة فى محراب تتلو صلوات أو ترتل آيات فى اطراق وخشية واستحضار لعظمة الكون وجلال باريه .

أو حين أسمع نشيدا من شاعر ذى قلب اتسع وتيقظ للأحاديث الصامته والناطقة فى الطبيعة ، واسترق السمع للنغم الذائب فى الكون والموسيقى الأبدية فى حركات نجوم السماء ونجوم الأرض .

حين هذا وذلك وأقول : هنا موضع تكريم هذا الجنس ومؤهلات خلافته !

هنا الانسانية التى تقنع العقل الحائر بقيمته وقيمة الطبيعة وقيمة الخير والحق والجمال !

هنا وضوح وانكشاف لمعنى سيادته ، وملكوت واسع يصح أن نستند اليه فى تخيل مستقبله ، وفى تبين موضعه وسط ما يعمر الكون من المخلوقات .

ثم أهتف : أيها الانسان ! تيقظ لنفسك لتفرح بها .. تيقظ أنك حى تسعى وترى وتفكر وتتجه أى اتجاه تريد وسط الظلام والجمود والصمت والبكم والصمم والعمى .

أنت الذى تفقه وتدرك تلك الحياة التى لا تجد غير عينك وأذنك وسائر حواسك .

تذكر أنك المقصود بكل هذا الذى يحيط بك ، وأنت خليفة على مقدرات الأرض ، وأن فى يدك قوة من قوى التعمير والانشاء والتوجيه والتغيير والتنويع والتفريع ، وذلك شرف عظيم !

تلقظ واهتف في سمع الزمان والمكان : أنا أنسو وأترقى وأتكلم وأفكر ، وليس أمامي حدود وسدود أيتها الخلائق الواقعة المحدودة !

واجلس بجانب الجماد والنبات والحيوان فترات ، لترى الفوارق بينك وبينها .. ولن يغفر خالق الانسان لامرئ جاء الى الحياة ولم يجلس مجلسا بين هذه الكائنات يوازن بينها وبين نفسه ، ويحدد موضعه منها . ثم يرفع عينه الى السماء ، ويخفضها الى القبر ، حتى يرى الطريق بينهما .

تلقظ الى الذي مسنا بالحياة ونحن نجهلها ونجهله ، وأخرجنا ذاهلين الى ضحى النهار وسواد الليل ، وأرانا مشاهد ثابتة صارمة في السماء ، ومشاهد مرنة متغيرة في الأرض ، وبدأ حياتنا من نطفة ، ومط أجسامنا من مضغة لحم ملقاة في ظلمات الأرحام ، الى أجنة مكتملة التخليق ، الى أطفال دارجين ، الى غلمان يافعين ، الى مراهقين متفتحين ، الى شبان مشبوين ، الى كهول وشيوخ منتظرين لا يعلمون وراء أيامهم أياما .. !

الى الذي أدار الشمس أمام عيوننا دورانا يبلى في أجسامنا نسيجاً وينسج آخر ، ويزيد في أفكارنا صوراً وينقص أخرى ، ويطوى الأيام تحت أقدامنا سفراً في الزمن ، ثم يطوينا بالأيام عضواً عضواً وذكرى وراء ذكرى !

الى الذي فتح في نفوسنا نهماً لا يشبع من أطايب الوجود وحقائق الوجود ، ثم سجننا في سجون القبور الى يوم النشور .

لقد أدخلنا الى هذه الدار لنبحث عنه في عالم الفكر ، وننتظره وراء الأستار ، ونقرع باب الزمان والمكان في غرة كل يوم وطلعة كل مساء ، نسأل عنه ، ومعنا عيون تقود ، وأقدام تسير ، وقلوب تتلفت وراء كل ورقة في كل شجرة ، وكل ذرة في كل مدرة ، وتنظر في الوجوه والعيون والألسنة ، وما يزحف ، وما يمشى ، وما يطير ، وما تحمله الريح ، وما يحمله الماء والأثير ، وما تحمله قوة القوى : الفكر !

وى ! ! آية غفلة هذه التي تغشى الناس وتركهم عمياً ذاهلين عن مجيء الحياة بهم من غير اختيار الى دار المعائب ، وعن سيرها بهم الى دار

المجهول ، وعن سير الشمس والقمر ، وتوارد الأيام : وسقوط الأمطار ،
وتسفار الرياح الى مختلف النواحي !

ثم أية غفلة هذه التي تغطي عقولهم وتصرفها عن الفكر فيسن جاء بهم
وسيدّهب ذلك الذي استتر وأصر على تكبره واختفائه !

ولو دخل الانسان الدنيا بكامل نفسه وفكره حين يولد ، ولم يدخلها
في غيوبة الطفولة وذهولها وتدرجها به من البسائط الى المركبات الى
المعقدات ، وهو في شغل عن الأسباب والمسببات : اذن لربما خرج منها
مجنونا بمجرد دخوله اليها ، من شدة الفجأة والدهشة العجب !

ولعل الحياة توطد نفسها في نفس الانسان في زمن ذهول الطفولة
ليطبق احتمال أمانة الفكر ، وليعيش بعد ذلك في نصف شعور ، وليحتمل
ما عساه يلاقه من الدهشة والتناقض .

والانسان هو نتيجة انطباعات قوى الكون في ورقته الحساسة وهي
المخ .. فلا بد من مرور زمان قبل الادراك الكلى وبلوغ الأشد حتى
يتأتى للدنيا أن تدخل الى ذلك المخ العجيب . وبعد بلوغ الأشد يبدأ
الادبار والانحدار ، وحينئذ يجب الحذر والبدار قبل النهاية الآتية .

ولعل الله الخالق المبدع شغل أكثر الناس بصغائر الحياة والنزاع عليها
وجعلهم كالقطيع الغافل المرتاح السادر في غفلته وعماء عن المعلوم والمجهول
من أمور الحياة ، وأخرجهم في خطوط مرسومة وحلقات مفرغة ليعملوا
في الأرض كما تعمل الثيران في الطواحين .. تدور وهي لا تعلم أنها تدور
ولماذا تدور .. وضربهم بفتنة الدنيا ، فزأغت منهم الأبصار عن الحقائق
الا في فترات الدين والصلوات .. وحتى هذه أدركوها وهم في خمار المادة
وسعار الشهوات ، الا قليلا منهم ، وهم العارفون المدركون لأرصاء الطبيعة
وشئ من تدبير الله فيها ... لعله فعل هذا ليخفف عنهم دهشة الفكر في
أعاجيب صنعه التي كلما زاد فيها الإنسان تفكيراً زاد حيرة ! فهم لا يحتملون
هذه الدهشة ويصبرون عليها كما يصبر العارفون .

وهؤلاء العارفون لو اطلعوا على الغيب لاختراروا الواقع وانصاعوا

تحت حكم الأقدار ، ولو في مقارفة الأضرار والأوصاب ؛ اذ قد عرفوا أنهم لا بد أن يخضعوا ليشتركوا في حبك الوسيلة التي أرادها الخالق المبدع لأطفال الحياة الذين هم جمهور الانسانية العاملة التي عليها عمار الأرض بالأسلوب المادى المعروف .

وربما كانت غرائز القطيع العنيفة هي التي تنمى حركة الحياة الدنيا وتوسع آفاقها ، كما ينسى عنف غرائز الطفل مستقبلة ويوسع من آفاق حياته .

اذن : فلا ملام على الأقدار التي تدبر كل شيء وتضسعه بميزان ، ولا يجوز مطلقا أن تتوهم أن حياة الانسان بما فيها من أزمات ومآثم ، قد خرجت على الأقدار ، وأنه قد فأتت على الله الغاية من خلق هذا النوع — كما توهم بعض من أشرت اليهم سابقا (١) — فان الانسانية لا تزال في دور تفتح المدارك وعقاييل الشباب ، والشباب فيه لوائح كثيرة ، ولا بد أن تتدرج الى أدوار الرشد الخالص في كهولتها وشيخوختها ، وأن تحقق الغاية الكاملة من خلقها كما أرادها ربها .

وكل مآثم الحياة الانسانية وأزماتها قد تغتفر ويجد الفكر لها تعليلا الا جحود خالق العالم أو الاشرار به !

وكذب من يريد خديعة نفسه ، وخديعة الطبيعة ، وخديعة رب الطبيعة ! ذلك الذى يريد أن يفرض للحياة الفكرية الانسانية مبدأ غير « نقطة البدء » التي يراها الفكر أول حياته ومفتاح عالمه .

كذب وضل ضلالا بعيدا ، وخسر خسرانا ميينا ، وقلب الحياة على أم رأسها وأم رأسه !

ان نقطة البدء في الحياة الفكرية ، هي الفكر في بارىء هذا الكون الكبير الهائل الذى خلقنا منه وأسكننا فيه من غير اختيار منا .. الفكر فيه حتى نعرفه ونؤمن به وندرك طرق تسييره للحياة والطبيعة ، فنسير على خطواته وسننه ..

(١) انظر صفحتى ٤٩ ، ٥٠ .

انه مجهول للحواس ولكنه معلوم للفكر . وقد رأينا ظل يده يقع على كل شيء : ويضع كل شيء في موضعه .

ومن أضل ممن يأخذ أطفال الحياة أول نشوئهم ، ويباعدهم عن نقطة البدء هذه : ويضعهم في مكان سحيق ، فيستمر أول الطريق عندهم مجهولا ، وآخره مجهولا ، ووسطه مختلطا مشوشا !

الجناية الأولى هي اهمال الفكرة الأولى : وهي السؤال عنم جاء بنا الى هنا ، ويمضى بنا كعابري سبيل .

ومن وراء الجناية الأولى تتلاحق أخواتها التي تجعل الحياة أغلاما متسلسلة .

ان انفصال جنين انساني من رحم أمه حادث عظيم ينبغي للإنسانية أن تتلفت اليه وتوليّه أجل عناية ؛ فلعل في الوليد حلقة جديدة فائقة تحمل سرا جديدا من أسرار تكوين هذا النوع .

ولكن الإنسانية أو الدولة تجنى على نفسها ، اذ تهمل وصل عقل كل ناشئ بفتح الحياة . ومفيض فيضها ، ومرسل رحمتها .

وكان الوثنية لم ترتفع بعض آثارها من الأرض للآن ... لأن من ألوانها انصراف العقل الانساني عن الفكر في رب العالم وما يليق به من الكمالات ، وعن شكره الدائم ما دامت آلاؤه وفيوضه تملأ النفس بالحياة وتتواتر على الجسم .. ثم الركون الى حجر أو بشر أو شيء من الأشياء ينسى الانسان معه رب الحياة ، ويستغرق في ذلك النسيان ، حتى يتعبد ويلوذ بما ركن اليه .

وها نحن أولاء نرى في هذا العصر آلهة منصوبة من المتاع والشهوات والآلات والأعمال والصناعات ، يستغرق عقل الانسان فيها حتى ينسى واهب الحياة ..

قد يظن ظان أني مغال في الروحية حين أدعو الى أن يكون عقل الانسان دائما مرآة لشعاع ساقط من سماء الله .

ولكن هذا هو الوضع الأصيل الحقيقي للدين على ما أفهمه . وعلى ما فسرته به في مجال آخر : من أنه الاحساس الدائم بالحياة ، والفكر في مبدعها ؛ لتكون لذاتها وآلامها وأطرابها وأوصابها صورا وألوانا من العبادة .

والاسلام الذي هو دين الطبيعة ودين الحياة ، رسم لنا هذا حين سن رسوله أن يذكر اسم رب الحياة عند الأكل والشرب والجماع وسائر الأعمال واللذات والآلام . حتى عندما يريد الانسان أن يدخل المكان الذي يخرج فيه مافي جوفه من الأذى .. !

وان يكون الدين غير هذا التذكر الدائم .. فليحمله في نفسه من شاء وليتركه من شاء .

ألا انها « ديانة الحياة » التي تستحق وحدها أن يحيا الانسان بها : ويسعى جاهدا في سبيلها لتحقيق غاياتها .

وغاياتها : العقيدة الثابتة التي لا تتزعزع بخالق الحياة الواحد . وحفظ الحياة نقية قوية متجددة كما هي في الطبيعة . ورصد قوانين الطبيعة التي تسير الحياة بنظام دقيق في الجليل والحقير . واستخدام تلك القوانين لصنع موجودات جديدة على النماذج والأساليب التي في الطبيعة .

وعدم الغفلة والذهول حتى لا نرى اليوم كأس ؛ فلا يكون الزمان عندنا يوما مكررا مسلولا ، ولا يكون احساسنا بالحياة واحدا في مراحل عمر الفرد وعمر الجماعة . فان ذلك احساس جسدى فقط بالحياة ، ووراءه احساس فكري روى عند من لهم اخلاص الفكر في الكون .

أولئك الذين يرون أن كل يوم جديد .. ثم يسبقون الحياة والزمن .. ثم يموتون ليولدوا مرة ثانية من بطن الدنيا ليروا مشاهد أخرى جديدة ، فان العالم لا ينتهى مداه عند رؤية النفس والأرض والنجوم .

وان الذى صنع هذا العجب الذى نراه ، لا بد قد صنع غيره لا نراه ؛

صوفية مادية

تمجيد واصل الى من له المجد ! - دنيا المهندسين -
موقف لصلاة جامعة - الى المعتمدين على المباحث الروحية
- نتائج لقانون التسلسل والترقى - فرضية لا بد منها -
اشارة قرآنية عجيبة - ضروب من العقول - أدوار المعرفة
وأدوار العلم - انسانية الشرق المضيئة - العلم دين -
أين العصا السحرية ؟

ينبغي أن أقول لمن عساهم يخشون من مغالاتي في تقدير قيمة الانسان وما صنعه من الآلات التي فاقت بآلاف الأضعاف قدرة الحيوان وقدرته هو على العمل والاحتمال والانبعاث والسرعة والدقة في الحساب والرصد وقياس الدقائق وابرار الخفايا وجلب المنافع والأضرار : اننى لا أبغى من وراء ذلك الا لفت أنظار الغافلين الى قدرة الفكر البشرى والى وجوب تمجيده عن السفساف الحقير من التصرف ، واطلاقه يرود وينظر ويعمل في ملكوت الطبيعة .

ولا أقصد بتمجيد الفكر الانسانى الا تمجيد بارئه وواضع أسرارهِ في هذا الجسم المحدود الضئيل .. فلا يتوهمن متوهم اننى سأخرج بغلوى في تمجيد الانسان الى شئ أشبه بإشراكه في الخلق والايجاد ، فأننى قد حددت هذا النوع في فصل سابق ، بأنه آلة في يد البارئ يتم بها التنويع والتفريع في خلق المادة وتصويرها .

ولا يسعنى غير هذا ، بعد أن رأيت وفكرت في أعمال تلك الطائفة المجيدة التى لم يلتفت الى وضعها فى الحياة بعد ، ولم يعرف لها خطرها فى تحقيق الغرض من خلق النوع ، ولم ينظر اليها ولم تنظر لنفسها نظرا روحيا ... وأعنى بها طائفة المهندسين ... أولئك الشعراء الصامتون الذين يرسلون قصائد مجسمة ، ويفعلون الأعاجيب من المواد المبعثرة المشوشة المختلطة الملقاة بدون نظام وتنسيق ويقىمون منها هذه الأشكال الموزونة المصقولة المنوعة ، التى عملت فيها آلاف العقول والأيدى بالتلوين والتزيين

والاخراج الفنى الغنى باللفقات الذهنية ، واليقظة لألوان الشفق وأفواف
الزهر ، ومزج الأضواء والظلال ...

أو يقيمون أجساما آلية تنبض بالنار والبخار ، وتسعى بهما
أو بالكهرباء ، وتضيف الى عالم الحركة فى الأرض قوى أخرى تملأ سمع
الزمان مع كل ما يدور فوق وتحت ..

أولئك الذين تسير أعينهم على مواقع يد الله ، يلقطون أسرارها من
غمار الحياة الزاخرة ، وعباب المائع و « المتبلور » والجامد ، ثم ينظمون
كل هذه الأفانين ويتخذونها أساسا لقوة التقليد وقدرة الابتكار التى فى
أفكارهم وأيديهم .

أولئك الذين يسيرن على أسلوب الله فى العمل ، ويتلقون فيوض
المواد والقوى الطبيعية من يده الكريمة ، فيقسمونها ويوزعونها ويتممون
ما أراده فيها ، ويجلون ما أخفاه فى أطوائها وثناياها ، ثم يضعونها فى
الأرض مجملة منسقة متاعا للعيون ، ومثابة للأجسام ، ومظهرا وتأويلا
لأحلام الروح فى عالم الجمال .

ولن ينتهى العمل الهندسى للانسان فى الأرض الا بعد أن يملأ شعابها
وهضابها وهواءها وماءها وسهولها وأوعارها بآثار يده وفكره ، فانه
مخلوق برهن على أنه يصلح للعيش فى اليابس والماء والهواء ، وأنه لا شىء
الا وهو واجد فيه حقلا ليده يعمل فيه ويأخذ منه .

واننى ما أسمع صوت قارئ يتلو كلام الله فى تمجيد ذاته العلييا
فى محطة الاذاعة ، فتردد صوته جميع آلات الالتقاط فى جميع الأنحاء
وتبث ذلك التمجيد الى زوايا الدنيا وأركانها وطبقات الجو ، الا أحس
أن الانسان ابتداء يهز الأرض والكون كله برسالته وعبادته ، وينطق
بها الجباد ، ويسمع بها على رغم الأبعاد ..

تلك روحية مادية حديثة ، ينبغى أن نكون من مظاهر التدين فى هذه
العصور التى تسير فيها المدنية المادية بحياة الانسان فى ساعة واحدة

أضعاف ما كانت تسير به مدنيات العصور السالفة فى عشرات السنين .

نعم ان أصول الدين الحق واحدة ثابتة لا تتغير ، ولكن ينبغى ألا نكون جامدين متحجرين فى طرق العبادات ، فنفهم أن عبادتنا قاصرة على الأشكال الموروثة ، بل يجب أن تكون انتقالات العلوم بنا سببا فى أن نعبد الله بها ، وأن يزيد فكرنا فيه من أجلها . وتلك عبادة مطلقة من قيود الطقوس والرسوم والأشكال .. عبادة يستطيع أن يقوم بها من يسير بسرعة آلاف الأميال فى الساعة ، ويرتفع الى طبقات الفضاء العليا ، وينخفض الى أعماق البحار السفلى ، ويتنفس فى أقصى الشرق فتسمع أنفاسه فى أقصى الغرب .. ذلك الذى يستطيع أن يترك فى كل مكان كلمة تشهد بالله وينطق بها الأحجار والأشجار والماء والهواء ..

فهناك ، بين العلم المادى والاستغراق الروحى ، يجب أن يقف الانسان الحديث ، يناجى الله وفى قبضة يده مفاتيح أسرار المادة ونواميسها ، وفى قلبه صلاة دائمة جامعة .. !



وهذه الروحانية المادية تمجد العلم المادى والعمل به ، وتخضع لدولة الأجسام ولا تثور عليها ، ولا تعطل قواها بل تنميها ، لأنها تعرف أننا ما خلقنا فى عالم الأجسام الا لنعلم قوانينها ونؤمن بها .

وينبغى أن نقول هنا للتاركين للعالم المادى الظاهر ، المنصرفين عنه الى مباحث الروح ، الذين يفرحون اذا عثروا على حادثة غريبة لا يستطيعون تفسيرها تفسيراً مادياً ، ليتخذوها حجة على وجود قصد وعالم آخر وراء هذا العالم المادى : انه ما نغرمون به وتنفقون حياتكم من أجله ، لا يصح أن تصرفوا اليه وحده فى الاستدلال ، لأنه لا يبلغ الآن الى عشر معشار الحجاج التى تستطيعون أن تأخذوها من ذلك العالم الظاهر الملىء بالعجائب والمعجزات التى لا تحتاج العقول معها الا الى حركة ارتداد الى مبادئ الأشياء ، والا انى اليقظة الدائمة لمراقبة كل شئ والدوران حوله ، ولأن ما بين أيدينا وما خلفنا ملىء بالعجائب التى

يرأها كل فرد ويخضع للمنطق المستمد منها كل سليم الطبيعة غير شاذ ولا شارد . « وكأى من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » .

فنحن نستطيع بجهد فكرى قليل أن نأخذ من هذا العالم المادى المظاهر ، أدلة كثيرة على أن وراءه عالما آخر ، بل عوالم أخرى مجردة من قيود حياتنا هذه ، ولو لم نر من ذلك شيئا ... فإن الرؤية ليست هى الطريق الوحيد الى التصور والحكم .

والنظرة العلمية المبنية على ادراك قانون الترقى وقوة التطور ، تبين لنا أنه ما دام قد وقف الادراك بواسطة جسم من الأجسام عند حد الانسان بعد أن تدرج اليه فى سائر أنواع الحيوان ، فلا بد أن يكون وراء الانسان أفق حياة عاقلة أخرى ، هى بطبيعة سلم الترقى مجردة من الأجسام . وكما أن هذه الآثار والمشاهد الباهرة التى نراها فى العالم المادى نتيجة لعوامل خفية نوعتها وشكلتها ، فلا بد أن يكون فى غير الأرض آثار ومشاهد أخرى هى نتيجة لعوامل ونواميس أخرى غير التى كان من نتائجها ظهور عالمنا الذى ندركه بحواسنا . وهذا هو اللائق باتساع الكون الذى أرضنا فيه كذرة رمل فى صحراء ، فلا يصح أن نتخذ أساسا واحدا للحكم على جميع ما فيه .

وهذا حكم نحكمه خضوعا للفرضية الآتية التى تحل لنا هذا الاشكال وإن أوقعنا فى غيره .

تخيل انسانا خرج الى الحياة أعمى أصم أبكم معدوم اللمس والشم ؛ فهل مثل هذا يكون لعالمنا وجود عنده ؟ بالطبع ، لا . ولكننا مضطرون الى أن نحكم أن عالمنا هذا موجود ، ولو لم يوجد فى حواس هذا المسوخ وكذلك نحن مضطرون الى ان نحكم أن وراء عالمنا هذا عوالم أخرى ولو لم توجد لنا حواس تدركها ؛ لأن هذا هو الذى يتلاءم مع اتساع الكون ، واتساع قدرة المسيطر عليه ، واتساع عالم الفروض والصور فى بعض العقول .

وقد أشار القرآن الى معنى عجيب يفتح معه خيالنا ويأخذنا في عالم لا نهاية له من الفروض ، ، وان كان لا طاقة لنا بادراك ما فيه من الصور . قال تعالى : « أفرأيتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ نحن قدرنا بينكم الموت ، وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون » .

وما تحته خط هو موضع النظر الطويل ، وباب للخيال المجنح .. ولكنه خيال مظموس الصور ، لأنه لم يجد أصباغا وألوانا ينتزع منها ما يريد أن يؤلفه ويركبه ويفتن في تهاويله .

وكيف ذلك وقد قالت الآية : « فيما لا تعلمون ... ! »

لا يصح لمن لم يدرك أن ينكر على من أدرك ، فان جوانب الكون واسعة ، ورسالات علم الله الى العقول كثيرة ، وليست كل العقول قادرة على الغوص في أعماق الكون ، كما أنه ليست كل الأجسام قادرة على الغوص في أعماق الماء . فمن لم يستطع السباحة والغوص في اللجج والرجوع الى الشاطئ ، فليلزم وليحذر ، حتى لا يفرق ويذهب في أهوال المعاني .

وما في العالم « المتبلور » شيء قليل بالنسبة للعالم الذي تلتقي فيه أمواج المعاني ، ويعب عباب الفروض والغيوب والرموز ، ولكن ما فيه لا يكون أساساً لأحكام الحياة الدنيا .

وعقل الانسان كطفل الأم : ينبغي ألا تطلقه في المخاطر والمزالق الا اذا شب وكانت له قوة واقتدار .

ومن العقول نوع لا يعيش الا في أعماق الكون ، فاذا طفا على السطح وأخذ بظاهر الحياة ، اختنق وقلت فيه الحياة ، كالسماك الكبير .. ومن العقول ما هو مسير لظاهرة الحياة ، لا يتخلف عنها ولا يتقدم .

ومن العقول ما هو واقف متخلف انقطعت به الطريق ، فلم يصل الى العالم الفكرى الموجود الآن فى أذهان الأمم المتحضرة ، وهذا عقل محروم فاته كثير من رسائل الله الى الفكر الانسانى .

ومن العقول ما هو أسرع من الحياة ، بحيث يرى مشاهد آخر ساعة فيها كصور مكررة قديمة لا تثير فى نفسه تطلعا ، فلو خرج من الحياة لم يخسر شيئا ولم يفته شئ ، وهذا هو العقل الفائق السابق .

والنفس اذا عرفت قرار الحياة وأصولها ، لم تبال بما يحدث فى فروعها من تلون وتبدل . وما عند هذا الصنف من صور كمال الحياة ، أرحب من الموجود وأكمل ، فهو يسير فى مستحدثات الأيام كما يسير المرء فى طريق معروفة له تردد عليها مرارا ، من كثرة تفكره فى الموجود والمعدوم وما يصح أن يوجد .

وهذا قد يعمل فى الحياة بجذ وصبر ، ويسير كما يسير الغافلون بدفعة دولاب الحياة ، وطواعية لحركات سيرها بالناس ، وخضوعا لقانونين عظيمين من قوانينها : وهما الأمل والعمل ...

وهكذا الطبيعة ، رسالات من علم الله الى الفكر الانسانى العام ، يتلقاها كل عقل حسب طاقته واتساع حوزته ، ويأخذ منها ما قدر ويسر له .

فينبغى لمن لم يدرك ألا ينكر على من أدرك .. ينبغى لرجل الشارع ألا يجادل فى عالم « أينشتين » أو « أديسون » أو « الغزالي » ومن اليهم من العقول الفائقة التى أطلت على الأرض ، وكانت فيها كالثمرات التى تلتقط أسرار نوعها وتحفظ بذوره وترقيها .

وبين الاله البارئ الكبير وما عنده من عوالم المعانى والقوى المجردة والكمالات التى لا تنهاى ، وبين عالم المواد والكثافات ، وقف الانسان التائه المتأمل الساعى وراء المعرفة حيناً من الدهر ، لم يتقدم فيه خطوات كثيرة ، ثم انقسم فريقين ، فريق استمر فى التفكير المجرد فى الطبيعة

وما وراءها ، وأدرك بعض اتجاهات الكون باللمحات والنظرات الشعرية
الخاطفة ، وقنع بذلك حتى خرج من الحياة « عارفا » غير « عالم »
ولا « عامل » ...

وفريقا أعياء التفكير المجرد ، ولم يجد له محصولا يملأ يديه ، ويشهد
له الناس بأنه أدركه وقنصه ، فانصرف الى أنواع الحياة في الأرض
وأشكال المادة ، يعث فيها ويدور حولها ويخرج أسرارها حتى « علم »
ثم أخذ يقلد ويتكر .

وكما أن الأقدمين كانوا ينظرون الى أعمال الطفولة وحب استطلاعها
الأشياء ، على أنها عبث ولعب لا طائل تحته .. كذلك نظر أكثر الكهنة
الى أعمال الرجال في المادة وتنويعها وملء الحياة بضجاتها وأصواتها ، على
أنها عبث ولعب ولا يليق بمن يسير الى الموت والقضاء . وكان المثل الأعلى
للحياة الصالحة عندهم أن يطلق الناس أعمال الدنيا ، ويذهبوا الى المعابد
والمعاهد ، يتلون « الأوراد » ويفلسفون وينظمون الأشعار المتشائمة ،
ولا يرفعون في الأرض حجرا على حجر ، فيكونون عنصرا مستهلكا غير
منتج ، يأخذون من الحياة أغذية وأعمالا ، ولا يعطونها الا أقوالا
وأشعارا ، ويقفون في طريق تحقيق بعض الغايات الكبرى من خلق الانسان ،
هؤلاء لا تزال منهم بقايا كثيرة في الشرق ، وهم الذين جعلوا انسان
الشرق لا يزال أكثره كأكداس الحصيد وأهراء الغلال التي تترك في أماكنها
حتى تقتلها الآفات وينخر فيها السوس .. وهم بذلك يضعون على الانسانية
ثروات تحصل عليها من تشغيل أفكار هؤلاء الملايين وأيديهم . وهم بذلك
يتركون الناس من غير تنسيق وتنظيم في الحشد والتعبئة للمعابد والمعاهد
والمعامل والحقول والجيش .

هؤلاء ينبغي أن يزيلوا عن عيونهم غشاوات القرون الأولى ، ويعدلوا
أفكارهم على مقتضى ما توحىه سنن الله الدقيقة التي تجعل من تصرفات
جميع قوانين الطبيعة في وقت واحد لحنا موسيقيا متسقا يشترك في توقيعه
كل شيء ، ويعلموا أن الكفر بعلوم الطبيعة والفسق عن نظمها ، كالكفر
بالعقائد الصحيحة والفسق عن نظم الأخلاق .

ان الايمان بالعلم وتنظيم الحياة الانسانية بطرقه ، واطلاق الأفكار فيه ، هو الأمر الواحد الذى ينتظم الانسانية جميعها ، وتلتقى عليه بأفكارها وأيديها ، وقد جعلها تلمس عرشها المرموق ، وتعرف دولتها المأمولة فى مستقبل الحياة .

ولكن أين « العصا السحرية » التى ستفعل فى تعديل شهوات الأمم وغرائزها وتعصباتها الذميمة ، بحيث تجتمع على خدمة العلم والحياة بأفكارها وأيديها ؟

ذلك ما يسأل عنه رجال التربية ، والمفكرون فى الدين والاجتماع . رجال التربية « فلاحو » حقول الطفولة : منطقة النمو الدائم و « علب » أسرار المستقبل .

ورجال الفكر رسامو المثل العليا ، القادرون على استدراج الناس إليها وسجنهم فيها ذلك السجن المحبوب ..

ولكن هؤلاء وأولئك ما يزالون بعيدين عن مقاليد الحكم وتسلم مقاوود القطيع ، بينما مكانهم هناك لو صحت الأوضاع . وما يزال محترفو السياسة والدجاجة بها ، المتخلفون عن بلوغ القمة فى الفكر والخلق ، هم الغالبين المتسلطين كما بينا سابقا .

وهؤلاء هم سر البلاء النازل الآن بالناس ، كما كانوا فى القديم .

الباقى من صانع الحضارات الفانى

اختزان المعانى الكبيرة - « العنسة » الخفية - التعجب
مدخل التعبد - التعبد هو الغاية .

ما الذى يبقى من الانسان ابن الفناء صانع الحضارات ؟
أهو أن يصنع صوراً فكرية وحضارية ناتجة من مزاجه فكره
بالمادة ، ثم لا شئ وراء ذلك ؟

وأيّن محصول النفس من المعانى التى يدركها فتكون ذخيرته فى نعيم
الحياة أو جريرته فى شقاءها ؟

أيّن المعانى الكبيرة التى يأنس بها الناس فى الحياة ثم يختزنونها
فى ألفاظ تتلى وتتشدد ويصلى بها : كالايمان . الحرية . المجد . النجاح .
السيادة . النبل . المروءة . الحق . العدالة . الاخاء ، وهلم جرا ؟

وأيّن أضداد هذه المعانى الكبيرة من المعانى الحقيرة التى تلهب القلب
والضمير بسياطها الجارحة ، وتحملها على الادراك والعشق للحق والخير
والجمال ، والفرار من الباطل والشر والقبح ؟ فهى أيضاً عنصر يمد الحياة
بالفهم والادراك لأسباب الفرار الى عالم الحق والجمال .

ان المواد والمخلفات الحضارية المادية لا بقاء لها ولا معنى ولا ذوق
الا فى نفوس الخلف بعد السلف ، وهكذا ..

وحضارة أمة تزهر ثم تذوى فى يدها فتنتقل شعلتها الى يد أمة غيرها
ثم تذوى وهكذا .

فأيّن المعانى العظيمة من هذه الحضارات العظيمة المتعاقبة ؟ هل فنيت
مع أهلها وانتهت ؟

وحضارة الحاضر التى بنيت على العلم الطبيعى الذى يستمد ثباته
ودوامه من ثبات الطبيعة ، ما بالها ؟ انها قد أيقظت الانسان للتاريخ يصنعه

ويحوطه ولا يتركه يضيع : وأشعرته بعبان عميقة للخلود الذى يصبو اليه ويتعلق بأسبابه : وجعلته يفر من عوامل الفناء وأسباب الدثور ، ويرى أنها لا تليق بهذا الجهد العظيم الرحب الذى يبذله .

وقد رأينا امبراطورية كالبريطانية صاحبة يقظة حريصة على خلودها ، مبادعة بينها وبين عوامل الفناء ، جالبة عوامل البقاء والنماء ، قد طال عمرها حتى ضرب رقما قياسيا فى التاريخ .

فهل يجوز أن يكون ذلك الأثر المادى الحضارى هو كل ما يبقى من الانسان ؟ ان هذا الأثر فى عميق التفكير وحقيقة الأمر ، ما هو الا فقااعات على سطح محيط كبير ، حياتها وبريقها واتفاخها وحجومها وألوانها ماهى الا صور من ضوء يشع برهة ثم يفنى فى بحر الظلام الأبدى ١.

اذ؟ فما هذه الخديعة الكبرى التى تغشى على عين الانسان وتجعله يخال نفسه صورة من الكرة العالمية ، بل يخال الكرة العالمية صورة من نفسه ؟ !

انها فى تلك « العدسة » الخفية التى فى قلبه ، يزوى بها الله العالم فى ناظره ، ويطويه بين حاجبيه !

والتفكير فى هذا الشأن من حياة الانسان يحملنا على أن نقول : اننا نصنع هذا المتاع المادى الدقيق ، وهذا الجمال المؤقت الذى تحلم به أرواحنا وتحققه فى المغانى والمرايح والأغاني وسائر المرتفقات واللذات ، لكى نراه يفنى على رغمتنا ، فيحملنا ذلك على التعلق بما يستطيع الله مالك هذا الوجود أن يفعله من الجمال الدائم السرمدى الذى نشعر شعورا خفيا عميقا أننا خلقنا له ، ونسير فى طريقه جماعة بعد جماعة .

وما دام الانسان استطاع أن يقيم لنفسه عوالم رائعة من الجمال المؤقت فلا شك أن بارئته وبارئ الطبيعة يستطيع أن يبنى عوالم من الخلود والجمال الدائم الذى يغازل أحلام الانسان .. فان جمجمة صغيرة ضئيلة كالتى له ، استطاعت أن تصنع من المتاع والجمال ما يروعها ويحجب

اليها الاستمساك بهذه الحياة .. فكيف بالعقل المحيط ذى العلم الأوسع ،
والقدرة الفائقة ، والروح الأكبر ؟ !

حينئذ يسلمنا هذا الأمر الى أن تقول : ان الجزء المعقول بقاؤه من
حياة هذا الانسان الفانى مع ما يصنعه ، هو هذا الجانب الذى يختزن
المعانى العظيمة التى يتغنى بها ويعشقها فى حياته الدنيا — وقد يتعجل
الرحيل عن هذه الدار من أجلها ، ومن أجل شفاء نفسه من أضرارها ! —
ثم يتعجب منها ويشعر بها بعمق ولذة كريمة وأنس واجلال . هو جانب
التعبد . وهو مفتاح الشعور بالدخول الى رحاب الخلود فى هذا العالم
الأكبر الخالد ... وما عدا هذا الجانب فمحضر له ومهيء ؛ فأننا نفكر لكى
تتعجب ... ونعيش بالحس لكى نتعجب ... ونعمل فتمشى ونطير ونزحف
ونصنع ، لكى نتعجب .. نتعجب من الأسرار المودعة فينا وفى الكون الذى
نعلم أننا غرباء عنه راحلون منه بأجسامنا .. ونتعجب لكى نرسل كلمات
الاستحسان والمسرة والشكر لمن أدخلنا الى هذا العالم العجيب .. فنقول
لبارئهِ وبارئِ نفوسنا : ها نحن أولاء عبيدك الشاكرون المتعجبون من
قدرتك وعلمك اللذين جعلانا فاهمين قادرين عالمين !

وتلك هى صفوة العبادة .

وليس ما يصنعه الله مباشرة فى الطبيعة وفى النفس هو وحده الذى
يوجب التعجب والايمان .. بل معه ما يصنعه الانسان نفسه يضاف الى
موجبات الايمان .

وفناء ما صنعه بين أيدينا على رغمتنا ، باب عظيم من أبواب الايمان ؛
فان قدرة وعلمنا كاللذين لنا لا يصح أن يفنى صاحبهما فناء الى غير رجعة
ومصير أعظم .. كلا لا يجوز !

والدليل على ذلك هو استفتاء الشعور المرهف بالحياة والتعلق
المشوب بها . ودع عنك البراهين الأخرى ..

فالتعبد هو ثمرة حياة الانسان صانع الحضارات الفانى .. الخالد !

إلى العقل الغربى من الروح الشرقى

انسان غير مفهوم - أوروبا المعمرة المدمرة - نكسة -
خدعة ذهبت الى جهنم - نعمات وترتيلات جديدة - فى
الغربى سياء غنى عن الله - العقل الغربى المغرور -
تناقض بين حياة الارواح وحياة الاجسام - من الطبيب ؟ -
قانون طبيعى ينتقم لنفسه - عبقرية المادة وعبقرية
الروح - الذكاء البطر الجموح - الى احضان الام
الكبرى !

الغربى انسان غير مفهوم ! فقد كفر الأوربيون بالحياة فى الحرب
بعد أن جنوا بها جنونا فى وقت السلم ، وهم لم يذكروا السلم فى زمن
الحرب ، كما أنهم لم يذكروا الحرب فى فترة السلم .

لم يتخذوا من قانونى الحياة والموت حدا وسطا يقيمون عليه حياتهم
وما استخلفوا عليه من حياة الآخرين ، فيعيشوا على كفتى ميزان متعادلتين
أخذين حظا صالحا يعدل السلام ويعدل الحرب .

هم فجروا فى فترة السلم : فتشبهوا ، وكفروا ، وعبدوا الهوى ،
واحتقروا الضعيف ، وشرهوا للمال ، وغصبوه من أفواه الآخرين بالحديد
والنار ، وخانوا أمانة الاستخلاف على الأرض ، وتنازعوا على الطعام
الكثير كما يتنازع الأطفال غير المهيدين !

وهم فجروا فى هذه الحرب ، فلم يرعوا حرمان الحياة الانسانية التى
قدستها الأجيال : فصبوا العذاب على الأطفال والنساء والمستضعفين والمرضى
وسكان المعاهد والمعابد المسالمين ، وحرقوا الأقوات والأرزاق والمأوى ...
فجرياتهم لا تحتمل ولا تستحق العمل بعد هذه الحرب اذا أصروا على أن
يلجأوا لحرب أخرى بهذه الكيفية النكراء التى تدمر ماعمروا وعمر الناس .

من يصدق أن أوروبا البائنة العالمة المعمرة المخترعة العابدة للحياة ،
الساعية الجاهدة فى سبيل الكشف والمال والاختراع ، الباحثة المنقبة عن
خبايا الأرض وركازها ، الرائدة الكاشفة عن مجاهلها ، المبشرة بالمثل العليا

بين الأقوام المتخلفة ، القاضية على تجارة الرقيق ، الحاملة للتجارات
والمعلومات ، الواصلة بين أقطاب الأرض صلة اللاسلكى والراديو
والتلفزيون ، الرسالة « المرسلين » لهداية الوثنيين ، الدارسة للأنواع
والأجناس ... هى هذه المخربة المدمرة الباطشة بطش النمر والأسود ،
القاسية على النساء والأطفال والضعفاء ، المفتنة فى وسائل الآلام ، الهدامة
للدور ، المحيلة عمار المدن الى خراب القبور ؟ !

الأجسام العاجية الجميلة تذوب وتصهر وتسحق عظامها وجماجمها
تحت أثقال الحديد والجلاميد ... !

الوجوه المشرقة البيضاء ، ذات العيون الزرقاء والشعور الذهبية ،
ذهبت قرايين تأكلها النار باختيارها !

مسكنة ! طافت فى جميع بقاع الأرض تجمع الذهب الأصفر «والذهب
الأسود» والحديد ، ثم أوقدت على الجميع فى النار واحترقت معه !

جمعته فى أنانية وجشع واعتزاز واعتزام ... لا لتملأ البطون الفارغة
وتكسو الأجسام العارية ، وتعين أبناء الحياة على نوائب الحياة ، ولكن
لتملأ أفواه المدافع وبطون المقابر ... !

خلاصة الانسانية العاملة المجاهدة المتاجرة المحاربة العاملة ، تحترق
الآن على مشهد من الزنوج والاسكيمو !

الحياة تتحطم بأيدي بنائها ومقيمي صروحها العالمية ، وجامعى مواد
بنائها من لحومهم وعظامهم ودمائهم وذهبهم وحديدهم ونور عيونهم فى
المعامل والمعاهد !

الغادة اللعوب الفاتنة ، ذات المساحيق والأصبغ والعطور والأزهار
واللؤلؤ والديباج « والمانوكير » ، تتكشف عن العجوز الشوهاء الدرداء
المريضة الرسحاء ، ساكنة الكهوف والمغارات ، الضاربة على الدف لشن
الغارات !

الأم العاقلة العاملة ، تصيبها جنة وجهالة فتأكل بناتها وبنيتها !

لندن وبرلين يصب عليهما الخراب والدمار صبا فيباد ما فيهما من
مراكز نمو الحياة و « علب » أسرارها « وقماقم » أجنحتها وولائدها ! ..

والانسانية الجاهلة الغافلة المقيمة بالأكواخ في القارة السوداء وأواسط
التبت ترى هذه الانسانية العالمة المدبرة الجميلة تشن الغارة على الحياة
بالزلازل والبراكين والصواعق الصناعية ... فتحمد الله على الحياة في
الغابات مع الأسود والقروذ التي لا تلتقم منها الا أفرادا !

الحياة تصاب بنكسة حادة يا أطباء الحياة ... فهل من دواء لها فيما
صنعتهم من العقاقير والأقرباذين ؟ !



كنا أوشكنا أن نعبد الدنيا ممثلة في لندن وباريس وبرلين ، وننسى
نهاية رحلتنا فيها غرباء عابري سبيل ، لا نملك المكث ولا البقاء ، ونخضع
لقوانين الزوال والفناء ، ويدور الفلك بنا دورات حتمية تشب الطفل
وتثيب الصغير وتفنى الكبير وتلقى بنا الى المجهول ..

وكنا أوشكنا أن نظن تلك الأجسام الأوروبية القوية الجميلة الرقيقة
الرشيقة الذكية هي الانسان المقصود بالحياة .. وأما من عداها « فحيوانات
بشرية ! » — كما تعبر الهتلرية — ومخلوقات تكميلية خادمة لها ، تعيش
على هامشها ، وتسير في خدمتها ، وقبح اعتقادنا في أنفسنا تبعاً لذلك ،
حتى تركنا لها الأرض طوعاً وكرهاً ، وخلينا لها مكاناً من الدنيا ..

وكنا اعتقدنا أن « عناوين » النظم الأوروبية ثابتة لا تتزلزل ، ونظمها
البارعة عزيزة على أصحابها ، وأن الانسان الأوروبي مقدس لدى نفسه
وأُممه ، فلا تحطيم لديناه ، ولا نسف لنظم حياته ، ولا تمثيل به ، ولا سحق
ولا نشر لأشلائه ..

وكنا أوشكنا أن نرى العالم المادى الدقيق . الذى صار التنوع فيه
والتشكيل والتلوين والدقة والتركيب كأنه دنيا ثانية من مخلوقات
الحديد والصلب والخشب وسائر المواد الجامدة ، منفصلة عن روح الحياة

فى الانسان ، فأخذنا نعيش بها عيشة آلية صحابة بدون وعى ووداعة
واحساس من الروح ويقظة للمصير المحتوم !

ولكن هذه الحرب أخلقت تلك الظنون الواهمة ، وصححت أفهامنا
الفاسدة ، وكشفت عن أبصارنا غطاء التمويه وسحر التخيل ، فاذا بنا
نعود ، واذا بالأوروبيين أنفسهم يعودون معنا الى المعانى الأزلية الخالدة
التي بزغت من قلوب أنبيائنا ، واستنزلوها من السماء بالاخلاص والبكاء
ارب الحياة الذى وضع الانسان فيها موضعه بين الأهوال والألغاز
والأسرار ...

واذا المثل العليا يعود ذكرها الى الألسنة والأقلام ، يرددها الساسة
وسماسرة المال ! ويخطبون فيها خطابة الأنبياء والمرسلين بين عباد الأوثان
بالبیان الساحر والحجج الأخاذة ، والاذاعة العريضة الواسعة .

واذا الترتيلات بالحق والسلام والعدالة ، تنبعث من جميع بقاع
الأرض وتنطلق بها حناجر الناس جميعا ، وتزيد كل أمة فى طنبورها نعمة .

واذا النظم الأوروبية الظالمة الجائرة المتحجرة تذوب تحت حرارة
أنفاس الدعاة الى السلام والحق والعدالة ، وتحت نيران هذه الحرب التي
انقمت شر تقمة من طغيان السياسة والرأسمالية والدعوات الهدامة .

واذا بالروح الانسانية الوديدة الرحيمة المؤمنة بالله وبالانسانية تعود
فى جو مخضب بالدماء ، مندى بالدموع ، مطرز بالآلام ، الى القلوب
المهجورة القاسية الكافرة ، كما يعود طير شارد تائه الى عشه المهجور ،
ومكان حنينه وأسواقه ، فيراه خربا منشور الأعواد ، عبثت به الرياح ،
وعششت فيه العناكب ... فما يزال يضم عودا الى عود وورقة الى ورقة
ويرفرف عليه بجناحيه ، حتى يطرد عنه أنفاس السوء وأوساخ الحشرات ،
ثم يغمره بالرحمة والحب والحنين ...

وفى هيئة أكثر الانسان الأوروبي الحالى وسلوكه سمات غنى عن

الله ؛ وقسوة على عياله الضعفاء ، وتكبر على الفكر فيه ، ونسيان ذكره وقت الأعمال والاحتياجات ، وجود لتدخله في الأمور . كأن هذا الانسان مخلوق هكذا بدون خالق ، أو كأنه خلق نفسه ، وكأن هذه الدنيا ذات الرحاب الواسعة ، والقوى الجبارة التي ليس للانسان فيها من شيء ، خلقت بيده ، فهي مملوكة له ، لا تثير في نفسه تطلعا وخوفا من القوة المسيطرة عليها !

وقد غرهم أن ذكاءهم ضمن لهم تحقيق بعض الآمال والمطالب في بيئتهم المحدودة : الأرض ، تلك الذرة الصغيرة في التكون الواسع . .
ومن العجيب أن كثيرا منهم وهم في نيران هذه الحرب وأهوالها ، لا يذكرون الله كثيرا ، ولا يتطلعون اليه وفي أعينهم دموع ، وفي قلوبهم قذائف ونصال !

ان كثيرين منهم جحدوا الله ونسوه ، ونسوا أننا لم نخلق إلا لنعرفه ونعرف شئونه الكبرى العظيمة في الطبيعة ، فشغلنا عنه بأنفسنا وشئوننا التافهة .

وانك لتعجب كيف يأتي الغرور الى عقول بعض العلماء من الغربيين حين يخيل اليهم أن علمهم ميزان يزنون به علم الله . . مع أن علمهم قد أخذوه من بعض صنع الله !

ولكن ذوى الروح الدينية الشرقية أيقنوا مبديا أن ذات الله أعظم وأوسع مما توحيه الطبيعة وعلومها . . ثم قالوا ان الطبيعة فيض من الله ، وانها قاصرة عما عنده تعالى من الكمالات والعلوم ، وانه ان شاء خلق غيرها أعجب منها .

فادراك الله يعتمد على قوة الحكم والادراك النفسى ، ولذلك لا يكون خاضعا للعلم المادى وحده في صلب القضية ؛ وإنما في حواشيها : أى من ناحية زيادة الاطلاع على دقائق فعله في الطبيعة ، فيزيد اعجابنا بصفات علمه وقدرته .

فلنذكر دائما حينما نكون امام منظر ما ، أو مع احساس نفسى من علوات الدنيا وسفالاتها ، ان عين الله وفكره معنا ، وأنه يرى ويسمع ما نرى وما نسمع ، وأن علمه وقدرته بما نعلم وما نقدر على أن نعلمه ، سابقان على علمنا وقدرتنا .



لقد بنى الغريون حياتهم على مناعة الأجسام وحدها من أمراضها . ولم يبحثوا عن وسائل مناعة الأرواح من آفاتهما ، فأخذوا الحياة من جانبها الضعيف ، وتركوا الجانب الآخر . وقوانين الطبيعة لا ترحم من يخالفها ولا تحاييه ، بل تدافع عن وجودها وتهدم من يحاول هدمها .

فمن يدع ثغرة في بناء الحياة من غير سدها ، أو شك أن يدخل منها الى البناء ما يأتى عليه من القواعد ، ويجعله خاويا على عروشه .

وكان جديرا بالانسان الأوروبي الذى يعرف حجم الميكروب الصغير وخطورة آثاره ، فيحترس منه ويقيم الأرصاد والجواسيس خشية اقتحامه عليه ثغرة من ثغرات جسمه ، أن يعرف أن للحياة الروحية جرائمها الفتاكة ، فيجاهد لكفاحها وقتلها كما يفعل بأخواتها جرائم الأجسام . حتى تسلم جميع قواعد بناء الحياة من أسباب الانهيار .

ولكنه لم يعرف بعد : الجرائم الروحية ، ولا يزال روحه يعيش فى عصر التطبيب بالخرافات ، كما كان يعيش فى عصر الخرافات فى طب الأجسام ..

ولا يزال يسخر من أطباء الأرواح وعلاجاتهم ، كما كان يسخر من أطباء الأجسام حين يفاجئونه بكشف جديد لمرض قديم .

فالى أن يؤمن بما يصنع له طب الأرواح ويعمل به ، سيظل شقيا بتلك الأمراض التى هى أشد فتكا من الطاعون والسل والجدرى وغيرها من الأمراض التى تهدم الانسان وحده ، ولا تهدم معه تاريخه ومبادئه ومبائيه وأمواله .

فمن أعراض أمراض الروح ، تلك القنابل والصواعق والحرائق التي تترك المدن التي صبت فيها جداول المدنية والعلوم ، والتقت فيها الحضارات وثمار الجهود المشتركة ، خرابا ودمارا كأن لم تغن بالأمس .

ولكن ينبغي له قبل ذلك أن يخرج من بين أطباء الأرواح أولئك الدجالين المشعوذين ، والأغبياء المحدودين الذين قد يقتلون النفوس بالعلاج الخاطئ ، أو يغلّقونها دون رحمة الله ، أو يصيبونها بعاهاث ، أو يعالجونها بالخرافات والشعوذة وأسباب الضلال ، كما فعل بأشياعهم الذين كانوا يندسون بين أطباء الأجسام من قبل ، حتى يستقيم علاجه على أيدي الاخصائيين الذين خلقهم الله بقيادة النفوس بالسلوك والمعاملة والبيان الواضح والفكر المضيء المنير .

أولئك الأوصياء لا يلزم أن تكون منهم في الأمم كثرة ، بل ينبغي أن يكونوا قلة ، حتى لا تصيبهم مصائب الزحام على الأرزاق والوظائف . ويجب ألا يرتفعوا إلى المناصب بالوساطات والشفاعات و « الشهادات » بل بأنفسهم وما فيهم من خلق الوصاية الرشيدة والسياسة الحكيمة . والقدرة على ادراك الداء في كل نفس ، ووصف العلاج .

إن رجل الروح والاجتماع وحده هو الذي يوجه المجتمع ، فواجبه أن يأخذ بمقاييد العلوم وفنون الحياة جميعها ، ليدخل على الناس بالعظة والتذكير من آفاق كل نفس ، علما منه أن كل نفس تأخذ منطقها وأحكامها من الأفق الذي نشأت فيه وارتضته لحياتها .

ولذلك كانت مهمة رجال الروح والاجتماع أعظم من مهام غيرهم ، ولا عجب ، فهم الأوصياء على القطيع لو عرف مكانهم .. ولذلك أُنسئ أن يكونوا دائما أذكى الناس وأرحبهم قدرة واطلاعا .

وينبغي أن يدقق في اختيارهم غاية التدقيق ، وأن تكون وسائل العلاج هي ما صلح من موارث القديم ، وأصلح الآراء في علم النفس الحديث . أي أن يكون علم النفس هو وسيلة التربية الروحية والدعوة إليها ، كما صار علم وظائف الأعضاء وعلم التغذية أساس الطب الجسدي

الحديث . وعلم النفس أوشك أن يكون من الدقة والصحة بحيث يستطيع أن يضع الانسان في المخاير والمساير ، وقيس ما فيه بأرقام ا

ان قوانين الروح قد غضبت وانتقمت لنفسها شر انتقام من الانسان الذى لم يقم لها بعد وزنا . وانه لجهل وسفه ألا يفطن الانسان الأوربي بعد الى أن يحمى نفسه من غضبها وتقمته كما يحتمى من غضب قوانين صحة الأجسام .

انه يخشى أن يمد يده فى النار لئلا تحرق ، أو يلقي نفسه فى الماء لئلا يغرق ، أو يقف فى طريق قاطرة لئلا يسحق .. ولكنه يرضى لنفسه أن يبخل فيسرق ، وأن يشره فيكره ، وأن يستبد فيحارب ، وأن يخل موازين العدل فتفسد حياته بفساد حياة الآخرين ، وأن يترك الناس اخوانه جاهلين مرضى الأجسام والنفوس فيمرضوه ويشقوا حياته بشقائهم ..

كلمة يجب أن تعلم وتكرر دائما أمام الدولة وأمام الفرد ، وهى :
ان الدولة كائن عضوى واحد كالجسم الواحد ذى الروح الواحد ..
فاذا سمح لشيء منه ، ولو كان ظفرا ، أو منبت شعرة ، أو خطرة نفس ، أن يخله الفساد ، فسيلحق الجسم كله — وأنت خلية فيه — آثار ذلك الفساد وآلامه .

فاحذر أن يمرض أخوك أو خادمك ، حتى لا تنتقل عدواه اليك ، واشترك فى اطفاء الحريق فى بيت جارك ، قبل أن تمتد النار الى دارك ا .



الغريبون قدموا لنا عبقرية المادة ونود أن تقدم لهم عبقرية الروح ، وأن نريح أرواحهم كما أراحوا أجسامنا .

انهم استغنوا بذكائهم عما وراء الطبيعة ، وقد كفاهم ذكاؤهم تدبير أمورهم كلها ، فيما يخيل اليهم ، مع أن الواقع أنهم فى شبكة الأقدار العليا والتدبير الشامل لحياة الأرض والكون . والرجل الذكى غنى بالحيل وتجدد الأفكار . والغنى يبعث دائما على الطغيان . ومن هنا أتى

الغريون ودخلت عليهم نكبات الحياة لأنهم اعتمدوا على غنى ذكائهم وحده .

وحين يستغنى الطفل بذكائه وقدرته عن ثدى أمه ورعايتها ، ويعلو مستواه البدنى والعقلى عن مستواها ، فذلك عهد ابتداء عقوقه اياها اذا لم يكن ذا ذخيرة موفورة من الادراك والحب والرحمة والأدب النفسى ، واذا كان ينسى أنه قطعة قدت من جسمها وقلبها ، وأنها الوشيعة الوثيقة بينه وبين أرومة الحياة والطبيعة .

وكذلك ينسى الانسان الذكى عجزه أمام قهر رب الطبيعة ، ويستغنى بذكائه عن الاستمداد منه والاستيحاء منها ، فيصير مخلوقا يكاد يكون لاصلة بينه وبين ما فى الطبيعة من موجودات تسير طائفة بالالهام والتوجيه .

فهل تترك الغريين يذهبون بأرواحنا وأرواحهم فى أودية بعيدة عن الرحمة والعدالة والتشوق الى المجهول والبحث عن الله ذى الجلال ؟ !

أتركها وتتركهم للحديد البليد القاسى يطبعها بطابعه ، ويوحى اليها بياسه سياسة البطش والظغيان ، ويشغلها بضجته المنكرة عن هسات القلوب وأصوات الضمائر ؟

اذا ان تركناهم وتبعناهم على الخير والشر ، فسوف نكون غرائسهم وجزر سيوفهم ، وطحين طواحينهم الحديدية الحمراء !

فلنذكرهم بمبادئ الطبيعة أمنا وأمهم ! تلك المبادئ التى فيها من منطق الوجدان أكثر مما فيها من الذكاء الجامح وقوة الاختيار من غير ضابط من هدى الروح .

وان الطبيعة لتذكر أبناءها دائما بوصايا الحق والعدل ، كما تذكر الأم البسيطة أبناءها الأذكاء بوصاياها وعواطفها التى بنت عليها عشا . فمهما اختلفت أفكار الناس وأخلاقهم فانهم يتوحدون حين يقفون بين يدى الطبيعة ، ويشعرون بشعور واحد فيه صدق الفطرة واعتدالها .

ومبادئ الأمومة ، وجوها ، وبساطتها ، وعدم تكلفها ، والحنين
اليها ، والشوق الى مهدها : يجب ألا تنسى ؛ لكى يعيش الانسان بارا بريثا
عامر القلب بالعواطف الشريفة ذات التأثير الكريم فى خدمة الحياة .
وكما يوصف الرجل الذى يهجر أمه بالعقوق واللؤم والنذالة مهما
كانت هى بسيطة جاهلة ، ومهما كان هو فائق العقل واسع العلم عريض
الجاء ، كذلك يوصف الرجل بالعقوق حين يهجر أحضان الطبيعة : تلك
الأم الكبرى . أو حين يؤذى أو يهمل اخوته منها !

- ٥ -

أما بعد..

في معترك الآراء

في حدود البداهة أيضا - فليكن قردا نهض على قدميه ،
ثم ماذا ؟ - وارث الحياة - الشر يلد والصلح يدفن -
الاشقياء الهالكون - نتائج الايمان ونتائج الانكار -
اخلاق العلماء - الامسان والانجليز والعرب ، الهندوس
وعبادة الابقار والافاعي - صوفية شاردة تتخيل وصوفية
مادية تتحقق - استعمال سر الوجود على تفاوت - برغوث
أبى العلاء - مذهب هدام - فترات التمهيد لظهور
الانسان - لا نقص في غرائز الانسان - العلم اضاف
حياة للحياة - ما اشدت بجمع اخلاق الانسان - الدولة
كائن عضوى واحد - تقدم العلم وتخلف الخلق - لو آمن
بنفسه - يوم قريب - لغير المؤمنين .

لكي يدرك القارئ أثر هذا الكتاب ووقعه في عقول المفكرين المعاصرين
ماديين وضعيين وروحيين ملتزمين ، رأيت أن أورد هنا أخيرا بعض ما كتبت
في الجدل الذي ثار حول الكتاب ..

“ وقد قوبل من الفريقين بما هو جدير أن يثيرة لديهما ، اذ فيه ما هو
مثير لكلتا العقليتين .

وقد أردت بالكتاب كما قلت أن يكون وسطا بين العقلية الغيبية
والعقلية المادية .

وفي هذا الجزء الأول (١) من هذا الفصل وضعت أسئلة في حدود
البداهة لأذكر المعارضين من ذوى العقول العملية المادية بما يجب ألا
ينسوه ان كانوا ملتزمين حقيقة بالمنطق المادى .

هل رأى أحد أو سمع أن أمة من أمم الحيوان والحشرات اصطادت
انسانا ووضعتة في قفص وعرضته أمام الأنظار ؟

وهل رأى أو سمع أن فرسا أو حمارا ألجم انسانا وركبه ، أو حرث
عليه حقله أو وضع على ظهره حملا ؟

(١). كتب هذا في جدل مع الصديق الدكتور زكى نجيب محمود

وهل رأى أو سمع أن جملا أو فيلا أو ديكاً أو خروفا قدم لانسان
حفنة من شعر أو أعواد برسيم أو قدح ماء ؟

وهل رأى أو سمع أن يرغوئا أو بعوضة أو فراشة صنعت دواء
ووضعت في مضخة ثم أطلقت على الانسان لتخدره أو تدفع أذاه أو
تقتله ؟

وهل رأى أو سمع أن حيوانا ما ، قطف زهرة ووضعها في أصيص
يتأمل جمالها ويزين بها مسكنه ، أو أقام معرضاً أو متحفاً للبذور والثمار
أو منتجات الحيوان والانسان ؟

* * *

هل رأى أو سمع أن جماعة من الأبقار أو الأغنام ، ثارت على جزار
وأمسكت به وذبحته وسلخته ، وأخذت من لحمه وشعره وجلده وظفروه
منافع ؟ أو على الأقل أدركت لماذا تساق هى الى المذابح ؟

هل اصطنع ذئب أو سبع من سباع الأرض سلاحاً يدفع به غائلة
الانسان ومكايده وحائله ؟

أترك لكل معارض أن يدرك سير الحياة بالانسان ، ووضعها بين الأحياء
من خلال الأجوبة على هذه الأسئلة .

ثم لنفرض ما يقوله بعض شراح نظرية النشوء والترقى صحيحاً ، من
أن الانسان أصله قرد نهض على قدميه .. ثم ماذا ؟

لقد سبق هو وتخلفت سائر الأنواع .. اذن : هو وحده كان محظوظاً
بعناية الذى خلق الأنواع كلها ، حتى جعله فى قمة الحياة العضوية
الحيوانية ، ثم بثق فى رأسه بثقا صار منبع عالم جديد رجب فائق سابق
على سائر حياة الأحياء المعهودة ، اذ جعله يصنع موجودات تفوق قدرة
الحيوان وقدرته هو على السرعة والاحتمال والنقل والسمع والبصر
والتكبير والتجبير والتقريب ، ولم نر غيره حيواناً يخترع آلة لصيد
فريسته . ولم نر أمة من أمم النمل تخترع عجلة تحمل عليها الأثقال التى
تعانى ثقلها من مكان الى مكان ، ولم نر أمة من أمم النحل تفكر فى دفع

عدوان الانسان على عسلها الذى تتعب وتدأب فى جنبه واشتياؤه من رحيق الأزهار ونوار الشار ، على كثرة ما جربت من غزواته لها . وكل حيوان يعيش فى نطاق ضرورات حياته لا يتجاوزها .

فلئن كان قانونا « الانتخاب الطبيعى » و « بقاء الأصلح » أقنومين عظيمين من أقانيم نظرية النشوء والترقى ، كما يعترف بذلك أنصارها ، فهما اللذان وضعوا الانسان هذا الموضع الممتاز .. موضع القصة فى سلسلة الأنواع . ومادام الانسان استطاع أن يتغلب على حيوان الأرض ، يستبقى منه ماله فيه نفع ويبيد منه ما يشاء ، ويجد من الطبيعة استسلاما له وكرما فى امداده بوسائل التغلب على ما يريد ابادته ، ولا يصده صاد عن اقتحام الغابات والأجمات والبحار والمناقع للصيد والتلهى بالقتل .. ما دام الانسان استطاع أنه يفعل كل هذا ، والطبيعة تساعده على فعله . فهو اذن : الابن البكر للحياة فى الأرض ، وهو المقصود بها بحكم قانون « انتخاب الأصلح » ، وهو وارثها لأنه الأقوى .

سيقول قائل ما قال الصديق المعترض : « وماذا أنت قائل فى الجرائم التى تفتك بيدن الانسان لتعيش ؟ تلك التى ان أفلح فى نزع واحدة منها مما يسكن جوفه باضت له ألوف الألوف من صغارها ؟ » .

وأقول : ان مصير هذه الجرائم مصير غيرها من قطعان الوحش وسائر أعداء الانسان التى تغلب عليها وتحصن منها ، وأوشك أن ينظف الأرض من غوائلها .. وان تاريخ كشفه لها قريب جدا . ومع ذلك استطاع أن يقيم أسباب المناعة منها فى المسكن والملبس والمطعم والمستشق وما دام قد رصد حياتها وعرف أوكارها ، وسلط عليها حرسا من المجاهر والمخابير والعقاقير ، فهو لا شك واصل الى التغلب عليها فى سائر البقاع ، ما دام قد تغلب عليها فى مناطق المستشفيات ودور النقاهة وكثير من المنازل والمدن التى لا تهمل وسائل الوقاية العلمية ..

وانه لجهاد مشكور وأمر عظيم : أن يقتحم الانسان بعلمه وأدواته هذه المناطق التى عاشت دهورا وراء نظره وفوق وهمه وتخيله ..

وانها لعناية من بارى الطبيعة بهذا النوع أن يعرفه أعداءه واحدا
واحدا ، ويمكن له فى الأسباب حتى يتغلب عليها جميعا ..
وانه لبدء حياة جديدة لهذا الانسان فى الأرض ، أن يعلم ما خفى
وما استعلن من هؤلاء الأعداء ..

فلتلد بطون الشر والألم ما تستطيع من أطفالها .. فستلد قوانين العلم
مقامع وممالك لهذه الأطفال ..
وان الأشقياء الهالكين فى الحياة الدنيا ، هم الكافرون بالعلم وبالانسان
الذى أنتج هذا العلم ..

أولئك الذين يعيشون بأساليب القرون الجاهلية العاجزة ، وينظرون
الى الحياة نظر العجز وضعف الثقة بروح الانسان وعقله ، ونظر القاصرين
الذين لم يدركوا ذلك النمو السريع للحياة الانسانية فى مدى قصير جدا
من الزمن ، وهو أربعة آلاف سنة أو خمسة أو ستة ، وهى عمر التاريخ
الذى نعرفه ..

أولئك الذين لم يدركوا بعد كيف قفز الانسان فى السنوات الخمسين
الآخيرة من عمره قفزات حققت كثيرا من أحلامه فى الانطلاق والسيطرة
والإنتاج والاستغلال والتوليد والتقارب بين أجناسه وأقطاره ، واختزال
المسافات والأبعاد ، وإقامة الأرصاد لحوادث الحياة وظواهر الطبيعة .

أولئك الذين لا يزالون يعيشون كما كان يعيش آباؤهم الأولون الذين
لم يكونوا يعرفون من الدنيا الا حدود البقعة التى ولدوا فيها ، أو القطر
الذى ينتمون اليه .. ولم يكونوا يعرفون أن فى الأرض محيطات هائلة ،
وقارات مجهولة ، وعوالم مستورة ، وأن الأرض ما هى الا كرة صغيرة
جدا كذرة رمل فى صحراء .. الذين كانوا يبيتون فى الظلام والبرد ، وأنهار
النور والنار على بعد ضربة معول منهم فى منابع النفط والبتترول ...
ويعيشون تحت رحمة غيض الماء وفيضه بدون أن يقيموا سدا أو خزاناً
يحفظ الماء ويحفظهم من طغيان الماء .. والذين كانوا يأكلون الموت
ويشربونه فى المطاعم والمشارب الملوثة بالجراثيم والآفات ..

. أولئك الذين كان كفرهم بالانسان ، وعدم ادراكهم لسموه وتفرد
بين سائر الأنواع ، السبب الأكبر فيما نراه يسود حياته من اصطناع
أساليب الحيوان الفاتك الضارى المتشهى الغافل الذاهل عما يدور فى
السماء ويجرى فى الأرض من العجائب والمعجزات وأفانين الحياة ..

« وبعد » فليكن الانسان فى مقاييس ما وراء الطبيعة ما يكون ،
ولتعل قيمته هناك أو لتسفل ، فان هنا شيئاً واحداً هو الحياة الاجتماعية
التي تستلزم اعلاء لقيمتها ، لتسعد فيها .

وما يجز الشر والاثم والسفالة على النفس الانسانية الا غفلتها عن
مقامها الممتاز فى الحياة ، والا أخذها بظاهر الحياة الجسمية الآلية ، التي
تجعلها والحيوان فى حظيرة واحدة .

وما كان جهاد أنبيائها وحكمائها الذين خطوا بها خطوات واسعة الى
الأمم ، الا نتيجة لادراكهم امتيازها وما فيها من قوى زائدة عما فى غيرها
من سكان الأرض ..

. وأخلاق العلماء شئ عظيم عميق ، لأنها أخلاق بنيت على العلم بأعماق
النفس الانسانية . وقد قال سقراط « الفضيلة معرفة ، والرذيلة جهل » .
والفرق بين أخلاق السادة وأخلاق العبيد هو مبدأ الفلسفة الألمانية الحديثة
التي سنّها « نيتشه » للألمان . فكان ادراكهم معنى السيادة ، وحديثهم
حولها ، أكبر باعث لهم على نهضتهم الجبارة التي جعلتهم يفهمون فى
أنفسهم أنهم فوق مستوى سائر الأجناس .

وأخلاق الانجليز المبينة على ثقتهم بأنفسهم ، واعتقادهم بتفردهم من
بين سائر البشر بروح ممتازة ، هي التي جعلتهم فوق المستوى الانساني
الحالى فى الصبر والاحتفال والنبات وسعة الحيلة والوقار والسكينة فى
السلم والحرب . .

فهم يؤدون لهذا الاعتقاد وتلك الثقة بالنفس مهرهما من الفعال
الكريمة ، والصبر الجميل ، والدم العزيز ، والمال المبذول ، والمساكن
المترفة .

وقديما كانت العرب أمة ضائعة المكانة ، لما كانت مفقودة الاحساس
بسمو نفوسها ومواهبها . مغسورة فيما يحيط بها من الطبيعة ، مدمجة
فيها ، عابدة للحقير والجليل منها ، حتى تسمى أفرادها بأسماء الجماد
والحيوان السافل والنبات الحقير : فقالوا حجر وصخر وكلب وبربوع
وحنظلة ، الى آخر أسماء ما يحيط بهم . وطاقوا بالأحجار والأشجار عابدين
عاكفين ؛ فلما أيقظهم موقفهم العظيم لأنفسهم وما فيها من امتياز على سائر
ما يحيط بها ، فلا يليق بها أن تلتبس لشيء من هذا المحيط عبادة ، ولا أن
تبتغى اليه زلفى أو وسيلة ، ولا أن تقدم اليه قربانا من دمائها ودموعها
وسائر قرباتها . بل يجب أن تبتغى بذلك كله وجهها أسمى وقدرة أعظم .
لا تدركها الأبصار ولا تستوعبها الأفكار .. حين هذا بدا السر الخفى في
هذه النفوس الضائعة ، واستعلن كما يستعلن نور الصباح عريضا في
الآفاق ، ومضى أفرادها الى فجاج الأرض ، حاملين رسالة ، ومولدين
دولة . ومقيمين حضارة .

وها نحن أولاء نرى « الهندوس » يأتون في عبادتهم للأبقار والحيات
وكثير من الحيوان ، مخازى وسخافات .. كل هذا لأنهم توهّموا أن في
البقر والشعابين سرا وروحا مقدسا يعبد ، فتركوها تعيش وتسرح وتهيم في
الشوارع والبيوت والطرقات ، وهاموا وراءها ، وأكلوا روئها ، وشربوا
بولها ، وتقربوا للشعابين ورجبوا بلدغاتها وموتهم بأنيابهم ، وتركوا بلادهم
تصاب بطواعين الأبقار التى تنرك حتى تشيخ وتصير عشا للجرائم التى
تنتقل منها الى عابديها وساكني بلادها .. والأبقار المسكينة في ذهول وغفلة
عن قربات هذا الانسان الضال وتقديسه اياها .. فهم تبول عليه وتنطحه
ولا تنفعه .

وهكذا كان الانسان فريسة للاوهام وعبادة الأحجار والأبقار والجمالان
والقطط والحيات وغيرها . حين لم يكن مؤمنا بنفسه وطيد الثقة بها ، فاهما
أن جميع ما فى الأرض مخلوق له ومسخر لمنفعته .

انى أدعو الى صوفية مادية تؤمن بالعلم ، وتعترف بدولة الأجسام ،
ولا تشرد وراء الأوهام ، فلا تتخيل أن الانسان العظيم الخصيم المبين المفكر

المبتكر ، مخلوق ليكون طعاما للبراغيث والبعوض والقمل .. وانما تعلم
أن هذه الحشرات مخلوقة لحمل الانسان على تنظيف جسده واثابه
ومسكنه ويئته من القاذورات والعرق والأتربة والمنافع الراكدة الآسنة ..
فلولاها لأصابه الكسل عن كثير من أعمال النظافة والتطهير والتجميل .

وقد كانت هذه الحشرات تعيش في الأصل على النبات والحيوان ،
ثم لصقت بجسم الانسان وتطورت بلصوقها به . فلا يصح أن يقال ان
الانسان خلق لأجلها .

وصوفيتي لا تخيل الى « أن سر الوجود يستعلن في الجرثومة الضئيلة
كما يستعلن في الانسان والقرد والأفعى ! » كما يقول بعض المبالغين كلا ..
هناك فروق هائلة بين استعلان قدرة الله في الجرثومة ذات الخلية الواحدة
ذات الوظيفة الواحدة ، وبين استعلانها في الانسان ذى الخلايا التى لاعدد
لأنواعها وأشكالها وصورها وأوضاعها ووظائفها منفردة وموضوعة في
مجاميع منتجة حياة كلية . هو كالفرق بين جزئ صغير في قالب حجر
موضوع في عمارة من ناطحات السحاب ، وبين العمارة نفسها بما فيها
من زخرف وزينة .. وفي هذا التشبيه تجاوز كبير وقياس مع الفارق
الهائل .

نعم ان الجرثومة شيء ثمين عظيم كأول خطوة في سبيل الحياة . . .
ولكنها لن تبلغ مبلغ الانسان الذى هو آخر خطوات الحياة وحلقتهما
النهائية كما تقول نظرية النشوء .

وما أعتقد أن خالقا عظيما حكيما ، يخلق كرة أرضية هائلة : ويجعل
فيها رواسى من فوقها ، ويجرى فيها بحارها وأنهارها ، ويقدر فيها أقواتها
ليعيش عليها عالم من البراغيث أو النمل أو الشعاب أو الأبقار أو المساع
عيشة أبدية بدون خليفة فائق عليها ، يستطيع أن يضع الحمل بجوار
الذئب والأسد بجوار الغزال ، وكل عدو بجوار عدوه ، كما هو الحال في
حدائق الحيوان . ان الحياة حينئذ تكون عبثا وفيضا لا يتلقاه أحد يعى
ويفكر ويعمل في الأرض عملا مجيدا .

وان الصوفية التى تقول بهذا ، ماهى الا شرود وراء الأوهام وعدم الادراك لغايات الحياة والتميز بين آفاقها .

انها صوفية كصوفية « أبى العلاء المعرى » المريض شاذ الطبيعة الذى يقول :

تسريح كفك برغوثا ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجا
كلاهما يتوقى والحياة له عزيزة ويروم العيش مهتاجا

ولنتصور الناس جميعا على مذهب أبى العلاء وبعض متصوفة الهند .
لا يأكلون اللحوم ولا الألبان ولا العسل ولا يستغلون سائر منافع
الحيوان ، ويتركون البراغيث والقمل والضفادع والعقارب والثعابين
وسائر الحشرات والسباع والبهائم حرة طليقة فى الحياة ، بما دامت الأرض
ميراثا مشتركا بينها وبينهم ، وما دامت جميعها مقصودة بالحياة ، وما دام
« سر الوجود » قد استعلن فيها استعلانه فى الانسان .. فماذا تكون
النتيجة ؟

هى فناء الانسان بقضاء أقواته التى تأكلها قطعان الأنعام والسباع
وعراجل الحمير وأسراب الطير والحشرات وغيرها ... هذا ان عاشت
وعمرت دهرها ، وان تركته ولم تأكله وتدمر حياته ، فان فنيت فالأرض
خراب .

وتساءل الصديق المعترض : من ذا كان يستمتع بمنافع الكائنات فى
الأرض قبل ظهور الانسان ؟ .

وأجيب : كان يستمتع بعضها ببعض ، ويعيش بعضها على بعض كما
هو الحال الآن ... فالسباع تأكل الأنعام ، والأنعام تأكل النبات ،
والحشرات يعيش بعضها على النبات ، وبعضها على الحيوان .

ولكن ينبغى أن نعلم ما يقوله العلم من أن الحياة الحينوانية على
الأرض لم تكن غزيرة ولا كثيرة الأنواع قبل عصر ظهور الانسان .. ننظرا
لقسوة عوامل الطبيعة من الأمطار والشاوج والبراكين والزلازل التى لم

تكن تسمح بحياة كائن ضعيف ، فلما استقرت القشرة الأرضية قليلا ،
وهدأت عوامل الغليان والتشقق ، وصارت الأرض صالحة للحياة بعض
الصلاح ، خلق الله فيها الحيوانات الضخمة الزاحفة ، ثم انقرضت بفعل
الزلازل والفيضات واختلافات الطقس ..

ثم مرت الأرض بأدوار وراء أدوار حتى صلحت لحياة هذه الأنواع
التي نراها تعمر الأرض ... وكان كل هذا تمهيدا لاجراج ذلك النوع
الذى صار خليفة الأرض ، ووارث ما فيها وفتح أغلقها ومخرج أسرارها.
وفترات التمهيد لهذه الحياة الصالحة المعمرة لا يصح أن يعترض عليها
معترض بأنها ضاعت هباء ... فان أيام الله ليست كأيامنا ، تقاس بالسنين
الشمسية والقمرية ، بل هى دهور بالنسبة لنا ، ولكنها لحظات بالنسبة
للذى خلق الأزمان ، ويدير الأفلاك دورات هو أعلم بمقدارها ... والله
أعلم متى ينضج الثمار .

وقد ادعى الصديق ، أن علم الانسان وأخلاقه هما سر تبججه ودعواه
الامتياز ، مع أن علمه ما هو الا مكمل للنقص الذى فى غريزته وقطرته ؛
ومع أن أخلاقه فى مثلها الأعلى الذى تحلم به ، هى دون ما يسود ممالك
النمل والنحل من أخلاق ..

وأنا أنكر انكارا باتا أن يكون فى غرائز الانسان نقص يحتاج الى
تكميل ، وأن يكون العلم هو هذا المكمل ... وانما أرى أن غرائزه التى
تضمن له حياة آلية رتيبة كحياة أنواع الحيوان ، غرائز كاملة يستطيع أن
يعيش بها فى مفتتح حياته وتكفيه .. فاذا نظرنا للعلم على أنه نتيجة
لغريزة حب الاستطلاع فهو اذن : أثر من آثار هذه الغريزة ، ولكن
لا يقال انه تكميل لها ، اذ لا نقص فيها ..

العلم نتيجة لهذه الغريزة ، كما أن الولد نتيجة للغريزة الجنسية .
وحب الاستطلاع غريزة مشتركة فى جميع أنواع الحيوان ، ولكنها فيما

عدا الانسان محدودة بضرورات حياة الأنواع ، وفي الانسان لا حد لها . ولذلك أنتجت للانسان علما زائدا عما يحتاجه وعما يمكن أن يدركه أى حيوان . وهذه القابلية الطبيعية الدائمة في هذه الغريزة ، هى التى أنتجت نمو علم الانسان وفكره ونمو الحياة به دائما ..

والانسان الفطرى المحدود الذكاء ، يكاد يعيش بالغريزة وحدها ، فهو لا ينوع ما ورثه من الحياة ولا يزيد عليه ، ولا ينقص منه كثيرا ، وهو مع هذا يحيا وينمو وسط الأهوال ..

فغرائز الانسان التى تكفل له حياة كحياة الحيوان غرائز كاملة يحيا بها حياته الضرورية .

أما العلم فيفتح له أبواب حياة خاصة منفصلة عن حياة الفطرة . فالقول بأن علم الانسان يكمل النقص الذى فى غريزته وفطرته ، قول غير مفهوم .

وأما أخلاق الانسان الحالية فلم أَدافع عنها ، بل نعت عليها من بعض الوجوه واعترفت بفسادها وقصورها الا فى قليل من الأمم ، وهى التى أدركت أن للحياة الانسانية قوانين تشبه قوانين الطبيعة فى صرامة عقابها لمن يخالفها .

واعتقادی أن الدولة كائن عضوى يسرى عليه مايسرى على أى جسم ذى أعضاء من وحدة المنفعة والضر ... الدولة كالجسم الواحد لا يصح أن يترك فيه شئ فاسد ولو كان ظفرا والا فسد كله ... ولا يليق أن يكون فيه عضو مريض وآخر صحيح ، بل يجب أن يصح كله .

والقلب فى الجسم يقذف الدم الى كل خلية لتحيا ، وكذلك يجب أن يقذف « قلب الدولة » الى كل فرد غذاء الجسم والفكر والروح ليحيا الحياة الكاملة .

والفكر فى الجسم الواحد حارس يقظ أمين ، يتلقى الرغبات ويصدر الأوامر ، وكذلك يجب أن يكون قادة الأمم والمسيطرون عليها .

فأنا لم أشد بأخلاق الانسان الفردية الحالية ، وانما أشدت بعلمه وفتوحه في مجاهل الكون ، وأريد من وراء هذه الاشادة يقظة النفس الدائرة مع الحديد البليد القاسى في غير وعى واحساس ، الى آثارها وتفردا بين الكائنات ، حتى تعلم وضعها الصحيح . فتصلح من أخلاقها

والواقع أن أخلاق الانسان لم تتطور كما تطور علمه وفكره ، بل لا يزال يعيش بموارث التاريخ السيئة المغلوطه ، ولم يجد له في العصر الحديث زعماء انقلاب في روحياته ، كما وجد زعماء انقلاب في ماديته ..

فالانقلاب الجسمى والآلى والصناعى في حياة الانسان لم يصحبه انقلاب نفسى يجعله يصفى تركات الماضى في الأخلاق ، ويتحرر من موارث التاريخ السيئة ، ويقيم حضارة روحية تناسب هذه الحضارة المادية التى أقامها في مدى السنوات الخمسين الأخيرة .

ولو آمن الانسان بالانسان ، وأدرك مدى الرحلة التى رحلها في الحياة ، والخطوات التى سارها في التاريخ ، ومركزه بين الكائنات كخليفة في الأرض خلف الله على مقدراتها ، وصنع فيها موجودات فاقت نماذج الحيوان في الدقة والاحتمال والسرعة والخدمة آلاف الأضعاف ، وعرف أن الله ما كان ليعطيه هذه القدرة العظيمة على الصنع والانشاء والافتتان الا وهو به حفى ، وعليه متفضل ، وله مكرم ، وایاه مسدد وموفق ، ولتطوراته مرتقب ومنتظر بلوغه رشده ، لو آمن بهذا كله لأسرع الى اقامة الحياة على ما أقام الله الطبيعة عليه ، من العدل الموزون ، والرحمة السابغة والتوزيع الكريم .

فاذا لم يذهب الانسان الى هذا طائعا مختارا كما فعلت أمم الشمال في أوروبا ، فسوف يذهب اليه مكرها بالحديد والنار في يوم أحسبه قريبا.



ملء يدي الاثنتين نصوص من القرآن ، تثبت أن جميع مافى الأرض خلقه الله للانسان ، وخوله اياه ، واستخلفه عليه ، وجعله متاعا وتذكرة

له ، ولكننى آثرت أن أقدم حججا من الفكر الطليق ، والنظر الحر ، والعلم
العصرى ، حتى لا يقول قائل من المنكرين المفتونين : أساطير الأولين .

— ١ —

وفى هذا الجزء الثانى من هذا الفصل أورد ردا على المعارضين من
ذوى العقلية المحافظة القاصرة عن نظرة الكتاب .

هل يستطيع صديقى أن يحصر الجدل فى هذه الصخرة الراكزة
التى يخيّل الى أنى وضعت عليها الفلسفة الاثباتية وللدّين ، وقيمة العلم
والحضارة حين اهتمت الى ما زعمته القضية الفكرية الأولى ، وهى
الملخصة فى هذه الجملة :

« أومن بالانسان لأومن بالكون ورب الكون ، فلن يؤمن الفرد
الانسانى بهما ان لم يؤمن أولا بنوعه ، لأن عقل النوع هو المنظار الذى
ندركهما به ، فان أهدرنا قيمة الانسان أهدرنا عقله وروحه ، فلا يبقى
لنا ما ندرك به كوننا وربنا !! »

ولو وقف الصديق المعارض أمام هذه القضية التى هى كما قلت
« أشبه ما تكون بمعادلة رياضية » لعرف أية نظرة تتراءى من خلال هذه
الفكرة ، وأى أفق رحيب يتفتح للنفس البشرية من ورائها ، وأى توفيق
لحل مشكلات العيش والفكر يتراءى منها !

وهذه هى القضية فى سمائها العالية تحتاج الى جناح قوى
للتحليق معها ، وتحتاج — كما قلت — الى نظرة المفارق لنفسه
ونوعه ، الخارج بالفكر والخيال عن حدود وجوده ، الراصد لنوعه رصد
الملأ الأعلى ممن هم فوق الانسان والملأ الأدنى مما هن دونه !!

ولم يدر الأستاذ المعارض أن أولى الناس بالفرح والتأييد لقضية
الايمان بالانسانية هم أمثاله من الدينين الذين تهفو قلوبهم الى الاثبات
واليقين ، ويرون الكون لا معنى له ان لم يكن قائما على قيم ثابتة تعتمد
على منطق الطبع ومنطق العقل ومنطق العمل .

والقضية مسوقة للرد أولاً على الماديين الملحدین الذين لا يعترفون بقيم روحية ثابتة للوجود و (الدرونيين) الذين يقررون أن الانسان ماهو الاقرء نهض على قدميه وثرثر بلسانه وفرح بما ثرثر ، وخلق لنفسه آلهة ، ووضع مقاييس وموازين لخيريه وشره ، وزعم أنها موضوعة من « عقل » الكون ، ويقررون أن عقل الانسان ودينه وعلمه ، انما هي كالاكافرازات المادية للكبد والمعدة وغدد السموم في العقارب والحيات ، وأن ما يزعمه من قيم للأمر ، انما هي أعاليل يعمل بها نفسه ليخدعها ، وليس بينه وبين « عقل » الوجود — ان اعترفوا به — صلة ، وانما بينها هوة لا استطاع عبورها ، وأن موازين « الخير » والشر عنده مسائل اعتبارية ، وليس هناك وحى ولا نبوة ، وأن ما بين الناس لا يزيد على ما بين النحل والنمل والبق والبراغيث والبعوض ، وأن حياة أفراد الانسانية الى عدم لا رجعة بعده ، كحياة مليارات أوراق النبات وأهراء الجبوب ، وملايين الحشرات تأتي بها دورات وتذهب دورات أبدية من غير رجعة الى مصير أكمل كما قال ذلك كاتب متدين صوفي باحث كتب الى من يروت يطرح أمامى هموما ذهنية وشكوكا لحقته من أقوال أولئك الشاردين ..

أفترانى حينما أفتش في رحاب الكون والنفس عن فكرة جديدة أقذف بها على باطل القوم ، انتزعها من قوى الانسان الفكرية الابتداعية النامية المنمية التي جعلت الانسان في مصاف آلهة القدماء في التكوين والتخريب والتسخير لقوى عظيمة جبارة هائلة كالكهرباء والطاقة الذرية والمواد العمياء ، وتقريب الأبعاد وكشف المستورات في خبايا الكون والتغلب على كثير من الآفات .. أفترانى حينما أفعل ذلك آكون قد خالفت رأى القرآن في الانسان ؟

ان الماديين الملحدین يهترون الانسانية كلها وما أتى عن طريقها من دين وعلم ووحى أنزل على محمد وسابقيه من الرسل ، فليس القرآن بشيء في ميزانهم ، وليس محمد وجميع الرسل في رأيهم سوى افراد من تلك الانسانية القردية التي تلغو وتزعم أن للغوها قيمة .

افتساق الحجة لأمثال هؤلاء من القرآن أو التوراة أو الانجيل وهم

لا يعترفون بها ولا بمن نزلت عليهم ولا بالنوع الذى ينتسب اليه من نزلت عليهم ؟ أم الأولى أن تساق الحجة الى هؤلاء من رحاب الفكر والكون الواسع بمنطق هذا الزمان ، مادامت آيات الله فى الآفاق والأنفس دائما تسعف الذين يخلصون لله ويخلصون الفكر فى الكون ؟ !

ان الفكر الدينى آفته أنه غالبا يخاف اجتياز الحدود الموروثة ، حتى ولو أيقن أن وراءها مصلحة محققة ، لأنه فكر يغلب عليه الاتباع لا الابتداع وربما يكون ذلك مقبولا ما دامت طمأنينة النفوس وسكينتها موفورة ، ولكن أعتقد أن واجبه ان يأخذ الحجة حيثما وجدت ما دامت تسعف فى اقناع المعارض او الزامه .



ثم انى أسأل الأستاذ بدورى كما سألتنى : كلام من يا أخى الذى يقول : « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا » ، « ولقد كرمنا بنى آدم وجعلناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ؛ « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم » ؛ « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » ؛ « والعاقبة للمتقين » ؛ « ولا أقسم بالنفس اللوامة » أى « الضمير » ! ؟

أليس هذا كلام الله أيضا ؟ وهل وراء سجود الملائكة لأبى هذا النوع تكريم ؟ وهل وراء اختصاصه بعلم ما لا يعلمه الملائكة من غيب السموات والأرض تفضيل ؟ وهل بعد صبر الله وحلمه على ما يبدو من ظواهر الافساد وسفك الدماء الذى يفعله الانسان حجة على أن الغاية من خلق هذا النوع ، انما هى 'غاية' تربو فوائدها وبركاتها على خسرها ولعناتها ؟

وهل بعد رد الله تعالى على الملائكة حينما قالوا : « أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » بقوله : « انى أعلم ما لا تعلمون » يصح أن نعترض كما اعترضوا ، ونجعل حجتنا فى السخط على الانسان هى

ما نراه من ظواهر الفساد وسفك الدماء بعد أن نظر الله تعالى إليها في مجموعها نظرة سماح في سبيل تحقيق الغاية الكبرى من حياة هذا النوع ؟

ان أسرار قصة آدم هذه كما أوردها القرآن في أوائل سورة البقرة ، اعظم مفتاح للغز الحياة ، واعظم تاج على راس البشرية ، واعظم صوت يطرد اليأس من مستقبل الانسان ، واعظم تفسير لما يبدو من شروره ، واعظم دافع الى الكفاح لتحقيق كماله المرجو !

وانى دائما أقول : انه يجب على المفكرين ألا يسرعوا بحكمهم النهائي على الانسانية ، مع انهم لم يتيبنوا خاتمة حياتها ، ولم يدركوا « القطفة » الأخيرة من ثمارها .. ولعلها لا تزال في دور الشباب الطائش ، ولعل وراء طيشها كهولة عاقلة . وما دام الله تعالى لم ييأس منها — ولن تقوت عليه تعالى غاية أرادها — فينبغى لنا ألا نياس منها كذلك ، فما دام يسمح بخروج بذور انسانية ، فلا تزال الغايات والنتائج الصالحة منها ، بعضها يتحقق وبعضها ينتظر تحقيقه .

وما عهدنا نوعا ما في الطبيعة سلك غير الطريق التى رسمها له الله « أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » ، فلماذا يستثنى الانسان ويجعله يسير في غير طريقه التى رسمها له ؟ وفيماذا يكون الاستثناء في الانسان أئمن شىء في الأرض ؟ !



ولم يدر المعارض — وهو باحث دينى — أن الله تعالى لا يجوز عليه عقلا أن يعنى على الانسان صفات وطبائع هو الذى قسره عليها وحدها وأخرجه في قوالبها ، من نطفة امشاج واخلاط من قوى ومواد عمياء حادة لبيتليه ، فليس الانسان اذن ملوما ما دام قد طبع على أن يكون فقط كفورا وهلوعا وجزوعا وكنودا وعجولا وقتورا وضعيفا وأكثر شىء جدلا وخصاما .

وما كان القرآن — هو كلام الله الذى كرم الانسان ودافع عنه أمام الملائكة وأمرهم بالسجود له وخصه بعلم غيب السموات والأرض

وطرد إبليس من الجنة حينما استكبر عليه — ليناقض نفسه في قضية الانسان ، ويقصد الى ما فهمه المعارض وأمثاله ممن يسوقون دائما هذه الآيات التي ذكرها هو في مقام الاعتراض على وجهتي .

انما القرآن في هذه الآيات يصف طبائع الشر التي في الانسان كما يصف طبائع الخير فيه ، ولم تفد هذه الآيات أن طبيعته مقصورة على الشر وحده . فاذا وقع منه الشر ، فهو جدير به لأن في طبيعته جانبا منه ، واذا وقع منه الخير فهو جدير به أيضا ، لأن في طبيعته جانبا منه كذلك كما يقول القرآن : « انا هديناه السبيل اما شاكرًا واما كفورًا » ، « وهديناه النجدين » ، « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ، « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » ، « ان ربك واسع المغفرة ، هو أعلم بكم اذ أنشأكم من الأرض ، واذا اتمم اجنة في بطون امهاتكم ، فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » .

فاذا قال القرآن : « ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا الا المصلين » ، فهو يقرر أن من طبع الانسان هذه الصفات ، لأنه « خلق » عليها ، فليقاومها بما يمحوها أو يعدلها كالمداومة على الصلوات والزكاة وأمانة العهد ، وغير هذه من صفات الخير التي ذكرت وراء الآيات السابقة .

واذا قال : « ويدعو الانسان بالشر دعاءه بالخير ، وكان الانسان عجولا » . فهو يقرر كذلك أن من طبيعة الانسان التي خلقه الله عليها العجلة : « خلق الانسان من عجل ، سأريكم آياتي فلا تستعجلون » . ولذلك يجب التريث والصبر والسكينة وعدم اختلاس حق الأيام في انضاج الثمار حسب قوانين الله التي وضعها .

واذا قال القرآن : « وخلق الانسان ضعيفا » . فهو فعلا قد خلق من شيء تافه ضعيف : « الله الذي خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة » . « أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة ، فاذا هو خصيم مبين »

وهكذا سائر الآيات التى ذكرها الصديق المعترض تنبه الى ما طبع عليه الانسان من صفات الشر ليحذرهما ولا يستسلم لهما ، وليقاومها بطباع الخير التى طبع عليها أيضا . ولو لم يورد القرآن تلك الطباع فى معرض الذم حينما يستعرض أفعال الأشرار ، ما تنبه اكثر الناس الى انها طباع شر يجب الحذر من نتائج الاستسلام لهما . وكيف يتنبهون الى أنها شر ما داموا يجدونها فى طبيعتهم ؟ . وقد بنى الوجوديون فلسفتهم فى التخلل من قيود الأخلاق والسير وراء ما يجدونه فى أنفسهم من شهوات ، لأنها فى زعمهم طباع تجب الاستجابة لها وعدم اهدارها وكبتها .

والقرآن وهو كتاب تربية ، ما كان له أن يغفل الحملة العنيفة على طباع الشر فى الانسان والانحاء عليها باللوم والازراء ، حتى ينبه الانسان الى خطرهما وتسببها فى قذفه الى أسفل سافلين ما لم يعتصم بها فى طبعه من طباع الخير ، وبما يأتية من هدى الله .

ولو ربى الأطفال جميعا حق التربية ، ولم يهملوا هذا الاهمال الشنيع الغالب الذى نراه فى الأمم المتأخرة ، لرأينا أن نسبة الخير ترتفع فى حياة الناس ونسبة الشر تنخفض ، كما وقع ذلك فى عهد الدولة الاسلامية الأولى ، وكما يقع الآن فى سويسرا ودول شمال أوروبا كفنلندا والسويد والنرويج والدانمرك .

وهذا يدل على أن الانسان يتغلب على ما فى طبعه من الشر بالتربية وطباع الخير ، فليس الشر غالبا الا بما يظاھر من فساد النظم الاقتصادية واهمال التربية الدينية والتهديب والتعليم .

وبعد ، فهذا الفهم الذى فهمه الأستاذ المعترض ، انما هو من آثار السير فى الحدود الموروثة وعدم تغيير طرق النظر بتغير العصور ، وأرجو أن يتحرر فى فهم القرآن من العكوف على الموروثات وحدها حتى تنكشف له أعاجيب ووجوه جديدة من رأى الذى يشهد « للقرآن » بأنه كتاب البشرية فى جميع عصورها وأحوالها ، وأن من أسرار اعجازه تلك الصياغة العجيبة التى تتسع لوجوه الرأى والفهم على مدى العصور .

وان نوعا يخرج محمدا وأولى العزم من الرسل والحكماء
والصديقين والعلماء والرواد المجاهدين ، جدير بأن يوثق به ويؤمن
بقيمته ، فان مقياس قيم الأنواع هو لبابها وجوهرها ، وثمر الشجر أقل
شئ عددا فيه ، والشوك يكون مع الورد ، والظلام مع النور والفساد
وسيلة لادراك الصلاح والحفاوة به .

« ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ، فالخير أيضا فتنة !

ورحم الله أبا العلاء اذ يقول :

هذى طباع الناس معروضة فخالطوا العالم أو فارقوا !

وكل ظاهرة من الظواهر الاجتماعية الشديدة الفساد الآن تحمل
كثيرين على عدم الثقة بالانسان وسوء الاعتقاد فيه ، فليست قصص فساد
الأفراد التي ذكرها الأستاذ شيئا يذكر بجانب القصص التي تمثلها الجرائم
السياسية الكبرى التي يعرضها شيوخ السياسة على مسرح الأرض ،
كالمخزاة الدامية المجرمة التي تمثلها الصهيونية ، وتنصرها الولايات
المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة البريطانية .

اجل ، ليست المسألة في الحكم على الانسانية بأنها للخير أو للبوار
مسألة قسوة فرد او جريمة شخص ، فان فساد الأفراد وبخاصة في عصور
الإنحطاط ، يكون من الكثرة بحيث لا يحصيه العاد ولكن هل معنى ذلك
أن نستسلم للواقع السيئ ، ونحطم عقائدنا في الخير والصلاح وللقى
سلاح كفاحنا لهما !

وقد كانت صيحتي « أومن بالانسان » في ابان الحرب الأخيرة ردا
لهجوم عنيف على قلبي من موجات التشاؤم والسخط والتبرم من ذلك
المجتمع الانساني الذي اشتعل بالحقد والقسوة والكفر بالقيم العليا
للحياة الانسانية فدمر كل شئ وكفر بكل شئ لأنه فارغ الفؤاد من
العقائد السامية في الانسان وفي الله خالق هذا الانسان ومكرمه !

وكانت الفكرة التي تسلسل الحديث بها في هذا الموضوع انما هي

فرار بنفسى وعقائدها السامية فى حياتى الشخصية وحياة النوع الذى
أنتسب إليه .

وعندما يطم طوفان الفساد لا تجد النفس عاصما منه الا باللجوء الى
صخرة الايمان بتلك القيم العليا التى تغمر الوجود ، ولا تطمئن النفس
الى الحياة الا اذا ظلت لهذه القيم قداستها وهيبتها . فاذا رأيت المدن
والمعابد والشيوخ والأطفال والعجزة والمعاهد ، وكل ما قامت عليه
الحضارة الانسانية من القداسات والحرمت تدكه يد الحرب المجنونة
الفاجرة ، فلى العذر أن ألتمس لنفسى ولمن شاء من الناس افقا ارى فيه
تأويل هذه الظواهر الفاسدة والجرائم المنكرة كى اوفق بين عقائدى
الدينية فى ارادة الله بالناس الخير مهما بدا هذا الخير ملفوفا بالشر ، وبين
سير الحياة بالأحياء .. والا فقد عرضت نفسى لما تعرض له بعض من
كتب الى منذ حين يقول : ان الحياة الانسانية لغير غاية ، وان الله
— تعالى — قد فامت عليه الغاية من خلق هذا النوع ، فقد خلقهم لعبادته
فلم يعبدده منهم الا القليل !

وان كل ما ضاعف فى الناس فعل الشر وسلبهم الاعتقاد فى الخير
هو ذلك اليأس من الخير ، وذلك الاعتقاد بأن الشر هو الغالب على الطبع
البشرى ، وذبوع هذا الاعتقاد فى هؤلاء المحاربين العصريين ، هو الذى
جعلهم يحاربون بروح التدمير وعدم الابقاء على شىء ، وما دامت الحياة
للشر فليخبطوا فيه خبط عشواء على نحو بيت المعرى :

وبصير الأقوام مثلى أعمى فهلمو فى خلدس تتصادم !

أحد امرين لا ثالث لهما : اما أن تؤمن بأن هذا النوع الانسانى
يمكن الاقلال من شره ، واقامة حياته على مثل الدولة الاسلامية الأولى
او على مثل دول سكان الشمال من أوروبا الحالية ، وعندئذ نجد فى
أنفسنا العزائم على الجهاد والصبر والكفاح فى هذا السبيل حتى نصل
او تقارب بحسب الطاقة وبحسب قوانين الدنيا .. وعندئذ يستمر سير
الحضارة والاصلاح مطردا ويظل الخير له دولة فى الحياة كما أن للشر

دولة ، ولا ضير على العقائد أن يبقى من الشر بقايا ما دام الخير هو القانون الحبيب للنفس تلوذ به وتعتصم بعواصمه عند المواقف الفاصلة .. ولكن ان تكفر بهذا النوع ونهدر قيمه الخلقية ، ونفقد الاعتقاد في أنه مخلوق لغايات كريمة ، ولا نستمتع لوصايا الأديان القويمة بالبر وحسن الخلق والدعوة للخير والغضب على الشر ، عندئذ فلنخلق قناع المدفئة عن وجوهنا وجوه الذئاب والخنازير والنمور ، ولنفضح كل مواضع الاتفاق الاجتماعي ، ولنعلن بصراحة أن وصايا الأديان أخاديع او اغلوطات عظيمة من عبقریات التاريخ الكاذب المدلس ، وأن الانسانية يجب أن تتخذ لها فلسفات فردية يرعى فيها الفرد مصلحته الخاصة ، والأمة مصلحتها الذاتية وتسمى كل أمة أن تكون اربى من غيرها ، لأنه لا رحم ولا نسب بينها وبين غيرها ، وانما هي قطعان وحيوانات بشرية تسعى « لتعيش » في أضييق حيز .

وألست الحياة التي وصفنا على هذا الفرض هي الحياة التي تشقى بها كل أمة وتدمر كل حضارة ؟ ! فاذا أردنا أن نفر منها . فلماذا لا تؤمن بفلسفة تناقضها وتحاربها ؟ ! وهل هذه الفلسفة الا أن « تؤمن بالانسانية الواحدة » . وانها مخلوقة لغايات عليا ليست هذا النزاع على الذهب الأصفر والذهب الأسود ، والفحم الأسود والفحم الأبيض . وانما هي البحث عن كلمات الله في الطبيعة ، بحث طالب « العلم » لا طالب « الفائدة » المادية وحدها ؟

وألست هذه الغاية لو تحققت جدية بأن تشعر الناس جميعا أنهم نوع واحد غريب الوضع في هذا الكون ! لأنه وحده يفتح ابواب الطبيعة بابا بابا ، ويتدرج في تسخير قواها درجة درجة حتى وضع يده في منابعها وحطم أسوار « الذرة » التي هي وحدة بناء الكون المادى ؟

ذلك هو « الوضع الأصليل » للانسانية يجب أن يرصدها منه الراصدون ليعلموا أى كائن هذا الانسان الذى يحملونه في اجسادهم ويبادلونه ما صح وما فسد من شأنه وشئونهم !

اما ان يرصده راصد في « ولد عاق » ، أو « وحش الاسكندرية »
أو « سفاح باريس » الأخير ، أو غير أولئك من الثمرات الانسانية المعطوبة
الملوثة التي سقطت وتلوثت لضعف روابطها بفروع الشجرة الانسانية ،
ثم يحكم عليه كله لذلك ، فتلك نظرة سطحية جزئية لا تليق بمن يجعل
عقله ميزان حكم على الكون ومرآة رصد لأعاجيبه التي لا تنفذ في حرب
الخير والشر ، وعراك الصلاح والفساد ، وصراع الموت والحياة وقذف
الحق على الباطل !

وانى أسأل صديقى المعارض : لماذا يفقد ثقته وإيمانه بالانسانية
لأجل مثل من العقوق يقابله أمثال من البر بالآباء ؟ هل جميع الأبناء مثل
هذا الابن العاق ؟ ولماذا تألم قلبك من هذا المثل الشرير ؟ أليس لأن
قلبك ينكره ؟ اذن ففى قلوب الناس نوع خير ينكر الشر ويضربه مثلا ،
ويكتبه قصة يشنع بها ويسمع بصاحبها ، ويجد فى قلوب الناس صدى
لألم قلبه ، لأن « البر لا يبلى » . وما دام فى الانسانية خير وشر فلم
نأس منها ونزرى بقضيتها ؟ لماذا نحرق الحقل كله لتحلص من
الزوان ؟ !

ان الأولى بنا أن نعتقد أن الانسانية كحقل من النبات ، الأصل
فيه ان ينبت أكثره نباتا حسنا ، ويؤتى أكله وثمره اذا تعهدناه بالسقى
والرعاية والحراسة من الآفات والحشرات التي تعطيه وتفسده وتجعل
أكثره ينبت نباتا سيئا . ولا بد أن يكون فيه المعوج بالطبيعة ولكنه
لا يكون الأكثر فى العادة .

ولن يفقد الزارع أمله فى الزرع ان خافه حظه فى موسم من المواسم
مبيأس ويقول : ان هذا النوع من الزرع ملعون ! ولن أزرقه ، الا اذا
كان أحمق .

ونحن الذين نعلم أن « كل مولود يولد على الفطرة » ثم تلحقه عوامل
التربية والبيئة فيتكيف بها ، ينبغى لنا أن نربص ونوجه بكل جهود
الإصلاح الى قلوب الطفولة منطقة النمو الانسانى ، ونجتهد أن تنبت
نباتا طيبا وعلى الله الباقي !

متى النور يظلمت؟

مع النور الصادق - الظلام الفاسل من النور الكاذب
- الفتنة بمقريات الظلام - تفاؤل وأسبابه - ابتداء
دورة زمنية - تاويلات - الكلمات الحمراء تهيج القطيع
الوديع - مات الميت فليحي الحى ١ - تدريب عنيف لمستقبل
مجهول - الحياة تنقل أقدامها الى المجهول - لندن هدمها
الانجليز لا الالمان ١ - هل وعى الانجليز الدرس ؟ -
هل ينسى الامريكان كما نسوا من قبل ؟ رسالة مدخرة
للمرب أمة المستقبل .

حين يطبق ظلام الحرب العصرية على جميع آفاق الأرض . . ويختفى
النور الصناعى الذى تتسلق الانسانية عليه الى سبحات الجمال الموقوت
والفن والطمأنينة الكاذبة . وترتد الأحلام السعيدة الى واقع الشجن والألم
والطمأنينة الكاذبة . وترتد الأحلام السعيدة الى واقع الشجن والألم
والاكتكاس ، فتعاقب أشباح الكهوف والمغارات ، وتصير قلوب بنى آدم
أوكارا لمخلوقات شنيعة شوهاء هن بنات الظلام والغدر والخيانة والجريمة
والخدعة !

حينئذ لا يبقى للانسانية غير ينابيع نور الطبيعة تستصبح به .. لا يبقى
لعيونها غير الشمس والقمر والنجوم .. ولا يبقى لقلوبها غير النور
الأزلى قبل الأزمنة والدهور .. ولا يبقى لأفكارها غير الهامات الحق
الواضح فى الطبيعة .

أما الفلسفات والآراء والنظريات البراقة التى ترددها منابر المعاهد
والمجامع ومجالس الترف العقلى ، فتختفى مع اختفاء الأنوار الصناعية
التي أوقدتها الأيدي المظلمة النجسة التى لم تتطهر بنور الله ، وتطير
بكتبها وسجلاتها قذائف الحديد والنار ..

ترى : هل تكون أمواج الظلام فى هزم الحروب العصرية طوفانا
يغسل الأرض من ذلك النور الصناعى المدلس الذى لم ينسكب من
منابع الحب ويد الله ؟ وانما من يد الشيطان الذى طمس وجه الحياة ،

وجعلها في نظر الأحياء ليست أكثر من اقتناء الفحم الأسود و « الفحم الأبيض » والذهب الأصفر و « الذهب الأسود » ؛ ثم أغراهم بذلك وجعلهم وراءه يترაკضون تراكض الذئاب بالأطفال والأنياب في عصر العجز والقصور ، وبالفياض والمناصل في بدء عصر التغلب والقدرة ، ثم بالطائرات والغائصات والبارجات والجرارات في عصر بلوغ الأشد واكتمال السلطان ! ؟

أم أن القلب البشري لا يزال ولن يزال يعبد الظلام وفيء إليه ويأنس بسكانه ، ويرى في عالمه عبقریات يجب الرجوع إليها على فترات من الزمان ؟ ولن تزال وثنیات الجنس ، وخیلاء القومية وعبادة البطش وشهوات الاقتناء ، عقائد مقدسة يفلسف لها وتضطنح في حبها ترانيم وأناشيد ، وتقدم لمذابحها قرايين من اللحوم البشرية ولمجامرهما بخور وعطور من الأموال والمقتنيات ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ؟

أما أنا فتغمر قابي موجة من التفاؤل الأكيد حول مستقبل سعيد قريب للإنسان . وظنى أن هذه الظلمات تتمخض عن فجر ابلج وضاح ، يغمر آفاق الأرض غمرا طويلا كما غمرتها هذه الظلمات طويلا . . لأن قواد المعسكرين الهائلين المتحاربين لا ينفكون يرددون على أسماع الأمم التي في أيديهم أزمتها ومقاليدها أنهم يحاربون في سبيل خلق عالم انساني عادل سعيد هائىء بعد الحرب ؛ فاذا حدثت القواد نفوسهم أن يخيسوا بوعودهم وينقضوها ، فإن المجهودين المنهوكين من جنود الحرب وعمالها ومنكوبيها سوف ينكلون بهم تنكيلا ، سواء أكانوا منصورين أم مخذولين ، لأن الجرائم التي ارتكبت في هذه الحرب لا تغفرها الشعوب الا اذا رأت انها اسلمت الناس الى عالم اسعد واكمل من العالم الحالى ، ولأن الحياة الاجتماعية لا تحتمل حربا كهذه الحرب التي تدمر الانسان مع ما أقامه من المدن والأعمال ومخلفات التاريخ ومقدسات العقائد والوصايا الخلقية بالأطفال والعجزة والشيوخ والنساء .. ولأن حربا بعد هذه الحرب لا بد أن تكون أدهى منها وامر ، بحيث تسحق « براعم » الحياة المدنية واصولها سحقا لا يبقى ولا يذر ، بما وصل اليه

هذا الانسان العجيب وما سيصل اليه في فترة السلم التي تعقب هذه الحرب .

* * *

ويخطيء من يظن هذه الحرب صورة من ذلك العراك التقليدي بين بنى البشر ، وأنها ثورة غرائز وحب غلبة بين مجموعة ومجموعة من أمم تحب الحرب للحرب ، وتمجدها لا لشيء الا اندفاعا وراء تلك الغرائز والحركات التاريخية الموروثة .. ان من يظن ذلك ذو نظرة متخلفة ، لا تزال تعيش في حدود النظرات الأولى للانسان .

ان هذه الملحمة الكبرى تحول عميق أصيل عظيم في توجيه الحياة . الحياة الخاصة للامة الواحدة ، والحياة العامة للامم جميعا .. فلنتيقظ لهذا ولنؤمن به ، ولنعمل له .

وان القدر يؤذن بميلاد حياة جديدة ، وابتداء دورة زمنية بعقل الانسان وقلبه وجسمه بعد هذه الحرب الحطمة الضروس التي تهدم مثل العالم القديم الضيفة بشلها وأفكارها الحرة كما تهدم مبانيه ومخلفاته بالديناميت .

وها هي ذى مواكبها ومراكبها وجراراتها العنيفة وزواحفها وطائراتها القاذفة والمنقضة والمترنحة والشرعية والهابطة ، وصواريخها وأبواقها وأنفاسها في الأثير ، وعيونها الكشافة ، وحشود جيوشها الآخذة من شمال الأرض وجنوبها وشرقها وغربها في قاراتها الخمس وبحارها السبعة ومن وراء كل أولئك عقول جابرتها وأساطين علمائها ، ومعالمها الساهرة ومناجمها الحافرة ، ومحادثاتها السرية والجهرية ، ومؤامراتها والدماء والأرواح المبدولة فيها من الجيوش البيضاء والسوداء والصفراء والحمراء ، والعروش المقوضة والصوالج والمقاليد المحطمة ، والحديث عنها بكل لسان وبين كل قبيل من المتحضرين والهمج .

ألا ان الحياة تنقل أقدامها بهذه الحرب الى المجهل ، حينما رأت ان كثيرا من بنينا لم ينهضوا بعد من مراقدهم في الكهوف والغابات لمشاهدة

مواكبها الحديثة التى دقت نواقيسها فى الآفاق ، ولم يشتركوا فى حمل
قوائم عرشها العظيم الذى من لم يره ويدرك أسرارها ، لا يمكن أن يقال
عنه انه ابن زمانه ، وانه حقق الغاية المنشودة من اخراجه للحياة فى زمن
بعينه .

ولما رأت أن نورها فى دور السلام والاستقرار استأثر به جماعة من
الأوصياء الأنانيين ، وتركوا غيرهم من القاصرين يخوضون فى الظلام
والجهل ، حولت ذلك النور الى شعل ذات لهب وحريق يأكل هذه الصدور
الأثرية الأنانية التى ما عرفت قصد الحياة من وضع مصاييح النور فى
أيديها وخانت أمانات الاستخلاف .

فمن الذى لا يستيقظ ويتنبه بعد كل هذه الضجة النكراء ، ويسرع
الى موكب الحياة العظيم بالجسم الخفيف القوى الصحيح ، والفكر
اللطيف اللماح العالم ، والقلب المؤمن العارف الحامل لأمانات الحياة ؟ !



واذا أعرضت الانسانية ونسيت آلامها الحاضرة وبؤسها وشقاءها
بهذه الحرب ، وتركت الأنظمة الجائرة الفاشية المفلوطة تتحكم فيها ،
فويل لها ثم ويل لها ! وويل للذين يقودونها ! وتعسا للمنكوبين بنار
الحرب من العمال والصناع والجنود ان لم يقفوا فى وجه اللاعين بالشعوب
ما أجمل اخاء العالم الانسانى ! وما أقربه فى القلوب البريئة من
أكثر الناس ! لولا الذين يؤرثون فى صدورهم نار الحرب والحقد ببعض
الأناشيد واثارة الذكريات الجاهلية ، والخيلاء العسكرية ، والألوان
الدموية المهيجة !

ان الشيران تظل هادئة مستأنسة ، حتى يثيرها مثير باللون الأحمر
فيحولها الى وحوش فاتكة .

وكذلك قطعان ابن آدم ، تريد الهدوء والاستئناس ، حتى يثيرها مثير
بالكلمات الحمراء ، والحماس الكاذب ، وجب الشهرة عن طريق الحرب

والتخريب حين لا يوجد مجال لبعض الرجال للشهرة عن طريق السلم
والعمران وإضافة شئ الى بناء الحياة .

وما أعظم خسارة الانسانية في أبناء السلم الذين ذهبوا ضحايا
هذه الحرب !

انهم انسانية عاملة عاملة مدربة ماهرة ، كانت قد نجت من عوامل
الموت والجهل والجفوة ، وتعبت في تربيتها ثقافات السلام التي استحدثت
بعد الحرب العظمى الماضية .

انهم ثمار كبيرة نمت في جمال وصحة ، ولكنهم الآن يموتون في
جفاف الصحارى وزمهرير الثلوج ، وعلى أذرع الموج الفاجر والهواء
المخلخل ، وتحت أثقال الحديد ، وبين صق القذائف ! وهكذا يذهبون
طعمة لوحوش الفلوات وأسماك البحار ، وتتساقط أعضاؤهم بين ركام
الثلوج ، كأنهم عصف مأكول أو هباء منشور .

فما أعظم خسارة السلم فيهم بعد انتهاء الحرب ، حين تفتقد العناصر
العامة العاملة الفتية فلا توجد الا بعد حين !

ولكنهم قربان كان لابد من تقديمه في سبيل مطلب عظيم !
وقد مات الميت فليحي الحي !

وما أعظم ما تحتل أعصاب البشر ! انهم يرهنون على أن أرواحهم
أقوى من الفولاذ والديناميت ، اذ رضوا أن يغدوا ويروحوا على مواقع
هذا الموت الفظيع والعذاب الوجيع ، وهم مع ذلك يطيعون وينشدون ..
واذ رضوا أن تهدم ديارهم وأموالهم ، وتنسف أطفالهم وحبيباتهم .
ذلك تحرر وانطلاق في سبيل العزة وصيانة العقائد .

أين صور الأهوال ووقعها في نفوس الناس قديما ؟ من كان يظن أن
يعيش فترة ينتظر فيها نزول الصواعق والنواصف كل لحظة من السماء ،
وهو مع ذلك يأكل ويباعل ويرقص ويعنى ويقتنى الأموال وينشد الرفاء
والأطفال ؟ !

من كان يظن أن يفعل الناس هذا وهم في ساحات هذه القيامة ؟ !
ما أوثق ما ربط الله الانسان بالأرض !
هذه النفس البشرية أقوى وأبقى من هذه الأهوال ؛ لأنها هي التي
صنعتها ولذلك لاتخشأها .

ألا يجوز أن يكون هذا الاحتمال الصابر الذى بدا من النفوس
البشرية تحت آلام النار والحديد ، تدرييا لها من الأقدار العليا ، واعدادا
لمستقبل مجهول ستحتل فيه آلام اختراق الحجب الكثيفة التى تحول
بينها وبين علم الكثير من غيب السموات والأرض ؟ !
الا يجوز أن يكون هذا التسابق العنيف بين الدول المحاربة فى
اختزال الأبعاد والمسافات واقتحام العقبات ، انما هو جبو على عتبات باب
من الانطلاق والتحرر من قيود الأرض (١) .

ألا انها الطبيعة الجامدة الميتة تلبس هذه الأجساد الحية الشائرة المترعة
بالحياة المتجددة ، الآخذة من موارد علم الله وقوته وقدرته !
ألا انها القوى التى طال سجنها وكمونها فى صدر الأرض ، وجدت
سبيلها الى الانطلاق والظهور على يد الابن البكر للأرض !
ألا انها جن خفية تركب مراكبها وتتدافع منطلقا من سجونها فى
التراب !

أطلقتها يد الانسان الذى لايزال ذاهلا عما يصنع ، ذهول النحل عما
تمزج ، أو دودة القز عما تنسج !

هذه الحرب عملية هدم ما على الأرض وما فى نفس الانسان ليحدث
الله بعد ذلك أمورا .. وقد غمرت موجتها كل البقاع . استيقظ على
قوارعها سكان خط الاستواء فى مجاهل القارة السوداء ، وسكان الأراضى
الثلجية البيضاء وسكان ما بينها ، وسكان الجزر النائية المنشورة فى
المحيطات ، وامتزجت منهم جميعا فى جميع البقاع مجموعتان من الجيوش
تقاتل كل منهما فى سبيل غاية واحدة .

(١) ، (٢) كتب هذا قبل اطلاق المراكب والصواريخ بالانسان الى الفضاء الكونى بعشرين
سنة للاقمار الصناعية بالحيوان تمهيدا لاطلاقها بالانسان .

وان الأقدار تحررهم من التاريخ السيء و « تصفى » ميراث الشراة
والحق .

فهذه آثار لندن العزيزة على أهلها تهدم ، هدمها الانجليز لا الألمان !
تحرروا من حبها وقدموها فداء حرية نفوسهم وعقائدهم في الحياة . ولعلمهم
قد تذكروا بعد أن خوت مدينتهم على عروشها أن النفس هى الباقية ،
أو هى الجديرة بحرص المرء على بقائها سالمة كريمة ، وما عداها ففداء
لها . وتلك حقيقة من حقائق الايمان كان الانجليز قد أوشكوا أن يفقدوها
حينما تدفقت عليهم سيول الأموال من بقاع الامبراطورية قرونا طويلة .

ولعلمهم تذكروا كذلك أن حرية كل شعب خاضع لهم يجب أن تكون
أعز عليه من كل شئ بعد أن هددت حريتهم من عدو جبار ، وكانوا قد
نسوا ذلك أيضا في تلك الفترة الطويلة التى حكموا فيها أمما ولم تحكمهم
أمة . ولعله يكون لعلمهم وتذكرهم هاتين الحقيقتين من حقائق الايمان ،
اكبر الأثر في عملهم على اقامة عالم سعيد على أنقاض القديم . واذا نسى
الانجليز أو تناسوا تلك الحقائق بعد هذه الحرب ، فيرجوا العالم ألا ينسى
الأمريكان الذين كانوا بنجوة من الحروب الحديثة وويلاتها بعد أن
تحرروا من وثنيات الأجناس والدماء المختلفة ، ونعرات القوميات المفرقة
وسعار الاحتكار والاستعمار .

و « بعد » ، فإن هذه الملحمة العظمى وعواقبها ، ينبغى أن تضاعف في
قلوب العرب عزائم الاستعداد لانتقال عظيم يجب أن يسرعوا فيه لاقامة
الحياة العادلة السعيدة التى تخدم أهداف الانسانية جميعا . وانهم
لجديرون أن يقدموا للعالم أعظم المبادئ التى تقوم عليها السلامة
الاجماعية والمساواة الفردية والدولية التى تنشدها الأمم وتنادى بها .

ويبدو من تفاقم مشكلات السلم التى رأيناها ترفع رءوسها البغيضة ،
وتوشك أن تعود بالانسانية الى سيرتها الأولى ، مع أن الحرب لم تكد
تضع نصف أوزارها .. ! ان العالم الأوروبى لا يزال غير راغب للآن أن
ينهض برسالة العدالة والمساواة والأخوة كما يعرفها العرب والمسلمون ..
فلعل الله يدخر هذه الرسالة لهؤلاء في المستقبل كما شرفهم بها في الماضى !

فليسارعوا الى حياة الحق والعدالة والجمال التى فى ميراثهم بأرواحهم
وأجسامهم ومجتمعاتهم ، حتى يكونوا نماذج مجسمة لما سيقدمونه للعالم
من مبادئ وحلول للعقد والمشكلات .

وليعلموا أن هذا هو أوان التبشير والدعوة الى مبادئ روحهم
العالمى الذى قام على أصول أديان الحق التى ارتضتها البشرية فى المشرق
والمغرب .

« ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى
الصالحون » .

« كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ا ان الله قوى عزيز »

فهرس

صفحة	
٣	تقديم لفقيد الفكر الاسلامى الشيخ مصطفى عبد الرازق
٥	الاهداء
٧	ابتهال ورجاء وتعريف
١٣	مقدمة الطبعة الثانية
١٩	أطرحها قضية
٣٣	فى موازين الحس والفكر والضمير

عقدة الثمرة الفكرية من هذا الكتاب

٣٧	نظرة المفارق لنفسه
٤٤	نظرات فى الفلسفة والعلم والدين
٥٣	فوق الموازنة
٥٩	مشرح هائل وممثل واحد
٦٧	الانتظار
٧٣	منابع الفكر ومصابه
٨٣	نضجت الثمار وآن القطاف
٨٩	الضمير ووصايته على الحياة
٩٩	حيث الانس بالانسان
١٠٩	التحرر من التاريخ

فى اصول الاجتماع والسياسة والاقتصاد

١٢١	عقيدة النوع
١٢٧	النفس والتكامل
١٣٧	الواحد
١٤٣	الؤلؤة والصدفة
١٤٩	الفكر والسلطة
١٥٧	ثورة الفكر على الواقع
١٦٥	المسألة الافعوانية
١٧١	جرائم التفاوت الفاحش
١٧٧	الحرب وعبرتها

صفحة	نحو أساس رُوحى للحضارة المادية
١٨٥	بين الوعى والدهول
١٩٣	صوفية مادية
٢٠١	الباقى من صانع الحضارات الفانى
٢٠٥	الى العقل الغربى من الروح الشرقى
	أما بعد ... !
٢١٧	فى معترك الآراء
٢١٩	متى النور يا ظلمات ؟
٢٤٨ - ٢٤٧	الفهرس



دار الكتب والوثائق القومية
دار الكتب والوثائق القومية